

بصائر القرن
من القرآن والسُّنّة

تأليف
الدكتور ساعد بوقزال

بصائر القرن

من القرآن والسُّنّة

تأليف

الدكتور ساعد بوقزال

الطبعة الأولى
1446 هـ – 2025 م

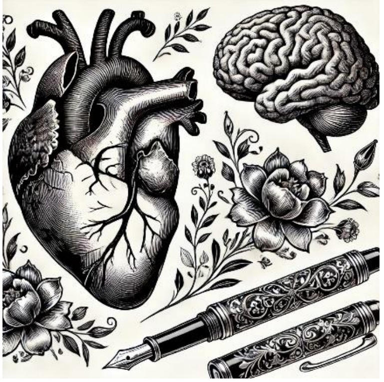
النسخة الأصلية والمرجعية لهذا الكتاب منشورة على Amazon وتحمل رقم ASIN: B0F3PJ92KX.

First Edition
1446 AH – 2025 CE
The original and reference edition of this book is published on Amazon under ASIN: B0F3PJ92KX.

Première édition
1446 H – 2025
L'édition originale et de référence de cet ouvrage est publiée sur Amazon sous le numéro ASIN : B0F3PJ92KX.

الفهرس

مقدمة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّه

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿20﴾﴾ [الجاثية].

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿104﴾﴾ [الأنعام].

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿108﴾﴾ [يوسف].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنّ القرآن الكريم هو كلام الله رب العالمين، أنزله الله عز وجل رحمة للعالمين على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم، عن طريق الروح الأمين، جبريل عليه السلام، ليُخرج به عباده من الظلمات إلى النور. فمن يسلك نهجه ويعمل به، يُهدى إلى أقوم السبيل، كما قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿9﴾﴾ [الإسراء]. ومن يتمسك به، فلن يضل أو يشقى أبدا، كما قال سبحانه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿2﴾﴾ [طه].

أما السُّنّة النبوية، فهي كل ما أُضيف إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير. ويجب على كل مسلم الإيمان بالأحاديث الصحيحة المنسوبة إلى النبي وعدم نكرانها، كما قال تعالى ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞7۞﴾ [الحشر]. ومن بين المهمات الأساسية للرّسول (أو السُّنّة النبوية) إخبار الناس بكيفية تطبيق ما جاء في القرآن، كما قال تعالى ﴿... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞44۞﴾ [النحل]. وهذه الكيفية لم يعلمها إلاّ النبي المرسل، إذ صدرت عنه من خلال أقواله وأفعاله وتقريراته. فلو لم تكن هذه المهمة التي أكمل الله بها رسالة الإسلام، لأنزل الله القرآن دفعة واحدة في قرطاس، ولما استغرق نزوله ثلاثة وعشرين عاما. ولأجل هذه المهمة، أمرنا الله بطاعة الرسول واتباعه وشدّد على ذلك، حيث جعلها من طاعة الله، كما قال تعالى ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۞80۞﴾ [النساء]. فمن جحد بالسُّنّة النبوية الصحيحة فقد زاغ عن الإسلام.

وبما أنّه لا توجد كلمة في القرآن أو السُّنّة النبوية إلاّ وتحدّث عنها السّلف الصالح والتابعون من علمائنا الأجلاّء، وأبدوا فيها آراءهم، فإنَّ أهل العقول اليوم أو غدًا في حيرة من أمرهم، حيث:

من جهة، وجب عليهم تدبّر آيات القرآن الكريم، وتأمل دلالاتها، وإمعان النظر فيها لإبصار نورها واتباع هداها، واستنباط معانيها وحِكمها، والاتعاظ بها. كما فُرض عليهم أيضا إيصال نتائج إبصارهم واستنباطاتهم إلى عامة الناس، إن كانت لا تتعارض قطعا مع القرآن والسُّنّة الصحيحة. وذلك لأنّ العلم يجب أن يُبلّغ، ولا يجوز أن يُكتم، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۞159۞﴾ [البقرة].

ومن جهة أخرى، إذا كانت نتائج تدبُّرهم لا تُناقض القرآن والسُّنّة الصحيحة، ولكنها تُخالف آراء الأولين أو التابعين فقط، صُنّفوا أهل بدع من قبل الذين يحسبون أنّ الأقلام قد رُفعت، إلاّ التي تُوَجّه لتكرار خَطِّ ما قيل من قبل، وأنّ الكتب قد جُفّت، إلاّ التي تُوَفّر لإعادة

طبع ما دُوِّن من قبل، وأنّ العقول قد أُقْفِلت، إلاّ التي تُسَخَّر لإحياء فهم ما أُبْصِر من قبل. فكأنهم يرون أنه لا يمكن أن يوجد أولوا الألباب إلاّ الذين ظهروا في الزّمن الأول للإسلام، ويشيرون ضمنيا إلى أنّ الأشجار والبحار المذكورة مجازيا في الآية ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞27۞﴾ [لقمان] يجب تسخيرها حصرا في تكرار وإعادة كتابة وطباعة ما قيل من قبل فقط. فهم بذلك يعتقدون أنّ السلف معصومون من الخطأ، ويتوهمون أنّ العلم قد بلغ ذروته عندهم، وكأنه لا مجال للبحث والتنقيب في الدين، ولا للنظر فيه من زوايا جديدة.

إنّ هذه الآية تُعدّ من أعظم الآيات الدالة على تعدد معاني ألفاظ القرآن، التي لا ينتهي العقل المسلم من استنباطها ما دامت السماوات والأرض. فهي نور غير منقطع، وعلم لا ينفد، وهذا حقا لا يليق إلاّ بكلام الله، الذي لا شك في أنه صالح لكل زمان ومكان، ويُجيب عن جميع أسئلة السائلين. ولأجل هذه المهمة، سخّر الله، من بعد خاتم الأنبياء والمرسلين، علماء يخلف بعضهم بعضا إلى يوم القيامة، يبصر كل واحد منهم أمورا وتحجب عنه أخرى. ولهذا استثناهم الله في قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۞29۞﴾ [ص]، وأوجب عليهم تدبّر آيات القرآن أينما كانوا ومتى ظهروا.

فالإنسان فضّله الله عز وجل على كثير من خلقه، حيث خلقه في أحسن تقويم، وجعل له العقل لحمل الرسالة، التي لا تُحمل في قرطاس يُعطى للناس، بل في عقول العلماء النيّرة، الذين هم مكلّفون بتنوير العباد وتبليغ استنباطاتهم للناس. فلا يجب أن يخافوا في ذلك لومة لائم ما داموا خاضعين للقرآن والسُّنّة الصحيحة.

إنّ الشيء الذي ربما لا يختلف فيه اثنان هو أنّ بعض القلوب في الزمن الأول قد بلغت الذروة في التسليم لله عز وجل والانقياد الظاهري والباطني بالقرآن والسُّنّة الصحيحة، وتحقيق الإيمان، وبلوغ الإحسان، وغيرها من الخصال الربانية الشخصية، فهي قلوب قد يصعب على أي إنسان أن يبلغ مثلها إلى يوم القيامة. أما فيما يتعلق بعلوم الدين التي تُفيد جميع مجالات الحياة وتستفيد من معارفها واكتشافاتها وتتراكم مع مرور الزمن، فهي في تطور مستمر ولا يمكن

لها أن تعرف الذروة إلى يوم الدين، أو إلى يوم يرفع الله القرآن من الأرض. وفي هذا السياق، ينطبق على كل جيل قول الله تعالى ﴿... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۞85۞﴾ [الإسراء].

إيمانا مني بأنّ العلم العظيم الذي ورثناه عن الأجيال السابقة لا يمكن أن يكون كاملا ولا مُنزّها عن الخطأ، فإنّ السعي وراء تنقيحه وإكماله يعد واجبا شرعيا على هذا الجيل والأجيال اللاحقة. ومن هذا المنطلق، بدأت أدرس القرآن بعمق كبير وأتدبره تدبرا يليق بمقامه، محاولا فهمه واستخلاص معانيه من خلال الأحاديث النبوية الصحيحة والتفاسير المتوفرة. ولكنني أبصرت أنّ هذه التفاسير لم تُوَفَّق في تأويل بعض الآيات، خصوصا تلك التي تتحدث عن المسائل الأساسية في خلق الله الاستثنائي مثل خلق آدم وحواء وعيسى عليهم السلام. وعندما تعمّقت في هذه المسائل، أبصرت أنّ تفاسيرهم لم تُوَفَّق أيضا في فهم قصة ذي القرنين وحقيقة يأجوج ومأجوج ومعجزات عيسى عليه السلام.

وبعد بحث دقيق في هذه المواضيع، والإلمام بكل جوانبها وحيثياتها، توصلت بتوفيق من الله عز وجل إلى تفاسير وبصائر جديدة لم تخطر على بال أحد من قبل، ترفع اللبس عن كثير من القضايا الشائكة، وتجيب على العديد من التساؤلات المحيّرة، وتدحض الكثير من الأفكار والآراء المعتّلة، مثل ما يسمى بنظرية تطور الإنسان التي لا شك أنها بوابة الإلحاد، وتعزز اليقين بالقرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۞42۞﴾ [فصلت]، وتُقوي التصديق بأحاديث الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞3۞﴾ [النجم]، وتُبين الانسجام المطلق بين القرآن والسُّنّة النبوية الصحيحة.

فتشجعت على تأليف هذا الكتاب الذي أهدف من خلاله إلى تبليغ بصائري فيما يتعلق بهذه المواضيع، حيث تفاديت فيه أي نوع من أنواع الحشو وأي شكل من أشكال تكرار ما قد قيل من قبل، إلاّ عند الضرورة القصوى، فكل محتواه جديد ويمثل حصرا بصائري ونتائج بحثي، التي استنبطتها وبرهنت عليها بِحُجج بالغة وموضوعية من القرآن والسّنّة الصحيحة. فأعتقد أنّ هذه البصائر فُصِّلت في هذا الكتاب وبُيِّنت بشكل يجعل من الصعب على ذي عقل سليم ومنطق قويم وقلب تقي أن يتجاهلها.

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي أنشأ لي العقل وجعلني أتدبر به كلامه، وبصّرني بهذه البصائر ووهب لي القوة والوقت لعرضها وتبليغها للناس، ورزقني إيمانا أضاء لي طريقي وجعلني لا أرى إلاّ بنور كتابه وسُنَّة نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم. فأساله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى إخراج هذا الكتاب على الوجه الذي يليق بتفسير كلامه وتعظيم آياته وتبليغ هداه.

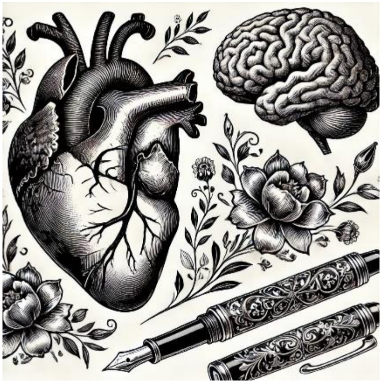
اللهم أجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم، وارزقني أجره، وأجعله نورا ونفعا لعبادك، وأهدي به الضّالين من خلقك، وسخّره لعبادك حتى يَتَّبعوا منهجه ويَتوسَّعوا فيه ويُبصِروا ما يمكن أن يكون فيه من عثرة.

الدكتور ساعد بوقزال

Doctor Saad Bouguezel
bouguezel_saad@yahoo.com
الخميس 27 رمضان، 27/مارس/2025

سطيف، الجزائر

الفصل الأول: البشر الطيني خلَف البشر الناري



تمهيد

إنّ العدو الحقيقي والمبين للإنسان هو الشيطان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿168﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿169﴾﴾ [البقرة].

وقد أمرنا الله عز وجل أن نحاربه فقال ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿6﴾﴾ [فاطر].

والشيطان قد يكون من الإنس أو الجن ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿112﴾﴾ [الأنعام]، وقد تندرج أفعاله ووساوسه ضمنيا مع النفس الأمارة بالسوء والهوى.

فالناس يمكن تصنيفهم حسب مدى تغلبهم على الشيطان ووساوسه، فمنهم:

إنسانا انتصر على الشيطان انتصارا عظيما، فحافظ على فطرته التي فطره الله عليها، فأصبح إيمانه بالله فطريا، وتقبله للإسلام تلقائيا، وتمسكه بالقرآن والسُّنّة طبيعيا، ومآله الجنة وعدا إلهيا ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿40﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿41﴾﴾ [النازعات].

وإنسانا انهزم كليا ورضخ حتى انسلخ من فطرته التي فطره الله عليها، فأصبح عبدا للشيطان والهوى، وعدوا لله والرسول، وحطبا للنار لا يموت فيها ولا يحيى ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ

اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿28﴾﴾ [فصلت].

وإنسانا لا هو مع المنتصرين ولا هو مع المنهزمين، فتارة تراه مع المؤمنين وتارة أخرى تراه مع الكافرين، فهو مذبذب كالمنافق ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿142﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿143﴾﴾ [النساء].

فنجد أنّ الإنسان الذي يكره الإسلام والمسلمين يسعى دائما في المرحلة الأولى إلى إنتاج وإكثار المذبذبين في المجتمع، لأنهم أكثر قابلية واستعدادا لضمهم في المرحلة الثانية إلى حزبه، حزب الشيطان.

ولتحقيق ذلك، ينتهج أساليب عدة، منها إظهار بعض المسائل في الدين وإبدائها وكأنها محيّرة، فيزرع بها الاضطراب والتشويش في العقول الساذجة لبعض المسلمين، فيصبحون في تردد وحيرة، وينتج عندهم عدم الاستقرار الفكري والعقائدي.

ومن بين المسائل التي يستعملها لهذا التضليل، مسألة خلق آدم، حيث يدّعي أنّ تأكيد القرآن على أنّ أول بشر خلقه الله هو آدم الذي يعود ظهوره على الأرض إلى بضع عشرات الآلاف من السنين، يتعارض مع العلم التجريبي المدعوم بالسجل الأحفوري، الذي يزعم أنّ ما يُسمى بأسلاف الإنسان كانوا موجودين على الأرض منذ ملايين السنين. فهو يحاول بهذه الطريقة التشكيك في صحة القرآن ودعم ما يسمى بنظرية التطور التي ما هي إلاّ بوابة للإلحاد.

رغم أنّ هذه الأفكار والآراء لا تستند إلى أي أساس من الصحة، فهي مجرد افتراضات وتصورات لم تتمكن حتى الآن من إثبات علميا وتجريبيا أنّ أصل الإنسان يعود إلى أشباه البشر القديمة المكتشفة عبر الأحافير، إلاّ أنها نجحت في كسب العديد من المؤيدين، وأصبحت آفة خطيرة في مجتمعنا الإسلامي، وخصوصا في السنوات الأخيرة. حيث نجد كثيرا من شبابنا، ممن يدّعون الثقافة، قد اعتنقوا هذه الأفكار، فأصبحوا يقولون على الله ما لا يعلمون، وبدأوا يدخلون أفواجا في حزب الإلحاد، حزب الشيطان.

إنّ الدليل الوحيد الذي يُستخدم لإقناع الناس بهذه الأفكار الضالة والمضللة هو السجل

الأحفوري. لذا، لمواجهة هذه الأفكار التي تُفسد المجتمع والقضاء عليها نهائيا، يجب أولا معالجة أصل الداء، والمتمثل في هذه الأحافير المكتشفة وتلك التي قد تُكتشف في المستقبل.

إنني أعتقد اعتقادا راسخا أنّ القرآن والسُّنّة هما السبيلان الوحيدان لمعالجة مثل هذه الإشكالات المستعصية، ففيهما دواء لكل داء، وجواب لكل سؤال، ونور لكل ظلمة. غير أنّ الاستفادة المثلى من هذين المصدرين تتطلب عقلا سليما، ومنطقا قويما، وقلبا تقيا، وتدبرا عميقا، حتى يتمكن الإنسان من استنباط الحلول المناسبة.

وبتوفيق من الله عز وجل، تمكنتُ في هذا الفصل من إبصار واستنباط أدلة وحجج دامغة من القرآن والسُّنّة تُثبت وجود بشر غير سوي كان يعيش في الأرض قبل آدم عليه السلام. وتُبيّن هذه الأدلة أنّ آدم هو أول بشر خلقه الله من الطين، أما البشر الذي وُجد قبله، فقد خلقه الله من النار، ثم أتى به إلى الأرض ليستعمره فيها، فعاش ومات فيها بلحمه وعظمه وهيكله مثل غيره من الكائنات. وعليه، فإنّ الأحافير المكتشفة والأخرى التي ستكتشف قد يعود بعضها إلى هذا البشر غير السوي.

أتمنى أن تكون هذه النتيجة كافية لرفع اللبس عن صحة القرآن والسُّنّة فيما يتعلق بمسألة خلق آدم، ولدحض ما يسمى بنظرية التطور، وأسأل الله أن يهدي بالبصائر المعروضة في هذا الفصل الضالين من عباده والمغرر بهم بهذه النظرية المزعومة، وألاّ يكونوا كمن اتخذ إلهه هواه ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞43۞﴾ [الفرقان].

أنواع البشر

إنّ كلمة بشر قد تكررت كثيرا في القرآن، حيث جاءت في مواضيع وسياقات مختلفة. أركز أولا على التي جاءت في سياق الخلق الأول، وبالتحديد في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞71۞﴾ [ص]، وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞28۞﴾ [الحجر].

إذا أمعنا النظر في هاتين الآيتين، نجد أنّ الله عز وجل لا شك أنه أخبر الملائكة بقرار خلق شيء جديد وعظيم. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل الجديد في هذا القرار يكمن

في خلق بشر لم يكن معروفا عند الملائكة من قبل لا شكلا ولا طبيعة أم أنه معروف عندهم ولكن الجديد فيه كونه سيُخلق هذه المرة من طين أو من صلصال؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، أود أن أستعين بمثال شبيه، ولله المثل الأعلى. كان هناك ملك يحكم قوما، فدعاهم إلى حفل كبير، ثم قال لهم: إني صانع سيارة من ماء، فإذا أكملتها، فأتوا لرؤيتها.

لقد تمت صياغة هذا القرار بطريقة تجعلنا نستنتج أنّ القوم لم يندهشوا من خبر صنع السيارة بحد ذاتها لأنهم يعرفون السيارة من قبل، وبالتحديد المصنوعة من الخشب أو الحديد أو البلاستيك، ولكنهم حتما تفاجأوا من كون السيارة ستصنع هذه المرة من ماء، فلا شك أنهم ذهبوا سراعا لرؤية هذا المصنوع الجديد بعد عرضه. إذن، الجديد في قرار الملك ليس السيارة بحد ذاتها، بل صنعها من الماء.

من خلال مخرجات هذا المثال، وبما أنّ الجملتين 'إني خالق بشرا من طين (أو من صلصال)' و 'إني صانع سيارة من ماء' جاءتا بنفس الصيغة، أرى إجابة للسؤال أنّ الجديد في قرار الله المذكور في الآيتين ليس البشر بحد ذاته، بل خلقه من طين (أو من صلصال)، فلو كان الجديد هو البشر، لما ذُكرت المادة المستخدمة في خلقه، لأنها في هذه الحالة تصبح مجرد تفصيل بسيط.

إذن، الملائكة كانوا يعرفون البشر، ولكنهم بالتأكيد المطلق لم يكونوا يعرفون البشر المخلوق من طين (أو من صلصال).

تتّمة لهذه الإجابة المستوحاة منطقيا من صيغة الآيتين أقول –والله أعلم– إنّ آدم هو أول بشر يخلقه الله من طين، وأنّه كان هناك بشر يعيشون في الأرض من قبله لم يخلقهم الله لا من طين ولا من صلصال.

تعقيبا على هذا القول الذي يبدو غريبا، قد يقول قائل: إذن، من أي شيء خلق الله البشر الذين عاشوا في الأرض قبل آدم؟

للإجابة على هذا السؤال، يجب أن أستعرض أولا جميع المخلوقات التي خلقها الله قبل

آدم، والتي ذُكرت في القرآن أو في السُّنّة النبوية، والتي قد تتشكل في الأرض كبشر. من بين هذه المخلوقات، نجد الملائكة الذين خلقهم الله من نور، والجن الذين خلقهم الله بعد ذلك من نار، وهذا يتلخص بهذا الترتيب في الحديث عن عائشة عن النبي قال: "خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من نار وخُلق آدم مما وصف لكم" رواه مسلم 5314. ودليل خلق الجن قبل الإنس من القرآن موجود في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝26۝ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ۝27۝﴾ [الحجر].

إنّ الله عز وجل لم يخبرنا لا في القرآن ولا على لسان نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ عن خلق هذه الأجناس الثلاثة، الملائكة، الجن، الإنس. أما الكائنات الأخرى الموجودة في الأرض، فقد خلقها الله جميعا للإنس، ولا ترقى أن تكون بشر ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝29۝﴾ [البقرة].

إذن، البشر المخلوق من غير الطين (أو الصلصال) قبل بشر الإنس المخلوق من الطين (أو الصلصال) هو إما من الملائكة أو من الجن، ولا وجود لمرشح ثالث من بين المخلوقات التي ذُكرت في القرآن والسُّنّة.

بعد أن تمكنت من حصر الإشكالية في هذين الاحتمالين فقط بأدلة موضوعية، يجب أن أستحضر الآن جميع أنواع البشر الذين ذُكروا في القرآن أو في السُّنّة، وهذا كي أبصر أي الاحتمالين أصح.

البشر الطيني

وهم البشر الذين خلقهم الله من طين، أي هم آدم وذريته فقط. فهذا النوع من البشر غني عن التعريف والدليل.

بشر من الملائكة

وهو البشر الذي أصله من الملائكة، كالبشر الذي رأته وتحدثت إليه مريم عليها السلام واستعاذت بالله منه، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا

فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿17﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿18﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿19﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿20﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿21﴾﴾ [مريم].

ومن هذا النوع أيضا، نجد البشر الذين جاءوا إلى بيت إبراهيم عليه السلام، فاستضافهم وتبادلوا الحديث، ثم ذهب سريعًا وجاءهم بعجل سمين مشويٍّ ليأكلوا منه، وذلك لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿69﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿70﴾﴾ [هود].

وكذلك الشباب الحسان ذوو الوجوه الجميلة الذين استضافهم لوط فخاف عليهم لما جاء أهل مدينته إليه حين علموا بمن عنده من الضيوف، وهم فرحون يستبشرون بضيوفه، ليأخذوهم ويفعلوا بهم فاحشة الشذوذ، وهذا في قوله تعالى ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿67﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿68﴾﴾ [الحجر].

البشر الناري

وهو البشر الذي أصله من الجن. رغم أنّ القرآن لم يشر صراحة إلى تشكل الجن على هيئة بشر أو جسم آخر، إلاّ أنّ السُّنّة وردت فيها أحاديث وروايات كثيرة تؤكد صراحة حقيقة هذا التشكل.

من خلال القرآن، نجد أنّ من الجن من اجتمع مع الإنس جنوداً وعمالاً عند سليمان عليه السلام، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿17﴾﴾ [النمل]، وفي ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿39﴾﴾ [النمل]، وفي ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿12﴾﴾ [سبإ]، وفي ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ

كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿13﴾﴾ [سبإ]، وفي ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿14﴾﴾ [سبإ].

ومن خلال السُّنّة، نجد أنّ أحد أفراد الجن تجسّد فكان بإمكان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن يربطه ليراه الناس العاديون، وهذا قد جاء في الحديث (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فأمْكَنَنِي اللَّهُ منه فأخَذْتُهُ، فأرَدْتُ أنْ أرْبُطَهُ علَى سَارِيَةٍ مِن سَوَارِي المَسْجِدِ حتَّى تَنْظُرُوا إلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ هَبْ لي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِن بَعْدِي، فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا" صحيح البخاري 3423). وهناك أحاديث أخرى تُبيّن أنّ الجن يتمثّل على هيئات البشر والبهائم والحيّات.

بعد إبراز حقيقة وجود هذه الأنواع الثلاثة من البشر في الأرض، يمكن الجزم بأنّ كل من يبدو بشرا ليس بالضرورة إنسانا، فقد يكون أيضا من الملائكة أو من الجن، ولكن من المؤكد أنّ كل إنسان هو بشر سوي.

بالرغم من أنّ الله عز وجل خلق الملائكة من نور في عالم خاص بهم، وخلق الجن من نار في عالم آخر، إلاّ أنه مكّن هذين الجنسين من دخول عالم الشهادة الذي خلق الله فيه الإنسان من طين بشرا سويا.

ولكن كل من يأتي إلى هذا العالم الظاهر من عوالم أخرى، لا بد أن تصبح طبيعته كطبيعتنا، أي حيّ كالكائنات والدواب الحيّة الموجودة في هذه الطبيعة حتى يخضع للقوانين الفيزيائية والنواميس التي خص الله بها هذا العالم. أما فيما يخص الشكل، فقد يأخذ أشكالا مختلفة كبشر سوي، بشر غير سوي، حيوان، طائر، حيّة، إلى غير ذلك من الأشكال.

وهذا ينطبق كذلك على الإنسان، حيث يوم يأذن له الله بالدخول إلى عالم البرزخ، تجده يترك طبيعته المادية (جسده) هنا كليا، فيدخل بجوهره (روحه) فقط، ثم يأخذ هناك طبيعة جديدة أخرى تخص حياة البرزخ وقوانينها.

لا يمكن أن يكون هناك عالمان مختلفان، ما لم يكن لهما قوانين وطبيعة مختلفة، فكل مخلوق يأذن له الله بالخروج من عالم والدخول إلى عالم آخر، لا بد أن يترك طبيعته التي كان عليها في العالم الذي يخرج منه ويأخذ طبيعة العالم الذي يدخل فيه، أما جوهره، فيبقى معه أينما ذهب.

إنّ هذا الاستنتاج وحده لا يمكّنني من الإجابة على السؤال: هل البشر الذي كان يعيش في الأرض قبل آدم من الملائكة أم من الجن؟ لذا، يجب أن أستعين أيضا بتعريفات وخصائص هذين الجنسين.

خصائص الملائكة

الملائكة خلقهم الله من نور في عالم خاص بهم، فهم عباد الرحمان مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، ولا يجب تسميتهم تسمية الأنثى، ولا يمكن لنا رؤيتهم على صورهم الحقيقية إلاّ إذا تمثلوا وتجسدوا في عالمنا هذا، كما أنهم يهلكون كما تهلك جميع الأشياء الأخرى التي خلقها الله تعالى، والأدلة على ذلك من القرآن كثيرة ومنها:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝26﴾ [الأنبياء].

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝27﴾ [الأنبياء].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ۝27﴾ [النجم].

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝88﴾ [القصص].

بما أنّ الملائكة تطرح أسئلة موضوعية دقيقة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝30﴾ [البقرة]، وبما أنّ قدرتها على التمييز بين الخطأ والصواب وبين النافع والضار ظاهرة جلية من خلال أسئلتها، وبما أنّ لها قدرة التعلم إذا وجدت من يعلمها ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝32﴾ [البقرة]، فهي تُفكر، وبما أنها تُفكر، فهي مخلوقات عاقلة وليست مبرمجة.

خصائص الجن

الجن خلقهم الله من نار في عالم آخر، ولا يمكن لنا رؤيتهم على صورهم الحقيقية، إلاّ إذا تمثلوا وتجسدوا في عالمنا هذا، لأنهم يروننا من حيث لا نراهم، ولكنهم لا يختلفون عنّا في كل الأمور تقريبا، فهم عاقلون، ومكلفون، ويعصون، ويطيعون، ويموتون، ويحاسَبون على أعمالهم في الآخرة، ويتناسلون، والأدلة على ذلك من القرآن كثيرة ومنها:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞27۞﴾ [الأعراف].

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞56۞﴾ [الذاريات] و ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۞29۞﴾ [الأحقاف].

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۞130۞﴾ [الأنعام].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۞179۞﴾ [الأعراف].

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۞11۞﴾ [الجن].

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۞14۞﴾ [الجن].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞112۞﴾ [الأنعام].

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۞74۞﴾ [الرحمن] و ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي

وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿50﴾﴾ [الكهف].

الإنسان خليفة في الأرض

بعد استعراض خصائص كل من الجنسين الملائكة والجن اللذين يمثلان الأصلين الوحيدين المحتملين للبشر الذي كان يعيش في الأرض قبل آدم، يجب الآن أن أستعين بالقرآن لاستنباط الخصائص التي يتميز بها هذا البشر لمقارنتها بالتي تخص الملائكة والجن، وهذا كي أبصر الأصل الحقيقي والمؤكد لهذا البشر.

إنّ الموضوع الوحيد الذي ذكره القرآن والذي يمكن أن يساعدني في هذا الأمر هو مسألة استخلاف الله للإنسان في الأرض، والتي وردت في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿30﴾﴾ [البقرة].

قبل الخوض في هذه المسألة واستنباط ما يمكن استنباطه منها، يجب أولا إظهار وإثبات المعنى الحقيقي والدقيق للفظ 'خليفة' الذي جاء في هذه الآية. لقد اختلف علماء التفسير في معنى هذا اللفظ.

فريق منهم قال: إنّه يشير إلى أنّ هذا الخلق الجديد هو خليفة الله في الأرض.

فأقول: إنّ هذا التأويل هو زيغ مبين، لأنه لو كان حقا جُعل ليخلف الله في الأرض، لما قالت الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)، لأن الملائكة على يقين تام بأنّ الله إذا أراد أن يجعل من يخلفه في أمر ما، فلن يجعل مفسدا ولا سفّاكا للدماء.

إذا فرضنا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: إني جاعل نائبا ينوب عني في الصلاة بكم عند مرضي، فمن البديهي لدى الصحابة أنّ الرسول سيختار شخصا مستقيما يضمن إقامة وأداء الصلاة على أحسن وجه، فلا يخطر على بال أحد السؤال: أتجعل يا رسول الله من يتهاون ويستهزئ بالصلاة؟ ولله المثل الأعلى.

إذن، لفظ 'خليفة' في هذه الآية بالتحديد لا يدل بتاتا على من يقوم مقام الله في الأرض.

إنني أعتقد اعتقادا راسخا أنه من المستحيل أن يكون مخلوق ما ممثلا أو وكيلا عن الله في أي أمر، حتى ولو كان مثقال ذرة، قد يُكلّف الله أحد مخلوقاته بمهمة معينة، ولكنه يكون معه دائما في جميع حركاته وسكناته، ولا شيء يحدث دون إذنه، وعلى الإنسان أن يتيقن أنّ هذا التكليف ليس لعجز ولا لحاجة، بل لحكمة عظيمة علمها من علمها وجهلها من جهلها.

وفريق آخر قال: إنّه يدل على الحاكم الذي يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه، كما في شأن داوود عليه السلام، لقوله تعالى ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿26﴾﴾ [ص].

فأقول: يجب أيضاً رفض هذا التأويل الذي أراه لا يختلف كثيرا عن تأويل الفريق الأول، وبالتالي فإنّ الحجّة التي تبطله لا تختلف عن تلك التي استخدمتها سابقا، حيث إذا كان الله حقا قرر أن يجعل من ينوب عليه في الحكم بين الناس، فكيف يأتي إذن على بال الملائكة الاستفسار حول احتمالٍ يرون استحالة حدوثه رأي العين، لأنهم يعلمون علم اليقين أنّ الله لا يجعل نائبه فاسدا سفّاكا للدماء.

إذا فرضنا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: إني جاعل مسؤولا جديدا على بيت مال المسلمين، فمن البديهي لدى الصحابة أنّ الرسول سيختار شخصا مؤهلا وأمينا، فلا يخطر على بال أحد السؤال: أتجعل يا رسول الله من يسرق وينهب أموال المسلمين؟ ولله المثل الأعلى.

إذن، لفظ 'خليفة' في هذه الآية تحديدا لا يعني أبدا من ينوب عن الله في الحكم بين الناس.

وقال فريق آخر: إنّه يدل على أنّ هذا الخلق الجديد ستكون له خاصية تعاقب بعضهم بعضا عن طريق التناسل والموت. رغم أنّه لا حرج على الملائكة، لو كان هذا هو المقصود بالخلافة، أن تبدي استفسارها لله حول صفة الإفساد وسفك الدماء لهذا الخلق، إلاّ أنّ تأويل هذا الفريق يجب أن يكون أيضا مردودا، لأنه يُنتج تناقضا صارخا، حيث من جهة، نجد أنّ

صيغة الآية توحي بوضوح تام بأنه هناك أمرا جديدا وعظيما في هذه الخلافة، ومن جهة أخرى، نجد أنّ هذا الفريق أسند لهذه الخلافة خاصية التعاقب المعروفة لدى الملائكة والموجودة في الأرض أصلا، فقد سبق هذا الخلق الجديد دواب الأرض ونباتها التي لها أيضا هذه الخاصية، فالنحل أو الشجر مثلا هي كائنات تعمر الأرض وتخلف بعضها بعضا بالتناسل أو التكاثر والموت كالإنسان. فكل خلائف الأرض تابعة لها، فهي كلها مخلوقات تخلف بعضها البعض بهذه الطريقة، فبعضها انقرضت أو ستنقرض، ولكن معظمها ستبقى مسخرة للإنسان وملازمة للأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إذن، الخلافة في هذه الآية بالتحديد لا تحمل مدلول التعاقب إطلاقا.

وأما الآخرون فقالوا: إنّه يدل على أنّ هذا الخلق الجديد هو خليفة الجنس الذي عمّر الأرض قبله. إني أؤيد بشدة هذا القول، وذلك استنادا إلى كل ما ذهبت إليه سابقا من تفاصيل وأدلة تثبت إمكانية وجود بشر أو جنس غير طيني عاش في الأرض قبل آدم الذي يعتبر أول بشر يخلقه الله من طين. فيصبح استفسار الملائكة في هذه الحالة مبرر ولا حرج فيه.

إذن، أُرجح أن يكون معنى الخلافة في هذه الآية بالتحديد هو استبدال جنس كان يعيش في الأرض بجنس جديد.

من خلال استفسار الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) الذي جاء بعد أن رأت الفساد وسفك الدماء الذي كان يفعله البشر غير الطيني في الأرض، ومن خلال خصائص وصفات الجنسين الملائكة والجن اللذين يمثلان الأصلين الوحيدين المحتملين لهذا البشر كما بينته سابقا، أقول إجابة على السؤال: هل البشر الذي عاش في الأرض قبل آدم كان من الملائكة أم من الجن؟ إنّ البشر الذي عاش في الأرض قبل آدم لم يكن من الملائكة المنزّهة عن الشر، بل كان من الجن الذي خلقه الله من النار وأذن له بالخروج من عالمه بجوهره والدخول إلى العالم الظاهر للاستقرار فيه بطبيعة الكائنات والدواب الحيّة الموجودة فيه، فتشكل وعاش ومات في هذه الأرض على هيئات مختلفة كبشر غير سوي، وحيات، وطيور. إذن، هو جنس ناري له لحم ودم وعظام كسائر دواب الأرض.

بما أنّه لديه هيكلا عظميا ماديا، فالأحافير المكتشفة قد يعود بعضها إلى هذا الجنس الناري وخاصة الأقدم منها، ولا أستبعد أن تكون الكائنات الأخرى ذات الهياكل الغريبة تنتمي إلى هذا الجنس الذي جاء من عالم الجن المتكون من أصناف عدة، وذلك مصداقا للحديث (عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجِنُّ ثلاثةُ أصنافٍ؛ فصنفٌ لهم أجنحةٌ يطيرون بها في الهواءِ، وصِنفٌ حيَّاتٌ وكلابٌ، وصِنفٌ يحِلُّون ويظْعَنون" الألباني صحيح الجامع 3114).

يأجوج ومأجوج بشر ناري

ويبقى جنس واحد مذكور في القرآن والسُّنّة دون ذكر خلقه وأصله، وهو ممثل في يأجوج ومأجوج. لقد بحثت كثيرا عن أصلهم، فخلصت من جهة إلى حقيقة تؤكد أنه ليس هناك دليل واحد في الأحاديث الصحيحة يشير صراحة إلى أنهم من بني آدم، كما توصلت من جهة أخرى إلى استنباط مؤسس يبيّن أنهم يمثلون الجنس الناري.

لإثبات قولي هذا، أستعين أولا بالدليل الذي يبين أنّ يأجوج ومأجوج عاقلون ومكلّفون، والمتمثل في الحديث النبوي من صحيحي البخاري ومسلم الذي يشير صراحة إلى أنهم يدخلون النار، وكما نعلم أنه لا يدخل النار إلاّ العاقل المكلّف، وهذا قد جاء فيما رواه أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تعالى: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك. فيقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين. فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد. قالوا: يا رسول الله، وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف. ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبّرنا. فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فكبّرنا. فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. فكبّرنا. فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود" صحيح البخاري 3348، صحيح البخاري 6530 باختلاف يسير، صحيح مسلم 222 باختلاف يسير.

من هذا الحديث يتضح جليّا أنّ الله عز وجل يأمر آدم عليه السلام أن يُخرج بعث النار من جمع غفير جدا يتكون من صنفين إثنين لا ثالث لهما، الأول يمثل الأكثرية المطلقة، والثاني هو الأقلية ولا يكاد يبين، كما يتضح أيضا أنّ صنف الأكثرية هم يأجوج ومأجوج وهم بعث النار. أما صنف الأقلية، أرى أنّ تفصيله جاء في حديث آخر يحمل نفس السياق، والذي رُوي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: إِنَّ أُمَّتِي فِي الأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ" صحيح البخاري 6529.

بما أنّ الحديثين متشابهان، فإنّ ملاحظة مشابهة لتلك التي ذكرتها في الحديث الأول يمكن إبداءها بنفس الصيغة في هذا الحديث الثاني أيضاً، حيث نلاحظ أنّ الله عز وجل يأمر آدم عليه السلام أن يُخرج بعث جهنم من جمع غفير يتكون من صنفين إثنين لا ثالث لهما، الأول يمثل الأكثرية المطلقة، والثاني هو الأقلية ولا يكاد يبين، كما يتضح أيضا أنّ صنف الأكثرية هم بعث جهنم.

بعد صياغة بعض أوجه التشابه بين الحديثين، أقوم الآن بإبراز بعض أوجه التباين بينهما، ولكن سأكتفي بتسليط الضوء على فرقين أساسين فقط وهما: إنّ يأجوج ومأجوج ذُكروا في الحديث الأول ولم يُذكروا في الحديث الثاني، وإنّ نسبة بعث النار (بعث جهنم) هي تسع مائة وتسعة وتسعين من الألف في الأول وتسعة وتسعين من المائة في الثاني.

من هنا، أستنبط أنّ الحديث الأول يتحدث عن جمع يتكون من جنسين مختلفين تماما، وهما يأجوج ومأجوج من جهة والبشر الطيني (بنو آدم) من جهة أخرى، وأنّ الحديث الثاني يتحدث عن جمع يتكون من جنس واحد فقط، وهو البشر الطيني.

لقد برهنت سابقا أنّ الأرض عمّرها نوعان فقط من المخلوقات العاقلة والمكلفة، ألا وهما البشر الناري والبشر الطيني، وبما أنّ يأجوج ومأجوج عاقلون ومكلفون وليسوا من البشر

الطيني، فهم يمثلون البشر الناري.

إذن، الحديثان متكاملان ويشيران إلى مرحلتين متتاليتين ومترابطتين، فالحديث الأول يخص المرحلة الأولى من الفرز التي يتم فيها التمييز بين البشر الذي عاش في الأرض منذ أن خلقها الله إلى أن يرثها وما عليها، والذي يتكون من البشر الطيني الذي يمثل الأقلية بنسبة واحد من الألف من البشر الإجمالي، والباقي هو البشر الناري الذي يمثل الأغلبية الكاسحة والذي مصيره النار لأنه مفسد ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿94﴾﴾ [الكهف].

وأما الحديث الثاني فهو يخص المرحلة الثانية من الفرز التي يتم فيها التمييز بين البشر الطيني الذي عاش في الأرض منذ أن خُلق آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والذي يتكون من فئتين لا ثالث لهما، المسلمون وهم أقلية ويشكلون واحد من المئة من البشر الطيني الإجمالي، وغير المسلمين (بعث النار من ذرية آدم) الذين يمثلون الأغلبية الساحقة ومصيرهم جهنم خالدين فيها ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿103﴾﴾ [يوسف].

أما من مات من غير المسلمين عبر الزمان ولم تقام عليه الحجّة ولم تبلغه دعوة الرُّسل، فسوف تُعطى له الفرصة ويُمتحن في حياة البرزخ أو في يوم القيامة، ثم يُصنّف ويُحشر مع إحدى هاتين الفئتين، والله أعلم. فكان رجاء النبي أن يكون ربع هؤلاء المسلمين، الذين لا شك أنّ مصيرهم الأخير بعد الحساب هو الجنة خالدين فيها، أو ثلثهم أو نصفهم من أمته، التي هي قليلة جدا ولا تكاد تبين أمام أمم الإنس الأخرى.

إنّ استنباطي الذي مفاده أنّ يأجوج ومأجوج هم البشر الناري يمكن دعمه أيضا بالحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "نزلَتْ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} حتَّى إلى: {عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} . . . الآيةُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو في مَسيرٍ، فرجَّعَ بها صوتَهُ حتَّى ثابَ إليه أصحابُهُ، فقال: أتدرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ هذا يومٌ يقولُ اللهُ لآدمَ: يا آدمُ! قمْ، فابعَثْ بعثَ النَّارِ من كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعين! فكبُرَ ذلك على المسلمينَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا! فوالَّذي نفسي

بيدِهِ ما أنتم في النَّاسِ إلَّا كالشَّامةِ في جنبِ البعيرِ، أو كالرُّقمةِ في ذراعِ الدَّابَّةِ، وإنَّ معكم لخليقتَينِ ما كانتا في شيءٍ قطُّ إلَّا كثَّرتاهُ: **يأجوجُ ومأجوجُ، ومن هلكَ من كفَرةِ الجنِّ والإنسِ**" صحيح ابن حبان 7354. كما يمكن دعمه بالحديث عن عمران بن الحصين رضي الله عنه "... **يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ ومَن مات من بَنِي آدمَ وبَنِي إبليسَ** ...". – حسن صحيح، سنن الترمذي 3169.

من خلال هذين الحديثين، يتبين أنّ يأجوج ومأجوج الذين مصيرهم النار، كما رأينا في الحديث الأول المذكور أعلاه، ليسوا من كفرة الجن ولا من كفرة الإنس، وليسوا من بني آدم ولا من بني إبليس، ولذلك، فهم يمثلون حتما البشر الناري. إذن، الذين يخلدون في جهنم هم يأجوج ومأجوج وغير المسلمين من الإنس والجن، أما الذين يخلدون في الجنة فهم المسلمون من الإنس والجن.

يجب أن أشير إلى أنّ عملية فرز الجن يوم القيامة لم تُذكر قط في هذه الأحاديث ولا في غيرها، وهذا راجع ربما إلى كون جمع الجن يُبعث أصلا بشكل منفصل عن جمع البشر (الناري والطيني) الذي يفرزه آدم على مرحلتين، فيكون فرزهم خاصا بهم.

تنبيه: لقد استندتُ في إبراز المرحلة الأولى من الفرز إلى الأحاديث: صحيح البخاري 3348، صحيح البخاري 6530 وصحيح مسلم 222، لكونها متطابقة تقريبا، ولم أذكر صحيح البخاري 4741 الذي انفرد به البخاري، وجاء فيه لفظ 'إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أنْ تُخْرِجَ **مِن ذُرِّيَّتِكَ** بَعْثًا إلى النَّارِ'، حيث فضّلتُ الاعتماد على الروايات المتطابقة بدلا من تلك المنفردة.

ومع ذلك، إذا سلّمنا بصحة جميع الألفاظ دون استثناء، فإنّ لفظ **'من ذريتك'** لا يؤدي إلى أي لبس، إذ إنّ الله يأمر آدم أولا بفرز ذريته من بين يأجوج ومأجوج في المرحلة الأولى، ثم يُخرج بعث النار منهم في المرحلة الثانية التي جاءت في صحيح البخاري 6529.

أما الحديث (عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: "... ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فيُقَالُ: مِن كَمْ؟ فيُقَالُ: مِن كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قالَ: فَذَاكَ يَومَ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا، وَذلكَ يَومَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ" صحيح مسلم 2940)، فهو لا يتعارض أيضا مع المرحلة الأولى التي ذهبتُ إليها.

إنّ الحديث الوحيد الذي استشكل عليّ هو ما روي عن أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامةِ لآدمَ :قُمْ فجَهِّزْ منْ ذُرِّيَّتِكَ تِسعَ مئة وتِسعةً وتسعينَ إلى النَّارِ، وواحدًا إلى الجنَّةِ. فبكَى أصحابُه وبَكَوا، ثمَّ قالَ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ارفَعوا رُؤوسَكُم فوالَّذي نفْسِي بيدِهِ ما أُمَّتي في الأُمَمِ إلَّا كالشَّعَرةِ البَيضاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأسْودِ فخَفَّفَ ذلكَ عنهُم" شعيب الأرناؤوط 27489.

يشير هذا الحديث إلى أنّ واحدا فقط من كل ألف من ذرية آدم سيدخل الجنة، وهو ما يتعارض مع النسبة المذكورة في صحيح البخاري 6529، حيث جاء فيه أنّ واحدا من كل مئة سيدخل الجنة. لذلك، اعتمدتُ على حديث صحيح البخاري 6529 في إبراز المرحلة الثانية من الفرز، لكونه أكثر توافقا مع السياق العام للمسألة.

أسباب تفضيل استخلاف البشر الطيني

بعد استنباط حقيقة مفادها أنّ الذي عمّر الأرض قبل آدم هو البشر الناري الذي له أشكال وهياكل جسدية مادية مختلفة، بما في ذلك شكل البشر غير السّوي، والذي سُمّي جيله الأخير المتبقي بيأجوج ومأجوج، أقول أنّ الحفريات التي اكتُشفت والتي نُسبت لحيوانات غريبة منقرضة أو لما يسمى بأشباه البشر أو أسلاف الإنسان تعود كلها إلى هذا البشر الناري. ولذلك فإنّ ما يسمى بنظرية تطور الإنسان، التي ترتكز بشكل أساسي وحصري على هذه الأدلة الأحفورية، ليس لها أي أساس من الصحة. والحقيقة المطلقة الساطعة الناصعة التي لا غبار عليها هي أنّ آدم هو أول بشر خلقه الله من الطين مباشرة، وهو أبو البشر الطيني (الإنسان).

ويختلف البشر الناري عن جميع الكائنات التي عاش معها في الأرض لكونه يمتلك جوهر الجن، لذلك فهو مكلف وخُلق ليعبد الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝56﴾ [الذاريات]، ولكنه عاش في الأرض فسادا وسفك الدماء، فقرر الله أن يجعل خليفة لهذا البشر الذي خلقه من نار وعمّر به الأرض بعد أن أخرجه من عالمه الأصلي، وذلك لحكمة لا يعلمها إلاّ هو.

ثمّ أخبر الملائكة بهذا القرار العظيم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً)، فراحت الملائكة تستنبئ حول سلوك هذا الخليفة وتقترح نفسها لهذه الخلافة بطريقة غير مباشرة وتقول: أتجعل يا الله من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) كما جعلت فيها الجنس الناري من قبل والذي شهدنا شره، وإذا قررت يا ربنا ألاّ تجعل فيها مفسدًا مرة أخرى، فلماذا لا تجعلنا نحن، لأننا نسبح بحمدك ونقدس لك (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ).

وهذا ظنا من الملائكة أنّ السبب الرئيسي وراء إفناء هذا الجنس الناري وجعل جنس جديد يخلفه هو الإفساد وسفك الدماء، لكن الله كان يهيئ لأمر عظيم لم تعلم به الملائكة من قبل (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، وهو إعمار الأرض ببشر من طين (الإنسان)، الذي خلق الله من أجله كل ما في الأرض ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿29﴾﴾ [البقرة]، وجعل له الأرض سكنا ومستقرا والسماء سقفا محفوظا ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿64﴾﴾ [غافر].

رغم أنّ الملائكة منحها الله أيضا القدرة على الخروج من عالمها الأصلي والدخول إلى العالم الظاهر والتمثّل في الأرض كبشر من نور، كما بيّنت سابقا، ورغم أنها مثالية في طاعة الله وعبادته، إلاّ أنّ الله قرر وفضّل استخلاف الإنسان في الأرض. فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الأسباب وراء هذا التفضيل؟

القدرة على التعلم

لقد أرجع بعض علماء الأمة هذا التفضيل إلى قدرة الإنسان على التعلم، وذلك استنادا إلى قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿31﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿32﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿33﴾﴾ [البقرة].

إنني أرى أنّ هذا السبب يجب رده، لأن الجن والملائكة هي أيضا مخلوقات عاقلة، كما

وضحت سابقا، فلو علّمها الله الأسماء كلها لربما أصبحت أفضل من الإنسان في مسألة العلم والتعلم. لا أريد أن أخوض كثيرا في هذه المسألة التي جاءت في هذه الآيات الثلاث، لأنني لم أتمكن شخصيا من إعطاء تفسير أو تأويل مقنع لهذه الآيات ولا لمعنى كلمة 'الأسماء' التي جاءت فيها، كما أنني وجدت أنّ جميع التفسيرات والتأويلات التي وردت بخصوص هذه الآيات الثلاث لا تسمن ولا تغني من جوع، فأسأل الله أن يلهم أحد عباده بصيرة تجعله يُنور الأمة بتفسير أو بتأويل مقنع في المستقبل القريب.

تكملة لتأويلي، لا أقطف من هذه الآيات الثلاث سوى العبارة (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)، وأقول أنّ الله يريد من خلالها أن يكشف للملائكة أنه يعلم ما يبدون من الظن حول سلوك الافساد وسفك الدماء لهذا الخليفة، ويعلم ما كانوا يكتمون من الطمع في هذه الخلافة، لأنه في حوارهم معه كان هذا الظن صريحا، لكن هذا الطمع لم يكن إلا تلميحا ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿30﴾﴾ [البقرة].

ويجب أن أشير هنا إلى أنني قمت بهذه التكملة رغم أنني لم أجد تفسيرا مقنعا لهذه الآيات الثلاث، لذا لن تكون هذه التكملة معبّرة ودقيقة إلاّ إذا ثبت مستقبلا أنّ هذه الآيات مرتبطة بالآية التي قبلها، والتي تتحدث عن الخليفة.

أعود الآن لموضوع تفضيل الله للبشر الطيني على البشر النوراني والبشر الناري في مسألة إعمار الأرض.

القدرة على التناسل

قد يقول البعض إنّ الملائكة لا تتناسل، لهذا السبب ليست مؤهلة للاستخلاف في الأرض، فأقول: وماذا عن الجن الذي له ذرية كالإنس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿50﴾﴾ [الكهف]؟

مسألة الإفساد

وإذا قيل إنّ الجن أفسد في الأرض وسفك الدماء، فأقول: أليس في الإنس من يفسد ويسفك الدماء؟ فإن قيل: إذا كان هذا هو السبب، فالأولى أن تُستخلف الملائكة لأنه ليس لها أي وجه من أوجه الشر، فأقول: لا ينبغي افتراض هذا السبب مطلقا، لأن الله تعالى قد بيّن لنا في القرآن أنه لا يريد أن يستخلف خلقا مطابقا للملائكة، وذلك لقوله ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝60۝﴾ [الزخرف]. ولهذا، فإنّ موضوع تفضيل الإنس على الملائكة في مسألة الخلافة أمر محسوم، أما تفضيله على الجن فيبقى محل بحث.

القدرة على الإعمار

فإذا قيل إنّ الجن غير مؤهل للبناء والعمران، فأقول: ألم يكن يعمل لسليمان عليه السلام ما يشاء من مساجد للعبادة، وصور من نحاس وزجاج، وقِصَاع كبيرة كالأحواض التي يجتمع فيها الماء، وقدور ثابتات لا تتحرك من أماكنها لعظمهن ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝12۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝13۝﴾ [سبإ]؟

القدرة على التسيير

وإذا قيل إنّ الجن أضعف من الإنس في تسيير شؤون الحياة.

فأقول: إنّ من الجن من لديه قوة قد لا تضاهيها قوة الإنس ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝39۝﴾ [النمل]، فنجد أنّ الله ساوى الجن مع الإنس في خطابه لهم في مسألة القدرة مهما كان نوعها ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝33۝﴾ [الرحمن]، ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝44۝﴾ [الإسراء].

الصفات الأخرى

فإذا نظرنا في القرآن بتمعن، نجد أنّ الجن والإنس يتشاركان في كل الصفات والأمور المهمة. كسبب الوجود والخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿56﴾﴾ [الذاريات].

وجعل الرسل ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿130﴾﴾ [الأنعام].

ودخول النار ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿38﴾﴾ [الأعراف].

وامتلاك القلوب والأعين والآذان ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿179﴾﴾ [الأعراف].

والتحول إلى الشياطين ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿112﴾﴾ [الأنعام].

والكذب على الله ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿5﴾﴾ [الجن].

والتضليل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿29﴾﴾ [فصلت].

السبب الرئيسي في نظري

لقد بحثت كثيراً عن الفرق البارز والمهم بين الجن والإنس، الذي من خلاله قد أبصر الحكمة البالغة وراء خلق هذا الأخير وجعله خليفة في الأرض، لكنني لم أجد سوى أمر واحد قد يكون جزءا من هذه الحكمة، وهو:

الأمر الأول: الجنس الناري خلقه الله في عالم الجن ثم أتى به إلى هذا العالم ليستعمره فيه،

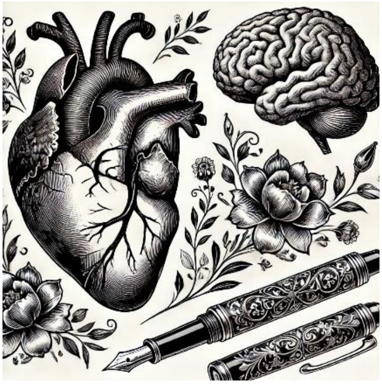
فأعطاه فرصة الظهور والاستقرار في الأرض وإعمارها، ليمتحنه وليرى كيف يعمل وليقيم عليه الحجة، ولكنه أفسد فيها فسادا عظيما في المدة التي عاشها في الأرض، حيث خرّب دوابها وطيورها وأشجارها ونباتها، كما تفنن في سفك الدماء.

وصفة الفساد هذه التي ظهرت عندما 'غزى' عالم الجن عالم الارض تنطبق بشكل أو بآخر على أي دخيل حتى في حالة غزو بلد لبلد آخر، فمن حكمة الله أن ينهي استعمار هذا الجنس الناري للأرض وينفي ما بقي منهم (يأجوج ومأجوج) إلى باطن الأرض ويكُفّ فسادهم، ويحصر عيش وحياة وامتحان الجن في عالمهم فقط، فأصبحوا ليس لهم على أهل الأرض أي سلطان ﴿ ... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ... ﴿22﴾﴾ [إبراهيم].

فاقتضت حكمة الله أن يستخلف الجنس الطيني الذي خلقه من هذا العالم ولهذا العالم ليحقق انسجاما مطلقا بين الأولاد وبين أمهم الأرض ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿61﴾﴾ [هود].

فكانت النتيجة مذهلة، حيث أصبح الإنسان يحس بأنه جزء لا يتجزأ من هذه الأرض، فهو يخدمها بإخلاص وحب، وهي تعطيه بلا بخل ولا امتنان، فوجد فيها كل ما يلزمه للقيام بالمهمة التي خُلق من أجلها، ففساد الجنس الطيني الذي يظهر هنا أو هناك لا يكاد يبين أمام فساد الجنس الناري أو فساد جيله الأخير يأجوج ومأجوج.

الفصل الثاني: قصة ذي القرنين كما لم تسمعها من قبل



تمهيد

عندما اكتشفت في الفصل السابق أنّ يأجوج ومأجوج هم الجيل الأخير للبشر الناري الذي عاش في الأرض قبل آدم عليه السلام، بحثت جيدا عن مصيره، فوجدت أنّ الله عز وجل بعث ذي القرنين لإنهاء عملية إفناء هذا البشر من سطح الأرض، فقام بنفي يأجوج ومأجوج إلى باطن الأرض وسد فتحتي خروجهم بردم يستحيل نقبه إلاّ إذا شاء الله أن يجعله دكّاء.

وعندما شرعت في البحث عن حقيقة خلق الله الاستثنائي لآدم وحواء عليهما السلام، وجدت أنّ لفظ 'حمإ' يُشكّل الكلمة المفتاحية التي من خلال فهمها الدقيق قد أستطيع أن أبصر هذه الحقيقة، فلجأت إلى محاولة فهمها من القرآن وبالتحديد بالاستعانة بلفظ 'حمئة' الذي ورد في قصة ذي القرنين.

فالبحث عن مصير يأجوج ومأجوج وعن معنى لفظ 'حمئة' أجبرني على التطرق إلى قصة ذي القرنين وفهمها بعمق، فسارعت إلى التفاسير المتوفرة، فوجدتها إما هي لا تسمن ولا تغني من جوع، أو أنها متناقضة وغير صائبة، وفي بعض الأحيان مضللة، وخاصة تفسيرهم وتأويلهم للفظ 'عين حمئة'، الذي يتخذه الملحدون وحزب الشيطان بابا لإدخال الشكوك في العقول الساذجة لبعض المسلمين.

هذا الأمر جعلني أُشمّر عن ساعدي لإيجاد تفاسير جديدة منطقية ودقيقة ترفع اللبس

والغموض عن جميع جزئيات قصة ذي القرنين، فوفقني ربي وبصّرني ببصائر لم تخطر على بال أحد من قبل، فهي قد تُطمئن النفوس وتُريح العقول. فارتأيت أن أعرض في هذا الفصل هذه القصة التي تتحدث عن نهاية يأجوج ومأجوج الذين تطرقت إليهم بإسهاب في الفصل السابق، والتي تفسر لفظ 'حمئة' الذي أحتاج إليه في الفصل القادم.

ذو القرنين والبشر الناري

من خلال الدراسة التي قمت بها في الفصل السابق والتي ارتكزت على الأحاديث الصحيحة التي تُثبت أنّ يأجوج ومأجوج مأواهم النار، وأنهم ليسوا من بني آدم، استطعت بعون الله أن أبصر أنهم يمثلون البشر الناري الذي عمّر الأرض قبل آدم، فعثوا فيها فسادا عظيما ﴿...قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ... ﴿30﴾﴾ [البقرة].

فقرر الله عز وجل أن يستخلف البشر الطيني (الإنسان) في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴿30﴾﴾ [البقرة]. فقضى على البشر الناري إلاّ قليلا منهم تركهم يهربون إلى باطن الأرض، وذلك لحكمةٍ الله أعلم بها. فلا ينبغي لنا أن نأمن مكر الله أو نتمادى في الفساد، لأنه ليس بعزيز عليه أن يكرر العملية إذا شاء، فيذهبنا ويأتي بخلق جديد ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿19﴾﴾ [ابراهيم].

ولكن استمرار بقايا هذا البشر الناري، يأجوج ومأجوج، في الخروج للإفساد في الأرض، جعل الله عز وجل يبعث إليهم ذا القرنين ليجعل بينهم وبين أهل الأرض ردما، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿83﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿84﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿85﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿86﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿87﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿88﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿89﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿90﴾

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۞91۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞92۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۞93۞ قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞94۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۞95۞ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۖ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞96۞ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۞97۞ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۞98۞﴾ [الكهف].

هذه القصة القرآنية تخبرنا أنّ الله أتى ذا القرنين من كل شيء سببا، فمكّنه بهذه الأسباب من النفوذ في أقطار الأرض، حيث بلغ مغرب الشمس فوجد عنده قوما، فأقام فيهم العدل، وبلغ مطلع الشمس فوجد هناك قوما لم يجعل الله لهم من دون الشمس سترا، وبلغ بين السدّين فوجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا، فعندئذ استنجدوا به، لأنه معروف بعلمه وقوته وسلطانه، وطلبوا منه أن يجعل سدا يقيهم من فساد جيرانهم يأجوج ومأجوج، فاستجاب لهم وجعله ردما بدلا من سد. هناك ألفاظ وعبارات كثيرة جاءت في هذه القصة يجب الوقوف عندها.

لفظ 'ردم'

بما أنّ الردم يُستعمل أساسا في ردم فجوة أو حفرة أو مضيق عميق في الأرض، فيأجوج كانوا يخرجون من كهف في صدف، ومأجوج من كهف في الصدف المقابل، وهذان الصدفان يشكلان مضيقا عميقا، توجد على جانبيه في الأسفل فتحتا هذين الكهفين.

فردم ذو القرنين هذا المضيق حتى وصل الردم إلى فتحتي الكهفين فأُغلقتا ثم واصل الردم حتى ساوى بين الصدفين، فصار المكان كأنه لم يكن فيه مضيق ولا صدف من قبل.

ولهذا، رأى بدهائه أنّ الردم هو أنسب في هذه الحالة من السد، لأنّ السد الذي طلبوه قد يمنع مجيء يأجوج ومأجوج إليهم مؤقتا، ولكنه لا يمنعهم من الخروج والإفساد في أرض الجهة الأخرى من السد. فهذا يوحي أنّ ذا القرنين جعل حلا جذريا أبديا، فضمن أنّ خروج يأجوج

ومأجوج إلى سطح الأرض أمر مستحيل، إلاّ إذا شاء الله أن يجعل الردم دَكّاء.

وبما أنّ ذا القرنين استعمل في إنشاء هذا الردم علمه وقوة القوم وزبر الحديد والنار والقطر، فالردم مادي وحقيقي، فيستحيل أن يأخذ لفظه المعنى المجازي أو شيئا من هذا القبيل.

إذن، لا وجود ليأجوج ومأجوج مع الناس ولا يستطيعون الخروج إلاّ إذا فُتح الردم فتحا ماديا وفعليا، يوم يشاء الله، وهذا الفتح سيكون في آخر الزمان وقد جاء في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿96﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿97﴾﴾ [الأنبياء].

وجاء في الحديث الصحيح عن زينب بنت جحش رضي الله عنها "أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه – وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها – فقالت زينب بنت جحش: فقلتُ: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث" صحيح البخاري 3346.

فهذا الحديث يتوافق كليا مع القرآن ويعتبر دليلا قاطعا على أنّ خروج يأجوج ومأجوج مرهون بالفتح الفعلي لردمهم الذي وضعه ذو القرنين.

فأهل التأويل الذين قالوا إنّ يأجوج ومأجوج هم من شعوب آسيا (من المغول أو الصين...)، قد تعارضوا مع القرآن والسُّنّة صراحة، فهذه الشعوب موجودة منذ القدم على سطح الأرض، وهي تتعامل الآن مع جميع شعوب العالم بنفس المعاملة التي تتعامل بها الشعوب الأخرى، كما أنها خرجت وتخرج من بلدانها إلى بقاع عدة في العالم مثلها مثل سائر الشعوب الأخرى، فلم يثبت تاريخيا أنهم أُستثنوا في ذلك فكان لا سبيل لهم إلاّ الخروج الفعلي من فتحة ردم حقيقي.

بالإضافة إلى هذا، وبما أنّ النصوص القرآنية والسُّنّية تؤكد أنّ الردم لم يُفتح بعد ولن يُفتح إلاّ في آخر الزمان، فلا وجود ليأجوج ومأجوج مع الناس اليوم. هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فنجد أنّ الأحاديث الصحيحة تؤكد أنّ يأجوج ومأجوج مأواهم النار جميعا، فلا يعقل أن تكون شعوب المغول أو الصين كلها في النار وفيهم مسلمون كسائر الشعوب، والعقيدة

الإسلامية تقول إنّ جميع المسلمين، أينما كانوا وحيث ما وجدوا ومهما تكون ألوانهم وصورهم وأعراقهم، سيكون مثواهم الأخير الجنّة إن شاء الله.

بما أنّ النصوص تؤكد أنّ ردم يأجوج ومأجوج لن يُفتح حتى آخر الزمان، فلن يتم اكتشافه قبل هذا الأجل حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، لأنه لو يُكتشف، حتما سيُفجّر بالقنابل أو سيُفتح بالوسائل الأخرى، ثم يخرج يأجوج ومأجوج، وهذا يتعارض مع النصوص. فالله عز وجل تكفل بعدم كشف هذا الردم، حيث كل النصوص لا تُشير إلى منطقة تواجده لا من قريب ولا من بعيد، وربما يكون الله قد أحدث في تلك المنطقة زلازل كبيرة فوقعت عليه جبال ضخمة، فأصبح الردم في جذور أحد جبال المعمورة. فمن ادعى أنه وصل إلى الردم قبل خروج يأجوج ومأجوج فقد كذب.

فالدّكُّ الفعلي للرّدم هو السبيل الوحيد لخروج يأجوج ومأجوج الذي هو من العلامات الكبرى لقيام الساعة كما جاء في الحديثين المشهورين:

الأول عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: "اطَّلَع النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علينا ونحن نتذاكَرُ. فقال: "ما تَذكُرونَ"؟ قالوا: نَذكُرُ الساعةَ. قال: "إنها لن تَقومَ حتى ترَوا قبلَها عشْرَ آياتٍ" فذَكَر الدُّخانَ والدجَّالَ والدابَّةَ، وطُلوعَ الشمسِ من مَغرِبِها، ونُزولَ عيسى إبنِ مريمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثلاثَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمشرِقِ وخَسفٌ بالمغرِبِ، وخَسفٌ بجزيرةِ العربِ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ من اليمَنِ، تَطرُدُ الناسَ إلى مَحشَرِهم" صحيح مسلم 2901.

والثاني عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ "... فَبيْنَما هو كَذلكَ إذْ أَوْحَى اللَّهُ إلى عِيسَى: إنِّي قدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَانِ لأَحَدٍ بقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إلى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ علَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ ما فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فيَقولونَ :لقَدْ كانَ بهذِه، مَرَّةً، مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حتَّى يَكونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِن مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ اليومَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فيُرْسِلُ اللَّهُ عليهمُ النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ، فيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الأرْضِ، فلا يَجِدُونَ في الأرْضِ

مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى اللهِ، فيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأرْضَ حتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَومَئذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ في الرِّسْلِ، حتَّى أنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعليهم تَقُومُ السَّاعَةُ" صحيح مسلم 2937.

إنّ خبر الإنشاء الفعلي للرّدم لم يأتي في سورة الكهف عبثا، بل جاء لنفهم أنّ يأجوج ومأجوج لم يكونوا في القفار على سطح الأرض، بل كانوا في الكهف فسدّ ذو القرنين فتحة الكهف بالردم.أما بالنسبة لمسألة حياتهم وعيشهم في باطن الأرض، فهي ليست مستحيلة لأنهم بشر ناري، وهم يختلفون عن البشر الطيني (الإنس)، كما بينت ذلك سابقا، فقد يكون هناك اختلاف في ضروريات الحياة بين الجنسين أيضا.

وكذلك، فإنّ خبر الفتح الفعلي للردم والخروج الحقيقي ليأجوج ومأجوج لم يأت في سورة الأنبياء عبثا، بل جاء لنصدّق حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أخبرنا فيه أنّ خروج يأجوج ومأجوج سيكون متزامنا مع نزول النبي عيسى عليه الصلاة والسلام، وستحدث في ذلك الزمان أشياء كثيرة غريبة، وهذا يُشكّل طبعا قصة لاحقة لعيسى تُضاف إلى قصصه وقصص الأنبياء السابقة. وما هذا إلاّ دليل آخر على صحة نزول النبي عيسى عليه الصلاة والسلام.

ويتضح من خلال القصة أنّ ذا القرنين كان عبدا مؤمنا صالحا وعادلا، وربما نبيّا، حيث تجلّت حكمته وعدله في تعامله مع الأقوام المختلفة. ومن خلال حواره مع القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، ابصرت أمرين مهمين:

طبيعة يأجوج ومأجوج

نجد أنّ ذا القرنين لم يحاور يأجوج ومأجوج أو يدعوهم إلى التوحيد أو يسمع منهم أصلا، بل انحاز إلى القوم الذين اشتكوا وطلبوا منه الإعانة ولبّى طلبهم فورا، مُصدّقا قولهم بأنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞94۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۞95۞﴾ [الكهف].

كما أنه لم يهددهم بالعذاب لردعهم عن فسادهم، بخلاف ما فعله مع القوم الأول الذين ظلموا ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۞87۞﴾ [الكهف].

هذا السلوك من ذي القرنين، العبد العادل (أو النبي)، يدل على أنّ يأجوج ومأجوج ليسوا من بشر الإنس، لأنهم لو كانوا كذلك، لسعى ذو القرنين للصلح بينهم وبين القوم، أو على الأقل لسمع للطرفين، بدلا من محاصرتهم في القفار أو حشرهم في باطن الأرض وبناء الردم عليهم.

ولكن يبدو أنه كان يعلم علم اليقين أنهم ليسوا من الإنس، بل هم بقايا من البشر الناري الذين طُردوا في العصور الأولى إلى جزر البحار. فأمره الله بإنشاء الردم عليهم لتحقيق السلام لشعوب الإنس، إلى أن يشاء الله أن يجعل الردم دكاء، حين تتضاعف أعدادهم بشكل رهيب.

حقيقة ذي القرنين

لم تكن لذي القرنين جنود عظيمة من الجن والإنس والطير، كالتي كانت تحت إمرة سليمان عليه السلام. فلو كان يملك مثل هذه الجنود، لأمرهم بإنشاء الردم دون الحاجة إلى الاستعانة بالقوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، حيث قال: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ).

بينما نرى في قصة سليمان عليه السلام أنه كان يعتمد على جنوده العظيمة في تنفيذ المهام، كما في قصة عرش بلقيس، حيث عندما أراد إحضار العرش لم يذهب بنفسه، بل قال: ﴿قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ۞38۞﴾ [النمل].

وهذا يدل على أنّ ذا القرنين كان يعتمد على قوته الذاتية، وحكمته، وعلمه، وعلى

الأسباب التي آتاه الله إياها، مع الاستعانة بالطاقات البشرية المتاحة، وما يملك من جنود وأتباع، دون أن يكون لديه جيش عظيم من الجن والإنس والطير، كما كان الحال مع سليمان عليه السلام. ويشكل هذا الاختلاف الجوهري دليلا كافيا لدحض ادعاء من يزعمون أنّ ذا القرنين هو النبي سليمان عليه السلام، ويؤكد أنّ الشخصيتين مستقلتان بخصائصهما ومكانتهما.

عبارة 'قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا'

إنّ جميع المفسرين وأهل التأويل والعلماء قالوا أنّ هذه العبارة تشير إلى مشاكل اللغة والمحادثة التي كان يعاني منها القوم الذين شكوا فساد يأجوج ومأجوج إلى ذي القرنين.

هذا التفسير يجب رفضه جملة وتفصيلا، لأنّ قصة ذي القرنين لم تأت في القرآن لتخبرنا أنّه كان هناك قوما يتحدثون بلغة ركيكة أو أعجمية تختلف عن لغة ذي القرنين، الذي مكّن له الله في الأرض وآتاه من كل شيء سببا، فجاب الأرض ووصل أقواما كثيرة، ومن البديهي أنّ لغاتهم كانت مختلفة، ومن ناحية أخرى، نجد أنّ الحوار الذي دار في القصة لا يشير إلى مثل هذه المشاكل إطلاقا لا من قريب ولا من بعيد، بل كان سليما وراقيا.

وحتى أستنبط التأويل الصحيح لهذه العبارة، أستعين بسياق شبيه جاء في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝77۝ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝78۝﴾ [النساء].

نلاحظ أنّ القوم الذين ذُكروا في هاتين الآيتين وُصفوا بأنهم لا يكادون يَفْقَهُونَ حديثا (قولا)، رغم أنهم يُتقنون اللغة، ويُحسنون المحادثة، وبالتأكيد هم ليسوا بدائيين. فهذا الوصف جاء لأنهم لا يفهمون ولا يهضمون ولا تستيقن قلوبهم أنّ الأمر الإلهي كله خير وفوائده مثالية ومضمونة في الدنيا وفي الآخرة، ولأنّ فقه الأمور ليس بالأُذن واللسان، بل بالقلب ﴿رَضُوا بِأَن

يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿87﴾﴾ [التوبة]، فهم لا يرون الحق حقا فيتبعونه ولا يرون الباطل باطلا فيجتنبونه، بل هم لا يريدون معرفة حقائق الأمور أصلا، ولذلك هم بعيدون عن فقهها.

هذا يجعلني أستنتج أنّ ذا القرنين اقترح على القوم أن يدافعوا عن أنفسهم وخيراتهم بأنفسهم وأن يُعدّوا العُدّة لذلك، وحاول أن يزرع فيهم الهمة ويدُلهم على الحل الدائم النافع الذي يجعلهم أقوياء على أعدائهم، ولكنهم رفضوا هذا الاقتراح، لأنهم لم تستيقن قلوبهم أنه مفيد لهم ولأجيالهم القادمة، فجاء الوصف (قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)، فكانوا جبناء يخافون من الأعداء خوفا شديدا، فهم كالذين ذُكروا في ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَاۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿24﴾﴾ [المائدة]، وفي ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿86﴾﴾ [التوبة].

فاقترحوا على ذي القرنين أن يُعطوه المال ليجعل لهم سدّا، ولكنه جعل لهم ردما كحل مناسب بدلا من سدّ، وهذا يُبيّن أنهم لا يستطيعون أيضا تقديم الحلول المناسبة، فجاء الوصف (قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلًا) حسب قراءة صحيحة أخرى.

إنَّ السّد يختلف تماما عن الردم، ولذلك لم يرد لفظ 'سد' في أي من الأحاديث الصحيحة المتعلقة بيأجوج ومأجوج، بل جاءت جميعها بلفظ 'ردم'، وذلك ليتطابق تماما مع ما ورد في القرآن الكريم ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿94﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿95﴾﴾ [الكهف].

وهذا الاستخدام الدقيق للمصطلحات في الأحاديث يؤكد التوافق اللغوي والمعنوي مع القرآن، حيث يشير الردم إلى بناء محكم مكوّن من طبقات متراصة داخل الأرض لغلق فجوة أو منفذ، بينما يُفهم السّد على أنه حاجز عادي مقام على الأرض يفصل بين منطقتين.

فالقوم الذين يُحكم عليهم بأنهم قوم لا يكادون يَفْقَهُونَ قولا هم الذين لا يسعون

لاستيعاب واستيقان الأوامر والنصائح والاقتراحات النافعة، أما القوم الذين يُحكم عليهم بأنهم قوم لا يكادون يُفْقِهُونَ قولا هم الذين لا يسعون لإنتاج وتقديم الأوامر والنصائح والاقتراحات المفيدة والمناسبة، فاقد الشيء لا يعطيه. فليدرك الجميع أنّ السعي الدؤوب باتخاذ الأسباب هو مفتاح الاستطاعة والقوة في كل شيء.

من خلال القصة، يمكن القول إنّ القوم الذين وُجدوا بين السدّين ربما كانوا الوحيدين الذين عانوا ويلات يأجوج ومأجوج من بين الأقوام التي بلغها ذو القرنين. قد يرى البعض أنّ السبب في ذلك هو القرب الجغرافي، إلاّ أنني أستبعد أن يكون هذا العامل الوحيد، إذ كانوا قوما لا يكادون يفقهون قولا، ففضلوا القعود على الأخذ بالأسباب التي تُمكّنهم من إيجاد وابتكار وسائل الدفاع والتحصين، مستسلمين لمصيرهم.

وأرى أنّ هذه الصفة يمتاز بها العرب عن غيرهم، لا سيما في فترات انحطاطهم، كالمرحلة التي نعيشها اليوم، حيث يسود الاتكال على الغير بدلا من السعي لامتلاك زمام المبادرة والبحث عن الحلول. ومن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي جاء فيه (ويل للعرب من شرّ قد اقترب)، يمكن استنباط معلومات كثيرة، منها:

أولا: إنّ هذا الحديث يشير إلى أنّ ردم يأجوج ومأجوج موجود في البلاد العربية أو بالقرب منها، فعندما يُفتح سيكون العرب أول من يتعرض للهجمة والشر والهلاك.

ثانيا: إنّ هذا الحديث يدلّ على أنّ العرب ليسوا كغيرهم من الأجناس خاصة عندما يبتعدوا عن الإسلام، فهم لا يُعدّون العُدّة للقتال والتحصين، بل يتولون اسيادهم من العجم ويتخذونهم أربابا ويعتمدون عليهم اعتمادا كليّا في أبسط شؤون حياتهم، فأصبحوا لا يرون إلاّ ما يُورُونهم أسيادهم، ولا يسمعون إلاّ ما يُسمعونهم أسيادهم، ولا يسلكون سبيلا من بين السبل إلاّ الذي اختاره لهم أسيادهم، فيُزين عندهم الخبث، ويُنبذ الصلاح، ويُصفّد المصلح.

من خلال تأويلي لهذا الحديث ومن خلال تفسيري للعبارة 'قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا'، أستنبط أنّ القوم الذين وجدهم ذو القرنين بين السدّين وعرضوا عليه المال ليُؤمّنهم من يأجوج ومأجوج هم العرب في مرحلة الانحطاط، فهم لا يزالون في عهدنا هذا على طبيعتهم

هذه، ويعتقدون أنّ الأمن الفكري والعسكري والغذائي والصحي يُشترى بالمال والنفط ومعادن الأرض، فإن كانوا في ذلك الزمان لا يكادون يفقهون قولا، فهم اليوم لا يفقهون شيئا، فهيهات هيهات لقوم لا يفقهون.

لفظ 'السَّدَّيْنِ'

لقد جاء الفعل بلغ في القرآن في عدة سياقات، أخص بالذكر هنا التي تُعبّر عن البلوغ في الزمن، كقوله تعالى ﴿ ...ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ...﴿15﴾﴾ [الأحقاف]، والتي تُعبّر عن الوصول إلى مكان، كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿61﴾﴾ [الكهف].

إذا سلّمنا أنّ هذا الفعل جاء في الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿93﴾﴾ [الكهف] ليُعبّر عن بلوغ المكان، فإنّ السّدّين هنا يُعبّران عن مكانين فعليين منفصلين، ويمثلان حاجزين كبيرين مرئيين وملموسين، فهما إما من تراب كالجبال وإما من ماء كالمحيطات والبحار والأنهار الكبيرة.

قال جميع المفسرين المشهورين إنّ كلمة 'السّدّين' تعني جبلين، وإنّ ذا القرنين قام بثلاث رحلات غير مرتبطة جغرافيا، حيث وصل منطقة في أقصى الغرب، ثم وصل منطقة أخرى في أقصى الشرق، وأخيرا اتجه إلى منطقة ثالثة فيها جبلان.

فبقولهم هذا أرى أنهم جهلوا أو تجاهلوا مبدأ التعريف والتنكير في اللغة العربية، حيث لا يحتمل قولهم هذا الصحة إلاّ في حالة مجيء هذا اللفظ بصيغة النكرة، كما في الجملة 'حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ سدَّيْنِ'، وقد ذهبوا إلى هذا المعنى اعتباطا دون أن يبصروا أنّ السّدّين يجب أن يكونا معروفين أو مُعرّفين في القرآن أو السُّنّة.

بما أنّ لفظ 'السَّدَّيْنِ' جاء مُعرّفا بأداة التعريف الألِف واللاّم 'ال'، فإما أن يكون السّدّان معلومين في الأرض، أو مُعرّفين في القرآن أو السُّنة.

بناءً على حقيقة مفادها أنّ الأرض تحوي أكثر من جبلين، وأكثر من محيطين، وأكثر من بحرين، وأكثر من نهرين، فلا مجال للسعي لتحديد هذين السّدّين من خلال معلومات الناس

حول ما تحويه الأرض، فيجب أن يُحصر البحث عنهما في القرآن أو السُّنة فقط.

فالموضع الذي يجب البحث فيه أولا قبل سواه، هو في القصة بحد ذاتها. بما أنّ القصة تتحدث عن ثلاثة أقوام منفصلة، فإن دلّ مجيء لفظ 'السَّدَّيْنِ' بالتعريف على شيء، فإنما يدلّ على الحاجزين اللذين يفصلان هذه الأقوام الثلاثة، فيصبح التفسير الصحيح هو أنّ القصة تتحدث عن قوم في الجهة الشرقية للسّدّ الأول، وقوم في الجهة الغربية للسّدّ الثاني، وقوم بين السّدّين.

ويبقى لي الآن تحديد نوع السّدّين، هل هو ترابي أم مائي؟

إنّ كلمة سد ذُكرت في القرآن في موضعين فقط، الأول في قصة ذي القرنين التي نحن بصدد تفسيرها، والثاني في الآية ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۞9۞﴾ [يس] التي تشير إلى سدّين غير مرئيين وغير ملموسين، فهما مختلفان عن السّدّين المذكورين في الموضع الأول.

وفي المقابل نجد أن القرآن ذكر عدة جبال، ومنها الجودي، والطور، وعرفات، والصفا والمروة، ولكن عدم وجود سياقات في القرآن تربط جبلين من هذه الجبال مع بعضهما، يجعلني أستبعد أن يكون السّدّين من هذه الجبال.

إذن، ما بقي إلاّ البحث عن البحار المذكورة في القرآن. لهذا الغرض، يجب النظر أولا في البحار التي وردت في الآيات التي تسبق الآيات التي جاءت فيها قصة ذي القرنين. فهذه الطريقة جعلتني أبصر أنّ السّدّين هما البحران المذكوران في قصة موسى عليه الصلاة والسلام والعبد الصالح التي جاءت قبل قصة ذي القرنين مباشرة، وتحديدا في الآية ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۞60۞﴾ [الكهف].

لأن لفظ 'الْبَحْرَيْنِ' جاء أيضا بصيغة التعريف في الآية 60 من سورة الكهف مثل لفظ 'السَّدَّيْنِ' الذي جاء بعده في الآية 93 من نفس السورة، فالثاني في الترتيب يُفسَّر بالأول الذي عرّفه القرآن في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۞53۞﴾ [الفرقان]، وفي ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ

سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿12﴾﴾ [فاطر]، وبيّن أنّ هذا البرزخ هو الحاجز بينهما ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿61﴾﴾ [النمل]، وأنّ المرَج هو التقاء في برزخ دون أن يبغي أحدهما على الآخر ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿19﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿20﴾﴾ [الرحمن].

ولا أستبعد أن يكون اسم يأجوج ومأجوج قد أُشتق من هذا الأجاج والمرَج، لأنهم كانوا يعيشون بين هذين البحرين بالقرب من مجمعهما، أي مكان التقائهما ومرَجهما وموجهما، فهم كانوا يموجون فيما بينهم كما يموج ويمرج ويختلط البحران العذب والمالح، ويفسدون كما تفسد المياه شديدة الملوحة النباتات والكائنات البرّية بتأجيجها للعطش.

فأقول إنّ ذا القرنين بلغ بين هذين البحرين أو السّدّين، فوجد من دونهما قوما، أي أقرب وأدنى منهما، والمنطقة القريبة لكلا البحرين هي التي لا تبعد كثيرا عن مجمعهما، الذي لا يفصله عن القوم إلاّ منطقة يأجوج ومأجوج.

وأما موسى وفتاه فقد بلغا هذا المجمع، فوجدا عنده العبد الصالح، ومن خلال الآية ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿60﴾﴾ [الكهف]، يظهر أنّ هذا المجمع بعيد جدّا عن مكان الانطلاق الأول لموسى.

وهذان البحران وإن كانا لا يزالان مجهولين، إلا أنهما مُعّروفان في القرآن بخصائصهما الإعجازية وبكونهما يفصلان جغرافيا بين الأقوام الثلاثة.

إني أرى أنّ التسمية جاءت في قصة موسى، الطالب للعلم، بلفظ 'البحرين' لتُظهر آية الله في المرَج بين المياه العذبة والمالحة، وبلفظ 'السّدّين' في قصة ذي القرنين، الممَكّن في الأرض، لتُؤكد على أنهما حاجزان جغرافيان.

كما أنني أرى أنّ القوم طلبوا من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدّا كالسّدّين اللذين يُحصّنان القومين الشرقي والغربي من يأجوج ومأجوج، فلا شك أنهم أرادوا

بذلك إنشاء سدّ مائي جديد يربط ثانية السّدّين لحشر يأجوج ومأجوج في مكان محاط بالمياه من كل جانب، ولكن بدلا من ذلك، قام ذو القرنين بردم فتحتي يأجوج ومأجوج لمنعهم من الخروج نهائيا إلى سطح الأرض.

وهكذا يستقيم معنى لفظ 'السّد'، فيحمل الدلالة نفسها في كل موضع ذُكر فيه. فلفظ 'السّدّان' يشير إلى حاجزين جغرافيين مائيين، كما أنّ السّد المطلوب إنشاؤه هو أيضا حاجز جغرافي مائي، وليس بناؤه أمرا مستحيلا على الإنسان، لا سيما على ذي القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سببا.

أما قول المفسرين بأنّ السّدّين هما جبلان، فإنه يستلزم أن يكون السّد المطلوب جبلا أيضا، وهذا يتعارض مع العقل والمنطق؛ لأنّ إنشاء الجبال من أفعال الله وحده لا شريك له. فهو الذي ألقاها في الأرض ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝15﴾ [النحل]، وأرساها ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝32﴾ [النازعات]، ونصبها فيها ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝19﴾ [الغاشية]، وجعلها أوتادا لها ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝6 وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝7﴾ [النبإ].

وأما الفعل الوحيد الذي سُخّر للإنسان في هذا الشأن، فهو أنّ الله طوّع الجبال للتسبيح مع داوود عليه السلام، ولم يجعل هذا التسخير حتى لسليمان عليه السلام، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝79﴾ [الأنبياء].

وإذا سلّمنا جدلا بأنّ القوم طلبوا من ذي القرنين إنشاء جبل، فإنّ هذا الجبل لن يمنع المفسدين من العبور، مهما بلغ ارتفاعه أو عرضه أو طوله، بل حتى لو كان أملسا يستحيل نقبه أو تسلّقه والظهور عليه. فالعبور أو التسلق يظل ممكنا، مهما استغرق من وقت وجهد، عبر المناطق الجبلية أو التضاريس الملتصقة بجانبي هذا الجبل المزعوم. وعليه، فمن غير المنطقي أن يستمر هذا المنع منذ عهد ذي القرنين إلى يوم نزول النبي عيسى عليه السلام في آخر الزمان.

وبذلك يتضح أنّ يأجوج ومأجوج لم يكونوا في القفار وراء الجبال، وإنما كانوا –ولا

يزالون– في باطن الأرض قرب مجمع البحرين، ولا سبيل لخروجهم إلاّ عبر فتحتيهم المردومتين بردم عظيم أقامه ذو القرنين.

فكانت منطقة مجمع البحرين (بين السّدّين بالقرب من التقائهما) هي الأخيرة في طواف ذي القرنين في الأرض حسب القصة، فبعد أن ردم على يأجوج ومأجوج بردم مصمم علميا وتخلّص من فسادهم نهائيا، استقرّ فيها لأنها غنيّة بالموارد المائية، حيث تحتوي على السمك للأكل، والحلية للباس، والمياه العذبة الصالحة للإنسان والحيوان والنبات، ولأنها تحتل موقعا إستراتيجيا يمكن إنشاء فيها ميناء كبير يُسهّل السفر البحري والسعي في طلب الرزق، فأسس فيها حضارة عظيمة، وغرس فيها التوحيد والعلم والعدل والصلاح، فأصبحت هذه المقومات تتوارث من جيل إلى جيل في هذه المنطقة، ويتعاقب فيها ظهور العلماء والحكماء عبر الزمن.

وأعتقد أنّ هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل موسى يُصرّ على الوصول إلى هذه المنطقة لطلب العلم ولو كلّفه ذلك حقبا كثيرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝60﴾ [الكهف]، فاستطاع أخيرا أن يلتقي فيها بأعلم العلماء وأحكمهم في ذلك الزمان ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝65﴾ [الكهف].

أريد أن أشير هنا إلى أنّ القصص التي جاءت في سورة الكهف لم تأت بترتيبها الزمني، حيث نجد أنّ قصة آدم عليه السلام وإبليس ذُكرت بعد قصة أصحاب الكهف وقصة أصحاب الجنّتين، فمجيء قصة موسى والعبد الصالح قبل قصة ذي القرنين لا يدل على أنها هي السابقة زمنيا.

وأعتقد أنّ ذا القرنين كان بعيدا جدا في التاريخ، لأنّ الله عز وجل مكّن له في الأرض وآتاه من كل شيء سببا ليردم على ما بقي من البشر الناري (يأجوج ومأجوج)، وليؤسس الحضارة الإنسانية على التوحيد.

فالقوم الأول غرس فيهم قِيّم العدالة ومناهج تطبيقها، محذرا إياهم من عواقب الظلم الوخيمة في الدنيا والآخرة، ومرغبا لهم في مزايا الإيمان والعمل الصالح في الدارين. ولا شك أنه

أقام العدل أيضا في القوم الثاني، وأفادهم ببعض مما أتاه الله. وأما القوم الثالث فقد زرع فيهم العلم والمنطق وروح العمل القوي في البناء والتشييد، إلى جانب ترسيخ مبادئ محاربة الفساد والتصدي للأعداء.

فظهور ذي القرنين الذي أقام العدل في الأرض كان قبل مجيء موسى عليه الصلاة والسلام الذي عاش مع فرعون الظالم الطاغي المفسد، ولم يكن حتى متزامنا معه، لأنه لو كان كذلك لأتى إلى عرش فرعون وحارب فيه الظلم والفساد كما فعل مع الأقوام المذكورة في القصة.

لفظي 'مغرب الشمس' و 'مطلع الشمس'

أبدأ بحقيقة معروفة عند الجميع فيما يتعلق بالشمس، وهي أنّ كل منطقة على وجه الأرض لها مطلع مكاني وزماني ومغرب مكاني وزماني خاصان بها، إذن، لا يوجد مطلع ولا مغرب عالمي موحد للشمس، ولا يوجد مكان معين نقول بأنه هو أقصى الشرق أو هو أقصى الغرب، حيث إذا وقفت في أي مكان على الأرض وجعلت يمينك إلى جهة الشرق ويسارك إلى جهة الغرب، فتصبح بالنسبة لك يدك اليمنى في بداية الشرق ويدك اليسرى في أقصاه، وتجد أيضاً يدك اليسرى في بداية الغرب ويدك اليمنى في أقصاه، وهذا يرجع إلى كروية الأرض، فالمعْلم الوحيد الموحد عالميا في هذا الصدد هو الجهة التي تشرق منها الشمس والجهة التي تغرب فيها، ويُعرف في القرآن بالمشرق والمغرب، وقد جاء في آيات كثيرة ومنها ﴿... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ... ۝258۝﴾ [البقرة].

من هذه الحقيقة المطلقة التي لا يختلف فيها اثنان، أقول أنّ القصة التي جاءت في القرآن لا تشير إلى أنّ ذا القرنين وصل إلى أقصى الشرق ولا أنه وصل إلى أقصى الغرب كما ذهب إليه جُلّ المفسرين، بل بلغ مغرب الشمس المحلي لمنطقة معينة على الأرض، كما أنه بلغ أيضا مطلع الشمس المحلي لمنطقة أخرى على الأرض.

وبما أنّ القصة ذكرت ثلاثة أقوام وسدّين، أقول أنّ منطقة القوم الأول موجودة على الجهة الشرقية للسدّ الأول، فبلغ ذو القرنين مغرب الشمس الخاص بهذه المنطقة والمتمثل في هذا السدّ الأول، أما منطقة القوم الثاني فهي في الجهة الغربية للسد الثاني، فبلغ ذو القرنين مطلع

الشمس الخاص بهذه المنطقة والمتمثل في هذا السّدّ الثاني، وأما منطقة القوم الثالث فهي بين السدين قريبة من مكان التقائهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا... ﴿93﴾﴾ [الكهف]. إنّ استنباطي هذا يُزيل الحيرة حول سبب مجيء لفظ 'السدّين' بالتعريف، ويبيّن أنّ هذا اللفظ مُعرّف أصلا في القصة قبل موضع ذكره.

لتأكيد الحقائق التي استنبطتها سابقا فيما يتعلق بالسّدّين، أسلك منهاجا آخر يبدأ بطرح السؤال: لماذا جاء لفظ 'مطلع الشمس' وفعل 'تطلع' في الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ... ﴿90﴾﴾ [الكهف] بدلا من لفظ 'مشرق الشمس' وفعل 'تشرق'؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، يجب التذكير بأنّ كلمة السّدّين التي جاءت في القصة تدل على الحاجزين أو المانعين اللذين يفصلان بين ثلاثة مناطق، فهي إما تعني الجبلين وإما البحرين، فلا وجود لاحتمال ثالث.

بما أنّ الجبل مرتفع فوقنا ونرى قمته كأنّها في السماء، فمن الأنسب أن نقول أنّ الشمس تطل وتشرق من على قمة الجبل، لأنه لا يليق القول: الشمس تطلع من الجبل أو الشمس تطلع من قمة الجبل.

وبما أنّ البحر منخفض تحتنا، فإننا نرى الشمس صباحا وكأنها تخرج وتطلع منه صاعدة، لذا فمن الأنسب والأدق أن نقول أنّ الشمس تطلع من البحر، فهو مطلعها، ولا يليق أن نقول أنّها تشرق منه.

وهذا بديهي، لأنّ مشتقات الفعل 'طلع' كلها تشير بدقة عالية إلى الظهور والحركة والصعود من منخفض إلى مرتفع، ولأن اللفظين 'مشرق الشمس' و 'تشرق الشمس' لا يُعبّران عن الحركة التي تبدو لنا ونشعر بها، كما يُعبّر عنها اللفظان 'مطلع الشمس' و 'تطلع الشمس'.

إذن، إن دلّ مجيء الفعل 'تطلع' في القصة على شيء، إنما يدلّ على أنّ السّدّ الثاني هو مطلع الشمس للقوم الثاني، وهو بحر تطلع منه الشمس عليهم. وتوصلت إلى هذا الاستنباط بناء على الفرضية التي فرضَتها كلمة 'السّدّين'، وهي أنّ مطلع الشمس المكاني هو إما أن يكون جبلا أو بحرا. أما إذا تحدثنا عن الحالة العامة، فإننا نجد أنّ طلوع الشمس يُنسب إلى لحظة

بداية ظهور الشمس وهي صاعدة من نقطة في الأفق الذي هو خط التقاء سطح الأرض الظاهر مع السماء، بغض النظر إن كانت هذه النقطة جبلا أو بحرا أو أرضا مسطحة، كما جاء في الآية ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝130۝﴾ [طه]، وفي الآية ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝39۝﴾ [ق].

أما لفظ 'مغرب الشمس' والفعل 'تغرب' الواردان في ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ... ۝86۝﴾ [الكهف]، فلا يمكن الاعتماد عليهما في استنتاج نوع السدّ الأول، لأنّ مشتقات الفعل 'غرب' كلها تشير إلى اختفاء الشيء عن الأنظار، فالجبل يخفي الشمس كما يخفيها البحر، ويصبح استخدامهما مناسبا في كلتا الحالتين دون تفضيل.

فما بقي لنا إذن إلاّ الاعتماد على المعلومة الإضافية 'تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ' التي من المؤكد أنّها لم تأت في القصة عبثا، إذ أنّ أحد أسباب ورودها هو تسهيل استنباط نوع السدّ الأول الذي تغرب فيه الشمس. إنّ استغلال هذه المعلومة يجب أن يبدأ أولا باستنباط المعنى الحقيقي والدقيق للفظ 'عَيْنٍ حَمِئَةٍ'.

إذا نظرنا إلى التفاسير المتوفرة إلى حد الساعة فيما يخص لفظ 'عَيْنٍ حَمِئَةٍ' نجد أنها لا تخلو من تناقضات صارخة.

فالذين قالوا أنّه يدل على عين يخرج ماؤها من طين أسود، فقد تعارضوا مع معنى القراءة الصحيحة الأخرى التي جاءت بلفظ 'عين حامية' والتي أجمعوا هم والمفسرون الآخرون على أنها تدل على عين ماءها حار، فالماء الذي يخرج من الطين الأسود ليس بالضرورة حار، ومنبع العين الحارة ليس بالضرورة طين أسود. رغم أنّ القراءتين مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب، إلاّ أنّه لا يعقل أن تحملا معنيين مختلفين تماما، والجمع بين هذين المعنيين كما فعل البعض هو خطأ كبير، لأنه ليس هناك علاقة بين السخونة والطين الأسود.

أما الذين قالوا أنّ لفظ 'عَيْنٍ حَمِئَةٍ' يدل على البحر المحيط كما ورد عن الإمام ابن كثير، فقد تعارضوا كليا مع معنى القراءة الثانية التي قالوا أنّها تدل على السخونة، وتعارضوا أيضا مع

معنى كلمة حمإ التي جاءت في سورة الحجر والتي قالوا أنّها تدل على الطين وقال آخرون طين أسود. لو حاول أحد أن يجد علاقة تجمع بين البحر والسخونة والطين الأسود، فلا شك أنّ الكثير من خلايا دماغه ستضرب عن العمل، إذن، إن دلت هذه التناقضات والتخبطات على شيء، فإنما تدل على أنّ تفاسيرهم هذه غير صائبة.

لتفادي مثل هذه التناقضات التي وقع فيها جميع المفسرين وأهل التأويل، أعتمد المعنى اللغوي الذي يقول: حَمَأ (اسم): مصدر حَمِئ، ويقال: حَمِئ فلان على فلان: غَضِب دفاعا عن شيء وحماية له، فهو يتصف بالحميّة: والحميّة: الأنفة، الحماية، المحافظة، يقال: فلان ذو حميّة إذا كان يدافع عن شيء ليحميه ويحافظ عليه.

من هذا، أبصرت أنّ لفظ 'حمئة' الذي جاء في سورة الكهف هو مؤنث للفظ 'حمإ' الذي جاء في سورة الحجر، وهما يدلان على الحماية والمحافظة، فالأول بمعنى حامية، والثاني بمعنى حامي.

فتفسيري هذا يفضي إلى توافق كامل بين معنى هذين اللفظين ومعنى القراءة الثانية 'عين حامية' التي أقول بأنّها تدل على عين حافظة. وأقول أنّ لفظ 'عين' الذي جاء في القصة يدل تشبيها بالعين التي يبصر بها الإنسان أو الحيوان، ولا يدل على منبع الماء.

فنجد أنّ عين الإنسان هي من أكثر الأعضاء حماية في الجسم، حيث رغم أنها بارزة للعوامل الطبيعية، إلاّ أنّ الله عز وجل جعل لها نظاما محكما ودقيقا لحمايتها، ومن بين الأجزاء التي تحميها ميكانيكيا محجر العين والحاجب وشعره والجفنان العلوي والسفلي وشعراهما.

فإذا كنت في شاطئ البحر عند الغروب، فإنك ترى الشمس في نقطة التقاء البحر بالسماء وكأنها تدخل في عين الإنسان وهي تحجبها تدريجيا بجفنيها من الأسفل ومن الأعلى حتى تختفي تماما، فكأنّ الشمس تغرب في عين حافظة، فتبقى محفوظة دون أن تنطفئ، ويريد الله عز وجل من خلال الوصف 'تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ' أن يؤكد أنّ الشمس لا تنطفئ أبدا بل تُحجب فقط حتى تطلع من مطلعها في صباح اليوم الموالي. وهذا المشهد الجميل الذي يستهوي الأنظار لا يمكن أن يُرى بهذه الصورة عندما تغرب الشمس في نقطة التقاء الجبل بالسماء.

إذن، إن دلّ مجيء لفظ 'تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ' أو لفظ ' تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ' في القصة على شيء، إنما يدلّ على أنّ السّدّ الأول هو مغرب الشمس للقوم الأول، وهو بحر تغرب فيه الشمس. وتوصلت إلى هذا الاستنباط بناء على الفرضية التي فرضَتها كلمة 'السّدّين'، وهي أنّ مغرب الشمس المكاني هو إما أن يكون جبلا أو بحرا. أما إذا تحدثنا عن الحالة العامة، فإننا نجد أنّ غروب الشمس يُنسب إلى لحظة اكتمال اختفاء الشمس في نقطة في الأفق الذي هو خط التقاء سطح الأرض الظاهر مع السماء في الجهة الأخرى، بغض النظر إن كانت هذه النقطة جبلا أو بحرا أو أرضا مسطحة، كما جاء في الآية ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿130﴾﴾ [طه]، وفي الآية ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿39﴾﴾ [ق].

قد يقول قائل: إذا كان تفسير عين حامية هو عين حافظة، فكيف يكون إذن تفسير نار حامية؟

إنّ هذا اللفظ جاء في الآيتين ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿11﴾﴾ [القارعة] و﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿4﴾﴾ [الغاشية]، وقد أجمع المفسرون على أنّه يعني نار شديدة الحرارة.

بما أنّه لا يوجد إنسان في هذه الدنيا لا يعرف النار وحرارتها، حيث أنها معروفة كالماء، وحرارتها بديهية، فلا يُعقل أن يأتي كلام الله ليخبر الناس أنّ النار حارة، ولو كان في القرآن أو السّنّة موضع ورد فيه لفظ 'ثلج أبيض'، لأيّدنا من يقول أنّ ورود هذا اللفظ يرجع إلى أنّ هناك أناسا لا يعرفون الثلج إطلاقا.

أما الاستدلال بالنار التي ألقي فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام وجعلِها دليلا على وجود نار ليست حارة، فهو تنقيصا لقدرة الله، لأنّ تلك النار لا شك أنها كانت شديدة الحرارة تفني أي إنسان يُلقى فيها، إلاّ إذا تدخّل الله عز وجل كما تدخّل أيضا في قصة النبي يونس عليه السلام الذي الْتَقَمَهُ الحوت وعاش في بطنه ما شاء الله ثم أخرجه سالما.

لهذا، أقول إنّ تفسيرهم هذا يجب أن يكون مردودا، لأنهم من جهة أضافوا صفة الشّدّة

رغم أنّ لفظ 'نار حامية' لا يشير إلى الشدّة لا من قريب ولا من بعيد، حيث نجد مثلا أنّ لفظ 'ماء بارد' لا يعني 'ماء شديد البرودة'، فحامية تعني حامية، ولا تعني شديدة الحرارة.

ومن جهة أخرى، أعتبر قولهم هذا هو تفسير للماء بالماء، رغم أنهم ربما استعانوا بالحديث الشريف الصحيح الذي يخبرنا بأنّ حرّ نار جهنم أشدّ بكثير من حرّ نار الدنيا، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: "نارُكُمْ جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن نارِ جَهَنَّمَ، قيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنْ كانَتْ لَكافِيَةً، قالَ: فُضِّلَتْ عليهنَّ بتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا." صحيح البخاري 3265.

أريد أن أؤكد هنا أنّ هذا الحديث جاء ليخبرنا عن صفة من صفات نار جهنم، أما لفظ 'نار حامية' فقد جاء في القرآن ليخبرنا الله عز وجل عن الحقيقة الأساسية لنار جهنم التي يجب أن يعرفها العام والخاص.

فأقول إجابة على السؤال المطروح سابقا إنّ معنى نار حامية هو نار حافظة، فنار جهنم خلقها الله مختلفة تماما عن نار الدنيا، حيث إذا أُدخل إنسان في الفرن الذي يُستعمل في تذويب الحديد في الدنيا، فلا شك أنه سيفنى في لمح البصر، ولا يحسّ بالألم إلاّ للحظات.

فلا يطمع أحد أن تفنيه نار جهنم في لحظة مثلما تفعل نار الدنيا، فيستريح من العذاب. فليعلم أنها أمه التي تأويه، ستحافظ عليه في بطنها، فلا يهجرها إطلاقا، وستحميه من الفناء، فلا يموت فيها أبدا، إنها حقا حامية له وحافظة، فهي تنتظر أولادها بشوق كبير، وتقول هل من مزيد، لأنّ بطنها يسع جميع أعداء الله.وبالتشبيه، أقول: لا يجوز للمؤمن أن يتخيّل أن يُسكره خمر الجنة ويُذهِب عقله، كما يفعل خمر الدنيا بشاربيه.

إنّ وروود لفظ 'أُمٌّ' في قول الله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝9۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝10۝ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝11۝﴾ [القارعة] يعد دليلا إضافيا على صحة ما ذهبتُ إليه، فالأم هي أسمى الحُماة بين مخلوقات الله.

كما أنّ وروود لفظ 'مأوى' في العبارتين 'مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ' و 'مَأْوَاهُمُ النَّارُ'، اللتين كُررتا كثيرا في القرآن، يعد دليلا آخر على صحة ما ذهبتُ إليه. فالمأوى هو المكان الذي يوفر

الحماية والوقاية، ولا يُسمى مكان 'مأوى' إلاّ إذا كانت له صفة الحماية والمحافظة. وهذا ما يتجلى بوضوح في السياق القرآني في قوله تعالى ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿43﴾﴾ [هود]، حيث يُظهر أنّ المأوى هو الملجأ الذي يلجأ إليه الإنسان أو الحيوان ليحتمي فيه.

فهذه هي الحقيقة الأساسية التي يجب أن يتيقن منها المؤمن ويخبر بها الناس ليكونوا على بيّنة من أمرهم. وهناك آيات كثيرة تدل على هذه الحماية، ومنها ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿14﴾﴾ [النساء]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿37﴾﴾ [المائدة]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿36﴾﴾ [فاطر]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿56﴾﴾ [النساء]، ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿12﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿13﴾﴾ [الأعلى]، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿15﴾﴾ [الحديد]، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿9﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿10﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿11﴾﴾ [القارعة].

وأخيرا، بتوفيق من الله، تمكنت من استنباط نوع السّدّين المذكورين في القصة، وبيّنت أنّ الطريقتين اللتين اتبعتهما تؤديان إلى حقيقة واحدة وهي أنّ السّدّين بحران. والجمع بين نتائج الطريقتين وترتيب البحرين الذي جاء في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿53﴾﴾ [الفرقان]، يقودني إلى القول بأنّ السّدّ الأول هو بحر عذب (أو بحيرة كبيرة عذبة أو نهر كبير)، وهو مغرب الشمس بالنسبة للقوم الأول، والسّدّ الثاني هو بحر مالح (أو بحيرة كبيرة مالحة)، وهو مطلع الشمس بالنسبة للقوم الثاني، وهذان البحران لهما مجمع يلتقيان فيه، وفي منطقة بينهما، بالقرب من هذا المجمع، يعيش القوم الثالث بجوار فتحتَي يأجوج ومأجوج.

لقد أجمع المفسرون وأهل التأويل على أنّ ذا القرنين بدأ رحلته إلى الغرب أولا، ثم إلى

الشرق ثانيا، ثم إلى منطقة بين السدّين أخيرا. إنّ تأويلهم هذا يتعارض مع منطق القرآن الذي يعطي أهمية كبيرة للترتيب عند ذكر الأشياء، لأنّه من وراء هذا الترتيب حِكما عظيمة.

إذا تفحصنا القرآن جيدا، نجد أنه كلما تطرّق إلى سياق فيه شرق وغرب، إلاّ وسبق ذكر ما يتعلق بالشرق قبل الغرب، وأذكر هنا جميع الصيغ التي وردت في القرآن في هذا الصدد: الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ، الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ، وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ.

ولكنني وجدت أنّ قصة ذي القرنين هي الموضع الوحيد الذي يبدو وكأنه يخالف هذا الترتيب، حيث جاء فيه 'بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ'، قبل 'بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ'. فوقفت مليا عند هذه الإشكالية، فقلت في نفسي لا بد أن يكون هناك تفسير حقيقي غير الظاهري يرفع هذا اللبس، لأنني على يقين بأنّ انسجام كلام الله مطلق وهو إعجاز بعينه.

فحمدت الله كثيرا عندما توصلت إلى الحقيقة ووجدت أنّ ذي القرنين بلغ أولا المنطقة الشرقية الواقعة شرق السدّ الأول، ثم بلغ ثانيا المنطقة الغربية الواقعة غرب السدّ الثاني، ثم بلغ أخيرا منطقة بين السدّين، وهذا يشبه تماما الترتيب الذي جاء في قوله تعالى ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝28۝﴾ [الشعراء].

عبارة 'وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ'

بعدما بينت سابقا أنّ العين الحمئة تعني العين الحافظة، أعود الآن إلى العبارة 'حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ' الواردة في الآية 86 من [الكهف]، لتفنيد الشبهة التي يثيرها الملحدون حول هذه الآية، إذ يقولون إنها خاطئة لأنها تفيد بأنّ الشمس تغرب في عينٍ حمئة

قبل البدء في التفنيد، أستحضر أولا التفسير السائد، الذي يشير إلى أنّ الآية تصف ما رآه ذو القرنين، وليس الموقع الفعلي لغروب الشمس. ويستند هذا التفسير إلى أنّ الفعل 'وجد'

في العربية يعني أدرك، رأى، أو ظن، وليس بالضرورة أن ما وجده يُعبّر عن الحقيقة المطلقة. وعليه، فإنّ التعبير في الآية يُصوّر المشهد من منظور الرائي، وليس تقريرا لحقيقة علمية عن حركة الشمس.

غير أنّ هذا التفسير يُعقّد المسألة أكثر ويزيدها التباسا، لأن الفعل 'وجد' تكرر في نفس الآية مرتين، فإذا منحناه نفس الدلالة في الحالتين، فسيعني ذلك أنّ القوم الذين ذُكروا في الآية موجودون فقط في نظر ذي القرنين، لكنهم غير موجودين فعليا، وهو ما لا يستقيم منطقيا.

للكشف عن هذا الالتباس، أطرح سؤالا على كل من الملحد والمفسر المسلم على حد سواء، وأقول: كيف تُعبِّر عن مكانيْ شروق الشمس وغروبها في قريتك أو مدينتك؟ بما أنّ كل منطقة لها مشرق مكاني ومغرب مكاني خاص بها، فإنّ الإجابة على هذا السؤال بديهية وتظهر جليّة من خلال القصة التالية:

زار أحمد، الساكن في مدينة تقع بين بحرين، صديقه محمد، الذي يقطن في قرية تقع بين جبلين. فذهب المقيم مع الزائر في جولة، وقال له: غدا سنقوم عند الشروق بسباق إلى قمة تلك الحجَرة التي تعلو ذلك الجبل الشرقي والتي هي مشرق الشمس لدينا. وعند الغروب، سنخوض سباقا لجني الزيتون من تلك الشجرة التي تعلو ذلك الجبل الغربي والتي هي مغرب الشمس لدينا. وعندما انتهت زيارة أحمد، طلب من صديقه محمد مرافقته إلى مدينته، فتجولا فيها وقال المقيم للزائر: غدا سنقوم عند الشروق بسباق لصيد السمك في ذلك البحر الشرقي الذي هو مطلع الشمس لدينا. وعند الغروب، سنخوض سباق السباحة في ذلك البحر الغربي الذي هو مغرب الشمس لدينا.

فعندما قصّ أحمد على أهله تفاصيل زيارته، قال لهم: وجدت في قرية محمد أنّ الشمس تشرق من حجرة وتغرب في شجرة. أما السباق، فكان ممتعا، لكن محمد سبقني إلى قمة الحجرة، بفضل عزيمته القوية في الوصول إلى القمم والوقوف على الأرضيات الصلبة الثابتة بشموخ وعزة، فهو يحرص دائما على الاطلاع من الأعلى بنور أقوى من نور الشمس على كل ما هو ثابت ومتحرك حتى لا تقع قدماه على شفا جرف هار فينهار به في باطن بركان لهيبه أعظم من لهيب

الشمس. كما أنه أحرز الفوز عليّ في جني الزيتون، لأنه بارع في تسلق الأشجار المباركة التي أصولها ثابتة وفرعوها في السماء، فهو يحميها ويعتني بها بكل إصرار لأنها دوحاء تظل كل من أراد أن يقي نفسه من حر الشمس، ويجني ثمارها المختلفة ألوانها التي تخرج من أكمامها رزقا للناس بحكمة وبراعة.

إنني أخشى أن يتوهم الملحد، من خلال هذا التعبير اللغوي الوصفي السائد، أنّ عائلة أحمد كذّبت قصة السباق وأنكرت وجود الحجرة والشجرة، لأنها أدركت أنّ المقصود هو أنّ الحجرة انفجرت فخرجت منها الشمس عند الشروق، وأنّ الشجرة احترقت عندما دخلت فيها الشمس عند الغروب.

وعندما قصّ محمد على أهله تفاصيل زيارته، قال لهم: وجدت في مدينة أحمد أنّ الشمس تطلع من بحر وتغرب في بحر آخر. أما السباق، فكان ممتعا، لكن أحمد تفوق عليّ في صيد الأسماك، كمّا ونوعا، لأنه ماهر في الغوص في أعماق البحار، فلا تعجزه ظلماتها، حتى عند استخراج اللؤلؤ والمرجان، لأنه يستعمل مصباحين متلازمين ومتكاملين، لا تضاهيهما الشمس في ضيائهما. كما أنه تقدم عليّ في السباحة، سرعة وتفننا، لأنّ والده علّمه في صغره السباحة والرماية وركوب الخيل اتباعا لسُنّة نبيه، فزاده ذلك قوة وبسطة في الجسم.

إنني أخشى أن يتوهم الملحد، من خلال هذا التعبير اللغوي الوصفي السائد، أنّ عائلة محمد كذّبت قصة السباق وأنكرت وجود الحوت في البحر الشرقي والسباحة في البحر الغربي، لأنها فهمت أنّ المقصود هو أنّ حوت البحر الشرقي كان حطبا، وماؤه وقودا لنار الشمس عند الشروق، بينما صار ماء البحر الغربي يُقبق كالمهل يشوي الوجوه عندما دخلت الشمس فيه عند الغروب.

وهكذا، لم يكن الأمر سوى طريقة تعبير لغوي وصفي اعتادها الناس جميعا. فنحن، على سبيل المثال، في منطقة القبائل وبالتحديد في قريتي، نستخدم في لغتنا الأمازيغية نفس الأسلوب، حيث نقول: 'طِطِّيشْتْ اتْجَبَّادْ اسْقَثْعَرْقُوبْتْ نُذْرَارْ غَاضْ وَاتْغَرِّيبْ اقْثَخْنَاقْثْ نُذْرَارْ إِدِقَبَلْنَدُوثْ'، بمعنى 'الشمس تطل من قمة ذلك الجبل وتغرب في حوض الجبل الذي يقابله'.

أما الفعل 'وجد'، فلا يُستخدم إلاّ مع المستكشف أو الزائر، كما في هذه القصة، حيث يحق له أن يقول: 'وجدتُ'، أو يُقال عنه إنه 'وجد' شيئا. أما المالك أو العارف بشيء، كالمقيم في هذه القصة، فلا يُقال عنه ذلك، ولا يقول هو كذلك.

لذلك، قيل عن ذي القرنين إنه وجد قوما، وهذا وجود فعلي، كما قيل إنه وجد الشمس تغرب في عين حمئة، وهذا وجود مجازي، لأنه كان في مقام الزائر المستكشف. أما ذلك القوم، بوصفهم أهل المكان، فيقولون تلقائيا: الشمس لدينا تغرب في عين حمئة، دون أن يقصدوا الغروب الفعلي في العين الحمئة.

وعليه، ينبغي للمفسر المسلم أن يدرك أن الفعل 'وجد' في الآية جاء في سياق الاستكشاف سواء كان فعليا أو مجازيا. وقد حرصتُ في هذا الطرح، لدحض الشبهة، على تجنب المغالطات اللغوية والتأويلات المتكلفة، إذ لم أعتمد على ليّ النصوص أو تحميل الكلمات أكثر مما تحتمل، بل استندت إلى الفهم الطبيعي للسياق اللغوي.

عبارة 'لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِـهَا سِتْرًا'

بقي خبر واحد ورد في قصة ذو القرنين حيّرني حقا، وهو القوم الذين لم يجعل الله لهم من دون الشمس سترا، كما جاء في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝90۝﴾ [الكهف].

قد ذهب أغلب المفسرين إلى أنّ هذا القوم لم تكن لهم بيوت ولا أشجار ولا حتى كهوف جبلية تسترهم من الشمس، فهذه الستائر من عند الله يجعلها لعباده، كما جاء في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ... ۝81۝﴾ [النحل].

إنني أرى هذا الاحتمال ضعيف ولا يليق بمقام القصة القرآنية، حيث إذا فرضنا أنّ بدائية هذا القوم انحطت إلى مستوى الحيوان، فلماذا تشبثوا بهذا المكان ولم يهاجروا منه كما تهاجر الحيوانات مسافات طويلة للبحث عن الكلأ والماء والمأوى؟

رغم أنني أستطيع الإجابة على هذا السؤال بالقول إنهم قوم كانوا يعيشون في جزيرة رملية في وسط البحر لا جبل فيها ولا شجر، فلم يكن فيها شيء يمكن استعماله في بناء المنازل أو

إنشاء القوارب أو صناعة الملابس، فهم إما هُجّروا إلى هناك قصرا أو العوامل الطبيعية هي التي أوصلت وتركت أجدادهم هناك، إلاّ أنني لا أعتقد أن تكون في ذلك الزمان أو في يومنا هذا جزيرة لا حجر فيها ولا شجر.

وذهب آخرون مثل الحسن وقتادة وغيرهم إلى نفس السياق، حيث قالوا إنّ القوم هم الزنج وأنه ليس لهم بنيان، إذ لا تحمل أرضهم البناء. ولكنهم أضافوا بأنّ القوم يدخلون من حر الشمس في أسراب، فهذا يعارض قولهم بأنّ القوم ليس لهم بنيان، لأنّ البيت والكهف والشجر الذي لا تسقط أوراقه في الخريف والسرب والغار كلها ستائر تضمن نفس الوقاية من الشمس.

وذهب البعض الآخر إلى القول بأنّ القوم كانوا لا يسترون أجسادهم باللباس، فهم كانوا يعيشون عراة كما خلقهم الله، ولم يجعل الله لهم سرابيل تقيهم حرّ الشمس كما جعلها لغيرهم من العباد، ﴿... وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝81﴾ [النحل].

وفي نظري، هذا احتمال لا يليق أيضا بالقصة، لأنه لو كان كذلك لأشار الله إلى موقف ذي القرنين من هذا المنكر، العري، ولعلّمنا طريقة تغييره والنهي عنه، لأنّ الله لا يرضى عن الباطل أبدا، ولا يُعقل أن تمر القصة القرآنية على هذا العمل الشنيع مرور الكرام، حيث نجد أنها في حالة القوم الأول علمتنا إقامة العدل، ورهّبتنا من فعل الظلم، ورغّبتنا في اتباع الحق، كما أكدت لنا الحقيقة العلمية للدوران الفلكي، موضحة أنّ الشمس تُحفظ كما هي ولا تنطفئ عند الغروب، فهي ليست مجرد مصباح يُضيء نهارا وينطفئ ليلا. أما في حالة القوم الثالث فقد بيّنت لنا أهمية امتلاك العلم والقوة والأسباب في البناء والتشييد والدفاع عن النفس ومحاربة الفساد والمفسدين.

إنّ تفسيرهم هذا خطير جدا، وقد تكون عواقبه وخيمة، حيث قد يُستعمل كدليل لإباحة العري، لأنّ الله عز وجل سكت عنه ولم ينهنا عن ذلك ولو تلميحا.

فيجب أن نكون على يقين أنّ الله لا يضل في أفعاله وأحكامه ولا ينسى شيئا منها ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝52﴾ [طه]، حيث إذا نظرنا مثلا

إلى قصة آدم عليه السلام التي جاءت في قوله تعالى ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿22﴾﴾ [الأعراف]، والتي تحوي على سياق يدل فعلا على العورة، نجد أنّ الله لم ينس أن يأمرنا بطريقة غير مباشرة لسترها ولو بورق الشجر، فالجملة 'وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ' لم تأت للتشويق، بل لحكمة التنوير والهداية، وعدم نسيان النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

أما الذين قالوا بأنّ القوم كانوا يعيشون في منطقة لا تغرب فيها الشمس، كتفسير السعدي، فأقول أنّ هذا التفسير يتعارض صراحة مع معنى الفعل تَطْلُعُ الذي إن دل على شيء، فإنما يدل على الاستمرارية في طلوع الشمس اليومي المعتاد، ولا يدل على أنها طلعت وانتهى.

وإذا أصرّ أحد وقال: إنّ هذا الفعل يمكن استعماله أيضا بهذه الصيغة في حالة طلوع الشمس الأسبوعي أو الشهري أو الثلاثي أو السداسي، فيجب عليه استنادا لمنطقه هذا أن يتقبل أيضا القول بأنّ الله قد جعل لهذا القوم ليلا طويلا ولو بعد نهار طويل، وهذا يتعارض مع مدلول القصة الذي يشير بوضوح تام إلى أنّ الله لم يجعل لهم سترا من دون الشمس قط.

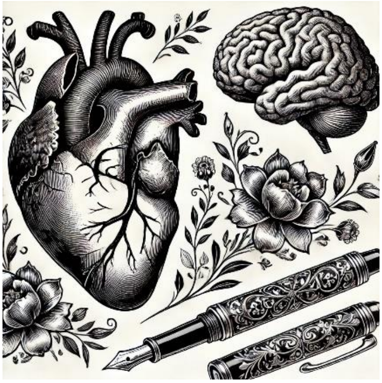
بعد إثبات أنّ آراء العلماء والمفسرين التي جاءت في لفظ 'سترا' كلها غير صائبة، أنصح أولي الألباب بالتدبر العميق لإيجاد تفسير آخر يليق بمقام القصة ويريح العقول. لأنني أرى أنّ القوم الثاني كانوا أناسا عاديين يعيشون في مناخ طبيعي مثلهم مثل سائر الناس، وفي أسوء الحالات، كان الظلم منتشرا بينهم، فحاربه ذو القرنين كما فعل مع القوم الأول، وهذا يمكن أن يُفهم ضمنيا دون الحاجة إلى تكراره في موضع ذكر هذا القوم.

إذا أمعنا النّظر في القصة جيّدا نجد أنها نورتنا وأفادتنا بكثير من الأمور عندما تطرقت إلى القومين الأول والثالث، ولكن يبدو تطرقها إلى القوم الثاني وكأنه جاء عبثا، ولكن هذا قطعا لا يمكن أن يكون صحيحا، لأنّ الآيات القرآنية كلها دروس وعبر لعباد الله المؤمنين، كما أنه لا يمكن بحال من الأحوال اعتبار التأويلات التي وردت فيما يخص الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ

الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿90﴾ [الكهف] أنها مُنَوِّرة، وأنّ لفظ 'سترا' يشير إلى بيت أو كهف أو شجرة أو سرب أو غار أو لباس.

هذه الإشكالية جعلتني أبحث بتبصر عميق في هذا الموضع، وكانت النتيجة أنّ هذا القوم لديهم بشرة شديدة السواد، وهم كغيرهم من الأقوام الأخرى من حيث الملبس والمسكن، فقد ثبت علميا أنّ البشرة السوداء تمتص أشعة الشمس، خلاف البشرة الفاتحة التي تعكس الكثير منها، فالله عز وجل لم يجعل السّتر الذي يعكس الشمس في الأولى كما جعل في الثانية، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿22﴾﴾ [الروم]. هذا الرأي الذي أبصرته قد يكون صائبا، لأنه يعطي مدلولا علميا عظيما لهذه الآية يليق بقصة ذي القرنين الذي منحه الله العلم وآتاه من كل شيء سببا.

الفصل الثالث: خلق آدم وحواء



تمهيد

إنّ الله عز وجل أمرنا في أكثر من موضع في القرآن أن نتفكر وننظر في خلقه، حيث أمرنا أن ننظر كيف بدأ الخلق ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝20﴾ [العنكبوت].

كما أنه أمرنا أن ننظر مما خُلق الإنسان ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝5﴾ [الطارق].

فبالتوازي مع هذا الأمر، قد أخبرنا الله في القرآن ببعض تفاصيل خلق الإنسان. ولكن هذه التفاصيل بدت للمفسرين والعلماء غير كافية للوصول إلى الحقيقة الكاملة في الكيفية التي خُلق بها الإنسان الأول (آدم وزوجه)، رغم اعتمادهم أيضا على الأحاديث النبوية الصحيحة. لهذا، انبثقت من مجهوداتهم تأويلات كثيرة في هذا الصدد، ولكنها إن لم تكن خاطئة فهي ظاهرية وسطحية فقط.

فنجد في قضية خلق آدم مثلا، جميع المفسرين والعلماء، الذين يؤمنون بأنّ آدم خُلق مباشرة من تراب، وهم الأكثرية المطلقة، يقولون أنّ خلق آدم مر حسب القرآن بخطوات انتقالية من تراب، إلى طين، إلى طين لاّزب، إلى صلصال من حمأ مسنون وصولا إلى صلصال كالفخار.

إنني أرى أنّ هذا التفسير الظاهري بعيد كل البعد عن الحقيقة ومنبعها، لأنّ الانتقال بين هذه المكونات المذكورة في مختلف آيات القرآن طبيعي وبديهي، حيث إذا قيل لنا أنّ الانسان خُلق من طين، فمن البديهي أنّ هذا الطين تكوّن بمزج التراب والماء، وهذا المزج لابد أن يُنتج

طينا لازبا وهكذا. إذن، هذه المكونات لا ترقى حتى تستحق الذكر في القرآن العظيم كمراحل خلق الإنسان.

فالتفسير السائد مردود، لأنه لا يتعدى تفسير الماء بعد الجهد بالماء، فهو لا يُسمن ولا يُغني من جوع ولا يسد رمق المتعطش لمعرفة حقيقة خلق الإنسان.

لهذا يستوجب علينا البحث المفصل والتدبر العميق لاستنباط حقيقة ذكر هذه المكونات في القرآن، وخاصة التي جاءت بالكلمات المفتاحية كالطين، والصلصال والحمأ المسنون والصلصال كالفخار. وأشير هنا إلى أنني قد بدأت في إبصار المعنى الحقيقي والدقيق للفظ 'حمأ' في الفصل السابق.

الطين والصلصال

لتسهيل التدبر من أجل تحقيق استنباط صحيح ودقيق، أبدأ بحثي في هذا الشأن بتصنيف الآيات القرآنية التي تتحدث عن خلق الإنسان الأول إلى مجموعتين على أساس هذه المكونات. فالمجموعة الأولى تشمل الآيات التي تحمل سياق خلق الإنسان من الطين، وأسميها مجموعة الطين، أما الثانية فهي تشمل الآيات التي تحمل سياق خلق الإنسان من الصلصال، وأسميها مجموعة الصلصال.

مجموعة الطين

تتكون هذه المجموعة من موضوعين أساسيين زائد خمس آيات منفصلة، وهي كالتالي:

الموضوع الأول: جاء في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞71۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞72۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞73۞ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞74۞ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۞75۞ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۞76۞ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞77۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۞78۞ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞79۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞80۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۞81۞ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞82۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۞83۞ قَالَ

فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿84﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿85﴾﴾ [ص].

الموضوع الثاني: جاء في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿11﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿12﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿13﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿14﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿15﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿16﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿17﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿18﴾﴾ [الأعراف].

الآيات الخمس هي:

1- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿61﴾﴾ [الإسراء].

2- ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿7﴾﴾ [السجدة].

3- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿2﴾﴾ [الأنعام].

4- ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿11﴾﴾ [الصافات].

5- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿12﴾﴾ [المؤمنون].

مجموعة الصلصال

تتكون هذه المجموعة من موضوع أساسي واحد زائد آيتين منفصلتين، وهي كالتالي:

الموضوع: جاء في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿29﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿30﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿31﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿32﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ ﴿33﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿34﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿35﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿36﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿37﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿38﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿40﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿41﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿42﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿43﴾﴾ [الحجر].

الآيتن هما:

1- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿26﴾﴾ [الحجر].

2- ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿14﴾﴾ [الرحمن].

آدم خُلق من طين ولم يُخلق من صلصال

بعد تحديد وتركيب مجموعتي الطين والصلصال بإحكام، تأتي الآن مرحلة التحليل والمقارنة. إذا نظرنا بإمعان إلى الموضوع الأول في مجموعة الطين وإلى موضوع مجموعة الصلصال، نجد أنّ الموضوعين متشابهان تماما في كل التفاصيل، ماعدا في عبارة 'لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ' التي سأنظر فيها لاحقا. إنني على يقين أنّ هذا التشابه لم يأت في القرآن عبثا، بل لابد أنه يخفي شيئا عظيما.

إذا اعتمدنا التأويل السائد الذي يقول أنّ المكونين الطين والصلصال ما هما إلا مرحلتان من مراحل خلق آدم، تنشغل عقولنا لا محال بأسئلة كثيرة محيّرة، منها: لماذا أخبر الله الملائكة بهاتين المرحلتين ولم يخبرهم بالمراحل الأخرى؟، حيث قال ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿71﴾﴾ [ص] و﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾﴾ [الحجر]، ولم يقل في موضع آخر: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن تُرَابٍ)، أو (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن مَاءٍ)، أو (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)، أو (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)، أو (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ)، أو (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ). ولماذا جاء في القرآن هاذان الموضوعان المتشابهان أحدهما بلفظ

طين والآخر بلفظ صلصال؟ ولماذا ذُكر آدم في مجموعة الطين ولم يُذكر قط في مجموعة الصلصال؟ ولماذا ذُكر لفظ 'الإنسان' مرتين ولفظ 'بشر' مرة واحدة في كل من المجموعتين؟

إنّ هذه الأسئلة وغيرها تقودني من جهة إلى التأكد من عدم صحة التأويل السائد الذي يعتقد أنّ المكونات التراب والطين وطين لاّزب وحمأ مسنون وصلصال كالفخار ذُكرت في القرآن كمراحل خلق آدم، ومن جهة أخرى تجعلني أبصر الحقيقة التي لا جدال فيها وهي أنّ البشر الذي تتحدث عنه مجموعة الطين يختلف تماما عن البشر الذي تتحدث عنه مجموعة الصلصال. لهذا سأفسر كل مجموعة بشكل منفصل.

تفسير مجموعة الطين

الموضوع الأول في هذه المجموعة يتحدث عن خلق بشر من طين، حيث أخبر الله الملائكة بهذا الخلق، ثم أمرهم أن يقعوا له ساجدين، وهذا السجود لا يكون إلاّ بعد أن يُسويه وينفخ فيه من روحه، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس امتنع عن السجود استكبارا وغرورا لكونه خُلق من نار وهذا البشر **خُلق من طين**.

من هذا الموضوع وحده لا يمكن أن نعرف مَن هذا البشر الذي خلقه الله من طين بيديه. فإذا انتقلنا إلى الموضوع الثاني والآية '1' وأمعنا فيهما النظر، نجد أنهما يعطيان بعض التفاصيل التي لم تُذكر في الموضوع الأول، حيث نستشف منهما وبالتحديد من سبب امتناع إبليس عن السجود أنّ آدم خلقه الله **من طين**.

إذن، البشر أو الخلق من طين المذكور في الموضوع الأول وفي كل من الآيات '2'، '3'، '4'، '5' في هذه المجموعة هو آدم. فآدم خلقه الله من طين بيديه على ثلاثة مراحل فقط، وهي تحضير الطين، والتسوية ونفخ الروح. أما لفظ 'طين لّازب' فلم يأت في القرآن كمرحلة الخلق، بل جاء في الآية '4' كي يُذكّر الله الكفار الذين يحسبون أنهم أشد خلقا من المخلوقات الأخرى أنهم خُلقوا من خلق ضعيف وهو الطين اللزِج، فسلالة من طين المذكورة في الآية '5' وطين لازب يندرجان ضمنيا مع التراب في مرحلة تحضير الطين.

أعود الآن إلى الحديث عن العبارة القرآنية 'لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ' التي وردت في الموضوع

الأول من مجموعة الطين، والتي تأكدَ مدلولها في السُّنّة النبوية من خلال حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُجْمَعُ المؤْمِنُونَ يَومَ القِيامَةِ فيَقولونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنا إلى رَبِّنا فيُرِيحُنا مِن مَكانِنا هذا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فيَقولونَ له: أنْتَ آدَمُ أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بيَدِهِ، وأَسْجَدَ لكَ المَلائِكَةَ، وعَلَّمَكَ أسْماءَ كُلِّ شيءٍ فاشْفَعْ لنا إلى رَبِّنا حتَّى يُرِيحَنا، فيَقولُ لهمْ :لَسْتُ هُناكُمْ فَيَذْكُرُ لهمْ خَطِيئَتَهُ الَّتي أصابَ" صحيح البخاري 7516.

إنّ هذه العبارة التي ورت في القرآن والسُّنّة تُوحي بأنّ خلق آدم كان تدخلا إلهيا مباشرا، حيث خلقه الله بيديه من طين دون وسيط أو تدرج زمني طويل. بمعنى أنّ آدم لم يكن نتاج أجيال من البشر أو كائنات حية أخرى تطور منها، حتى نقول إنّ خلقه استغرق ملايين السنين. فهو لم يُخلق بسُنّة التناسل الإلهية كما نُخلق نحن اليوم، ولا بخرافة التطور الصدفي، كما يزعم بعض المفكرين وأصحاب خرافة التطور، لأنّ آدم هو الوحيد الذي ذُكر في القرآن بأنه خُلق بيدي الله. فلو كان آدم قد خُلق فعلا بهذه السُّنّة التناسلية أو بطريقة أخرى، لما كان هناك داع لتأكيد خلقه بيدي الله في القرآن والسُّنّة النبوية، أو لذكر لنا الله أننا نُخلق أيضا بيديه، ليعطي 'الخلق بيدي الله' معنى التدخل الإلهي في خلق كل شيء من خلال السُّنن التي وضعها الله في الكون. ولكن المعنى الأصح هو أنّ الله يتدخّل في خلقنا من خلال سُنّة التناسل التي وضعها، بينما تدَخّل بيديه مباشرة في خلق هيئة آدم دون سابق تطور أو تناسل، مما يجعل خلقه استثنائيا ويعكس نقطة البداية وابتداء عملية خلق الإنسان من طين، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝7﴾ [السجدة].

ومن خلال تدقيق النظر أكثر في مجموعة الطين، نجد أنها تشير إلى أنّ الله خلق آدم، الذي سجدت له الملائكة ولم يسجد له إبليس، من طين، وذلك لورود عبارة 'من طين' في جميع الآيات التي ذكرت لفظ 'طين'، باستثناء الآية '1'، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝61﴾ [الإسراء]، والتي يشير المفسرون إلى أنها تؤكد أيضا الخلق من طين.

على الرغم من ذلك، أرى أنّ تفسيرهم هذا غير دقيق وناقص، لأنّ عبارة 'لِمَنْ خَلَقْتَ

طِينًا' جاءت في هذا الآية لتُعبّر عن دلالة أعمق من مجرد القول بأنّ آدم خُلق من طين، ولأنَّ 'خلق الشيء من طين' يختلف عن 'خلق الشيء طينا'. فهذه العبارة لا ينبغي أن تُفَسَّر فقط على أنها تعني 'لمن خلقتَ من طين' أو 'لمن خلقتَه من طين' أو 'للذي خلقتَ من طين' أو 'للذي خلقتَه من طين' أو شيء من هذا القبيل، بل تحمل أيضا دلالة على أنَّ آدم خُلق طينا، أي أنه خُلق ابتداء هيكلا طينيا.

هذا يوحي بأنّ إبليس لم يكن يعلم أصل آدم فقط عندما قال 'خَلَقْتَهُ مِن طِينٍ'، بل أيضا قد رآه في هيئته الطينية الجرداء قبل أن ينفخ الله فيه الروح ويجعل له السمع والبصر والفؤاد، لذا قال 'لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا'. وهو ما يتوافق مع الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الجَنَّةِ تَرَكَهُ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إبْلِيسُ يُطِيفُ به، يَنْظُرُ ما هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أجْوَفَ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمالَكُ"، صحيح مسلم 2611.

وهذا الهيكل (الصورة، أو الهيئة ...) الطيني الابتدائي الذي أبصرت حقيقته من خلال الآية وأكده صراحة الحديث الصحيح يتماش وحقيقة الخلق بيدي الله الخالق البارئ المصور، وينفي تماما الخلق بسُنّة التناسل الإلهية أو التطور الصدفي المزعوم. فسبحان الله المعجز في دقة ألفاظه، وسبحان الله في كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسبحان الله الذي منّ علينا برسول لا ينطق عن الهوى. وأخيرا، أرجو أن يُلف إبصاري لفحوى العبارة 'لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا' انتباه اللغويين والمفسرين بشكل إيجابي.

تفسير مجموعة الصلصال

كي لا أحذو حذو الذين يقولون إنّ من بين مراحل خلق آدم هو تيبس الحمأ المسنون حتى صار صلصالا كالفخار، سأسلك في تفسيري سبيلا آخر لعله يرشدني إلى منبع الحقيقة.

وأبدأ هذا السبيل بتدقيق النظر في مجموعة الصلصال. وكنتيجة لهذا التمعن، أقول إنّ هذه المجموعة تتحدث حصرا عن بشر آخر خلقه الله **من صلصال،** ثم تطلعنا على أنّ هذا الصلصال موجود في حمإ مسنون، كما تخبرنا أيضا أنّ هذا الصلصال يشبه الفخار. إذن، هذه

المجموعة تدلنا على موقع وخاصية الصلصال الذي خلق الله منه هذا البشر، فهي قطعا لا تشير إلى مراحل الخلق.

الصلصال هو ضلع آدم الذي خُلقت منه حواء

قبل الشروع في البحث عن حقيقة الخلق من صلصال أو على الأقل عن منبعها، أود أن أستنبط أولا المعاني الحقيقية والدقيقة للألفاظ المفتاحية التي استعملت في مجموعة الصلصال، وبالتحديد لفظ حمإ مسنون، ولفظ صلصال كالفخار.

اختلف أهل التأويل في معنى حمإ مسنون، ولكن كل تأويلاتهم تصب في نفس المضمون، ألا وهو الطين المتغير في اللون و (أو) الرائحة، فيصبح أسود و (أو) نتن. إنّ هذه التأويلات يجب أن تكون مردودة، وذلك لأسباب عدة:

السبب الاول: حاشا لله أن يخلق بيديه إنسانا من شيء نتن.

السبب الثاني: إننا نؤمن بأنّ الله خلق الإنسان من التراب الخالص النقي والماء الطاهر الصافي، فهذا يستلزم أنّ الطين الناتج يستحيل أن يتحول لونه أو تتغير رائحته مع الزمن، فهو كالمعدن الخالص. إذن، التأويل السائد الذي يعتمد هذا التحول والتغير ينفي ضمنيا نقاء وصفاء التراب والماء المستعملين في خلق الإنسان، فهو يشير إلى أنّ الله أخذ الطين من مستنقع فيه مواد عضوية وبكتيريا، فهذا حقيقة دعم صريح لما يسمى بنظرية التطور.

كي لا أقع في المستنقع الذي وقع فيه جميع المفسرين وأهل التأويل، أعتمد المعنى اللغوي الذي فَسرتُ به لفظ 'حمئة' في الفصل السابق والذي يقول: حَمَأ (اسم): مصدر حَمِئ، ويقال: حَمِئ فلان على فلان: غَضِب دفاعا عن شيء وحماية له، فهو يتصف بالحميّة: والحميّة: الأنفة، المحافظة، يقال: فلان ذو حميّة إذا كان ذا غضب وأنفة، فهو يدافع عن شيء ليحميه ويحافظ عليه.

أما المعنى اللغوي الذي أعتمده في لفظ مسنون فهو الذي يقول: مسنون (اسم) مفعول مِن سَنَّ: سِكِّينٌ مَسْنُونٌ :حَادٌّ.

إذن، حمإ مسنون هو الشيء الذي يحمي ويصد ويدافع بأدوات حادة.

أما الصلصال فهو نوع مميز من الطين، ويختلف غالبا عن الطين العادي في مادته اللحمة ولونه، ولكنه يتشقق إذا يبس، ويستحيل أن يشبه الفخار إلاّ إذا مر على النار (حرارة عالية جدّا). إذن، إن دل لفظ صلصال كالفخار المذكور في مجموعة الصلصال على شيء، فإنما يدل على العظم. فالعظم أصله طين ويشبه الصلصال في المادة واللون، ويشبه الفخار في الصلابة والتماسك والملاسة، حيث إذا نقرته صَلَّ فسمعت له صلصلة. إنني أرى أنّ العظم هو المخلوق الوحيد الذي هو صلصال وهو في آن واحد يشبه الفخار، وما هو بفخار لأنه لم يمر على النار. وما يزيدنا هذا إلاّ إيمانا بالله الحكيم المبدع في خلقه، وتصديقا بالقرآن العظيم المعجز في ألفاظه ومعانيه. فسبحان الخالق البارئ المصور الذي يخلق من الطين عظاما كالفخار ثم يكسوها لحما.

إنّ الله عز وجل أخبرنا أنّ الصلصال موجود في الحمإ المسنون، وذلك لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾﴾ [الحجر]، كما أنه بيّن لنا أنّ هذا الصلصال يشبه الفخار، لقوله ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿14﴾﴾ [الرحمن].

إذن، بناء على هذا وعلى الذي ذهبت إليه في معاني لفظي حمإ مسنون وصلصال كالفخار، أقول –والله أعلم– أنّ الحمأ المسنون يدل على القفص الصدري الذي يحمي القلب والأحشاء الأخرى بأضلاعه الحادة، أما الصلصال كالفخار فهو يدل على عظام هذه الأضلاع.

إن دل استنباطي هذا على شيء، فإنما يدل على أنّ مجموعة الصلصال تتحدث بوضوح عن خلق بشر آخر غير آدم **من صلصال (ضلع)**، لأنّ آدم خلقه الله من طين كما بيّنته سابقا من خلال تأويل وتفسير مجموعة الطين.

أيضا، بما أنّ هذا البشر خُلق من ضلع، وأنّه لا شك أنّ الضّلع وُجد بعد أن وُجد آدم، إذن، هذا البشر خُلق بعد آدم ومن ضلع آدم. مع أخذ هذا بعين الاعتبار، يمكننا أن نستنتج من قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿1﴾﴾ [النساء] أنّ لفظ 'نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ' يدل على آدم، ولفظ 'زَوْجَهَا'

يدل على هذا البشر.

وكل هذا يتوافق تماما مع الحديث الصحيح: روى البخاري (3331) ومسلم (1468) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ).

إنّ توافق هذا الحديث مع آيات القرآن الذي استنبطته بتوفيق من الله عز وجل يجب ألاّ يزيد المؤمن الحقيقي إلاّ تشبثا بهذا الحديث وبجميع الأحاديث النبوية الصحيحة الأخرى، ويقينا بأنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم ما نطق عن هوى وغرض ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝3﴾ [النجم]. ومن جهة أخرى، سيكون اكتشافي لهذا التوافق صفعة قوية وصدمة صاعقة لا محالة لكل من يزدري بالرّسول ويكفر ويستهزئ بهذا الحديث وبغيره من الأحاديث النبوية الصحيحة الأخرى، وأسأل الله أن يهدي به الضالين من عباده.

يجب علينا الإشادة بعلمائنا الأجلاء المختصين في علم الحديث الذين وقفوا وقفة المرابط الباسل في الذود عن حمى السُّنّة النبوية، فقد نقّحوا الأحاديث بإحكام وبمنهاج صارم ودقيق يفصل بين الصحيح والضعيف. فنجد مثلا هذا الحديث الذي يخبرنا أنّ المرأة خُلقت من ضلع قد نكره الكثير من المفكرين المسلمين، ولكن هؤلاء العلماء الجهابذة صمدوا في تمسكهم على صحته وتبليغ لفظه ومعناه للناس رغم أنهم لم يبصروا هذا التوافق مع القرآن الذي وصلت إليه اليوم وذلك بعد أزيد من أربعة عشر قرن من وروده. هذا يُبيّن أنهم لم يُضعّفوا أو يُحسّنوا حديثا تقديسا لعقل إذا فكّر، أو إتباعا لنفس إذا هويت، أو امتثالا لسلطان إذا أمر، أو استسلاما لعدو إذا مكر، أو مدحا لكريم إذا تكرّم، أو ذما لشحيح إذا شحّ، ولكنهم حافظوا على السُّنّة ككنز لا يفنى، فأفنوا أعمارهم في خدمتها جمعا ودراسة وتمحيصا كي تبقى تُبلغّ وتُجرّع من جيل إلى جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أما الطامة الكبرى التي نعيشها اليوم أكثر من أي وقت مضى، فهي تجرؤ بعض المفكرين المنتسبين للإسلام على تضعيف أو تحسين الأحاديث النبوية حسب مدى استيعاب العقل

لمضامينها. بل راح بعضهم إلى أقرف من هذا، حيث إذا تعارض حديث صحيح مع مطلب من مطالب المرأة العلمانية الحديثة، أو هيئة من هيئات تقارب الأديان، أو جمعية من جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان أو الحيوان أو الطبيعة، سارعوا إلى تضعيفه دون تردد أو تأخير.

إذن، يجب علينا وعلى جميع الغيورين على الدين الإسلامي التصدي لمثل هذه السلوكيات وهذا الاستهتار بكلام خير الأنام بالحكمة وبالموعظة الحسنة وبالحجّة البالغة. كما أننا ملزمون في نفس الوقت بالتمسك بأي حديث صحيح والعض عليه بالنواجذ بغض النظر عن مدى استيعابنا لمضمونه، فإن كان غير معقول وغريب بالنسبة لنا، فقد يفهمه فرد من أفراد الأجيال القادمة أفضل منا، فيستنبط معناه ويكشف نوره ويبرهن صحته المطلقة.

وهذا قد جاء في الحديث (عن أبي نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُوصيكُمْ بِتقْوَى اللهِ، والسَّمعِ والطاعةِ، وإنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ حبَشِيٌ، فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكمْ بَعدِي فسَيَرَى اخْتلافًا كثيرًا، فعليكُمْ بِسُنَّتِي وسنَّةِ الخُلفاءِ المهديِّينَ الرَّاشِدينَ، تَمسَّكُوا بِها، وعَضُّوا عليْها بالنَّواجِذِ، وإيّاكُمْ ومُحدثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بِدعةٌ، وكلَّ بِدعةٍ ضلالَةٌ" الألباني صحيح الجامع 2549).

فلولا حفاظ أهل الحديث على السُّنّة، ما عرفنا اسم أمنا زوجة أبينا آدم عليهما السلام. فإذا تفحصنا القرآن، نجد أنّ الله عز وجل خلق لآدم زوجة واحدة ولم يذكر اسمها، ولكن الرّسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا بأنّ اسمها حواء كما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة وعلى رأسها الحديث الصحيح رقم 3399 الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لَوْلاَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ".

إذن، كلام الله وكلام نبيه متكاملان في كثير من الأمور. وهذا فضل الله على نبيّه وتأييد منه لنبوته. فالعمل بالسنّة وطاعة الرسول مقرونة بطاعة الله في كثير من آيات القرآن ومنها ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝132﴾ [آل عمران]، كما أنّ المتمسك بالقرآن والسُّنّة معا لن يضلّ أبدا وذلك طبقا للحديث (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تركتُ فيكم شيئَينِ، لن تضِلوا بعدهما: كتابَ اللهِ، وسُنَّتي، ولن يتفرَّقا حتى يَرِدا

عليَّ الحوضَ" الألباني صحيح الجامع 2937).

أعود الآن لأكمل الحديث عن خلق الله الاستثنائي لحواء عليها السلام. قد أجمع جميع المفسرين والعلماء على أنّ قصة خلق حواء لم تُذكر أيضا في القرآن، فما أبصروا في هذا الشأن إلا التلميح الذي جاء في الآيات التي تخبرنا بأننا خُلقنا من نفس واحدة والتي خلق الله منها زوجها. فكان هذا التلميح مصدر التباين الكبير بين تأويلاتهم. فالذين جمعوا بين هذا التلميح والحديث النبوي الذي يخبرنا بأنّ المرأة خُلقت من ضلع قد أصابوا ونوروا الأمة ولو بشيء يسير.

أما الباقون، فقد كانت تأويلاتهم منحرفة، فأضلّت الكثيرين. لقد أعطوا الحديث الشريف صبغة المجاز، مدّعين أنه يشير فقط إلى أنّ المرأة خُلقت من عوج، كما خُلق الإنسان من عَجَل، مستدلين بذلك بالآية ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿37﴾﴾ [الأنبياء].

لكنني أرى أنّ هذا القياس خاطئ في جوهره، لأنّ الحديث يخبرنا بوضوح تام أنّ المرأة خُلقت من مادة ملموسة، وهي الضلع، بينما الآية تتحدث عن صفة مجردة، وهي العَجَل. فليس هناك مادة تُسمى عَجَل، ولا صفة تُسمى ضلع. وبالتالي، فإنّ قياسهم هذا غير صحيح. ولو كان الرّسول صلى الله عليه وسلم يقصد حقا من هذا الحديث أن يخبرنا بأنّ المرأة خُلقت من عوج، وأنّ لفظ 'الضلع الأعوج' جاء للتشبيه فقط، لقال: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ عوجٍ)، تماما كما ورد في الآية.

ومن يعتمد تفسير المواد الملموسة بالمجاز، عليه أن يُطبّق هذا المنهج على ألفاظ أخرى مثل 'الطين' و'الصلصال كالفخار' و'المضغة'، فيقول إنها تشير فقط إلى أنّ الإنسان رطب كالطين، وأنه وعاء تُسكب فيه المعلومات كما تُسكب السوائل في الفخار، وأنه يُمضغ مضغا من قبل الحيوانات المفترسة. وبذلك، يعترف هذا المؤول المنحرف بأنه مجرد مادة رطبة في أيدي العاجنين يصنعون بها ما يشاؤون من جفان وقدور، وأنه ليس إلاّ قِدرا استولت عليها شياطين الإنس والجن فصارت تتبرّز فيها فضلاتها.

أما تأويلي الذي أرجو من الله عز وجل أن يجعله نورا على نور لهذه الأمة، فقد استطعت

من خلاله أن أبصر وأستنبط الحقيقة وأبين بتوفيق من الله أنّ قصة خلق حواء قد ذُكرت في القرآن بتفاصيل مماثلة للتي ذُكرت بها قصة خلق آدم. كما يتضح أيضا من مجموعتي الطين والصلصال أنّ الملائكة سجدوا كلهم أجمعون لحواء كما فعلوا مع آدم، وأنّ إبليس لم يسجد لكليهما. هذا يبين أنّ الله كرّم الإنسان الذكر والأنثى على السواء، وأنّ إبليس عدو الله وعدوهما. ولكن مبدأ 'للذكر مثل حظ الأنثيين' يبقى صالحا هنا ويتجلى من خلال المجموعتين، حيث خلْق الإنسان (آدم) من طين ورد 8 مرات، بينما خلْق الإنسان (حواء) من صلصال ورد 4 مرات.

إذا نظرنا إلى الموضوعين الأول والثاني في مجموعة الطين، نجد أنّ الله سبحانه وتعالى أمر إبليس بالخروج والهبوط، ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝77﴾ [ص]، ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝13﴾ [الأعراف]، ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ۝18﴾ [الأعراف].

أما في موضوع مجموعة الصلصال، فقد أمره الله بالخروج فقط، ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝34﴾ [الحجر].

من خلال هذه الملاحظات، أستنبط أنّ الله أمر الملائكة بالسجود لآدم في جنّة، ثم لحواء في جنّة أخرى. أما إبليس، فقد طرده الله من الجنّتين، حيث منعه من العيش والتكبر في الجنّة الأولى بالخروج الذي لا رجعة فيه، ثم أهبطه منها إلى الجنّة الثانية تصغيرا واحتقارا له. وأخيرا، أخرجه منها أيضا وأسكنه مع آدم وحواء في جنّة ثالثة أقل شأنا من الجنتين السابقتين، ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ 19 فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝20 وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝21 فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝22 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

﴿23﴾ [الأعراف]. وفي النهاية، أمر الله الجميع بالهبوط من الجنّة الثالثة إلى الأرض، ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿24﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿25﴾ [الأعراف].

حواء خُلقت من نطفة آدم التي مصدرها ضلعه

لقد برهنت أنّ القرآن يؤكد أيضا أنّ الله خلق حواء من ضلع آدم الذي خلقه الله بيديه من طين. ولكن الكيفية التي خلق الله بها حواء من ضلع آدم بقيت غير معروفة. فالتأويل الظاهري قد يقودنا إلى القول بأنّ الله خلق حواء من ضلع آدم مباشرة، وما ذلك على الله بعزيز. ولكنني لا أميل كثيرا إلى هذا التأويل لأنني أبصرت آيات قرآنية أخرى قد أستنبط منها بصائر أخرى عن خلق حواء.

بداية، إنني أرى أنّ الآية ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿54﴾ [الفرقان] لا تتحدث عن آدم، لأنّه إذا أمعنا النظر في القرآن، وبالخصوص في مجموعة الطين، وبالتحديد في الآية '2' من هذه المجموعة، يتبين لنا أنّ آدم لم يُخلق من الماء العادي فقط ولا من ماء النطفة، بل خُلق من الطين (الماء العادي زائد التراب). إذن، البشر المذكور في هذه الآية والمخلوق من الماء فقط (ماء النطفة الذي ورد في ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿6﴾ [الطارق]) هو حواء والناس جميعا.

هذا يقودني إلى نتيجة مفادها أنّ حواء خُلقت من ماء النطفة وفي نفس الوقت خُلقت من ضلع آدم. قد تبدو هذه النتيجة غريبة، ولكن سأستعين بآيات أخرى كي أوضحها وأؤكد فحواها، وهذه الآيات هي ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿5﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿6﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿7﴾ [الطارق]. قيل أنّ الصلب هو العمود العظمي الفقري، وأنّ الترائب هي عظام الصدر، فبين الصلب والترائب منطقة فيها عظام ومن بين هذه العظام الأضلاع المتصلة مباشرة بالعمود الفقري. بما أنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ الإنسان (الذكر والأنثى) يُخلق من الماء الذي يخرج من عظام هذه المنطقة، وبما أنّ حواء خُلقت من الماء وفي نفس الوقت من ضلع كما بينته سابقا، وبمأنّ المرأة بصفة عامة خُلقت من ضلع كما جاء في

الحديث الصحيح، إذن، الضلع مسؤول عن إنتاج مادة أو عصارة تُخلق منها الأنثى (المرأة)، أما العظام الأخرى في هذه المنطقة فهي مسؤولة عن إنتاج مادة أو عصارة يُخلق منها الذكر (الرجل)، وكلا المادتين أو العصارتين تساهمان في إنتاج ماء الإنسان. إنّ استنباطي هذا المبني على القرآن والسُّنّة قد يفتح بابا جديدا في علم الأحياء. كما أنه يدل في قضية حواء بالتحديد على أنها خُلقت من الماء الذي مصدره ضلع آدم، فهذه الدلالة تجعل النتيجتين (حواء خُلقت من ماء آدم) و(حواء خُلقت من ضلع آدم) متوافقتين تماما، بل متكاملتين أيضا.

إذن، حواء خُلقت على ثلاثة مراحل فقط، ماء (نطفة) آدم، التسوية ونفخ الروح، كما أنها لم تخُلق مباشرة بيدي الله كما خُلق آدم مباشرة من طين بيدي الله، لأنّ الخلق بيدي الله ذُكر في مجموعة الطين ولم يُذكر في مجموعة الصلصال، وهذا دليل آخر على أنّ حواء خُلقت من ماء آدم مباشرة.

فسبحان الله الخالق البارئ المصور الذي خلق استثنائيا: (1) الإنسان الذكر (آدم) من تراب وماء خالصين عاديين، أي من دون أب ومن دون أم، (2) الإنسان الأنثى (حواء) من ماء الإنسان الذكر (آدم)، أي من أب فقط، (3) الإنسان الذكر (عيسى) من ماء الإنسان الأنثى (مريم)، أي من أم فقط.

هل حواء خُلقت امرأة بالغة دفعة واحدة أم صبية في المهد؟

قد يتبادر إلى الذهن سؤال فيما يخص خلق حواء الذي يبدو للعقل أعجز وأغرب من خلق عيسى عليه السلام، لأنها خُلقت من ماء آدم ومن دون أم، بينما عيسى خُلق من ماء أمه مريم عليها السلام، ثم تكوّن جنينا في رحمها. فإذا فرضنا مثلا أنّ آدم كان نائما عندما خرج منه الماء الذي خُلقت منه حواء، فهل خُلقت مباشرة امرأة بالغة أم صبية في المهد؟ إنني لا أرجح أن تكون حواء خُلقت امرأة بالغة دفعة واحدة كما خُلق آدم رجلا بالغا دفعة واحدة. وهذا لأسباب عدة:

أولا: إنّ الله لم يخبرنا بأنه خلق آدم بيديه من طين إلاّ لنفهم أنه كان خلقا استثنائيا ولم يكن طبيعيا، فبعد تحضير الطين، قام الله بتسويته على هيئة رجل بالغ ثم نفخ فيه من روحه،

فوُجد آدم دفعة واحدة على صورته ولم يمر على مختلف الأشكال والمراحل الطبيعية المعروفة، كالجنين، والصبي في المهد، والغلام وغيرها. أما في حالة حواء، فإن دل عدم الإشارة في القرآن إلى أنّها خُلقت بيدي الله على شيء، فإنما يدل على أنها خُلقت طبيعيا من ماء آدم الذي يحمل سلالة الجنس الإنساني، فمرت بكل المراحل المعروفة، وتبقى البيئة التي سخرها الله لها لتمر من النطفة إلى الصبية مجهولة. ولعلى الأرض التي وقعت عليها نطفة آدم مباركة تُنبت الناس كالأرض التي ننبت منها يوم القيامة.

ثانيا: بما أنّ آدم هو الإنسان الوحيد حين خُلق، فهو لم ير ولم يعرف حتى وجهه جيّدا، فكيف تكون ردة فعله إذا وجد أمامه بغتة مخلوق (حواء) كبير بوجه غريب وهيكل شبيه بهيكله؟ ونفس التساؤل قد يُطرح عن ردة فعل حواء من هذا اللقاء الغريب والأول لها في حياتها وهي بالغة، فربما لو كان الحال كذلك، لَوَلّى أحدهما من الآخر فرارا ولَمُلِء أحدهما من الآخر رعبا، فيصبح السكون إليها صعب المنال صحبة أو زواجا، ولو قيل لهما أنهما زوجان لبعضهما البعض. وفي المقابل، نجد أنّ الرجل اليوم يسهل عليه السكون إلى زوجته ولو لم يرها قط قبل زفافه، لأنه يعرف المرأة حق المعرفة من خلال أمه، أخواته، جدّاته إلى غير ذلك، ولأنه يعرف كذلك معنى الزواج والصحبة عمليا من خلال التجارب الاجتماعية التي عاشها، وهذا كله ينطبق كذلك على المرأة باتجاه الرجل. إذن، كثير من السلوكيات الاجتماعية والنفسية والعاطفية وغيرها التي نعيشها اليوم لم تكن موجودة عند الخلق الأول، لأنها لم تعد فطرية بحة كالتي كانت عند آدم، فهي في تأثر سلبي أو إجابي مستمر من جيل إلى جيل نتيجة تراكم وتفاعل التوجهات الفكرية المختلفة التي تظهر في كل عصر.

ثالثا: إنّ تجارب الحياة تؤكد أنّه كلما كانت العشرة مع شخص أطول كانت العلاقة معه أوطد، وتتضاعف قوة هذه العلاقة إذا كان سبب العشرة هي تنشئة ورعاية هذا الشخص منذ صباه، وتبلغ ذروتها إذا كانت القرابة مع هذا الشخص أمومية أو أبوية. إنّ علاقة الأب مع ابنته التي رعاها بنفسه منذ ولادتها إلى بلوغها أقوى بكثير من علاقته مع ابنته الأخرى التي لم يرها قط ولم يتحدث إليها أبدا ولم يتعامل معها لا من قريب ولا من بعيد حتى صارت بالغة.

لربط هذه الحقيقة الفطرية والطبيعية التي أودعها الله في الإنسان مع بعض نصوص القرآن التي أبصرت أنها ذات صلة بهذه الحقيقة، أتطرق بالتحديد إلى الحديث عن سكون الشخص إلى شخص آخر والذي جاء في القرآن في سياقين متشابهين:

السياق الأول: ورد في ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... ﴿189﴾﴾ [الأعراف]، فهذا السكون الذي هو أشمل من الألفة جعله الله ممكنا بخلق حواء من آدم، من ماءه كما بينته سابقا.

السياق الثاني: ورد في ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿21﴾﴾ [الروم]، هنا لفظ 'أزواجا' يعني الأولاد ذكورا وإناثا، فهم خُلقوا لنا منا، ففي هذا السياق يخبرنا الله بإحدى آياته ألا وهي أنه خلق لنا من أنفسنا بنات وبنين لنسكن إليهم، ويخبرنا أيضا أنه هو الذي جعل بيننا وبين هؤلاء الأبناء مودة ورحمة. فالسكون الطبيعي المطلق لا يكون إلاّ من الوالدين إلى الأبناء وليس العكس.

إذن، باعتمادي تفسير السياق الأول بالثاني، أستنبط أنّ آدم سكن إلى حواء لأنها خلقت صبية من ماءه، كحال سكوننا لأبنائنا. بناء على هذا الاستنباط، أرى –والله أعلم– أنّ الله عز وجل خلق حواء صبية من ماء آدم، ثم جعله يرعاها ويعلمها كأنها ابنته حتى أصبحت بالغة، ثم أذن له الله بالزواج منها، وجعل الله كل هذا ليصبح السكون إليها طبيعيا ومطلقا.

أعود الآن لأتحدث عن أقوال المفسرين التي وردت فيما يخص هذين السياقين:

قال جمهور المفسرين في السياق الأول: المراد بالنفس الواحدة آدم وجعل منها زوجها يعني حواء ليسكن إليها ليأنس بها ويطمئن. أما في السياق الثاني، قد قالوا: ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لأجلكم من جنسكم –أيها الرجال– إناثا يكن لكم أزواجًا؛ لتطمئن نفوسكم إليها وتسكن، وجعل بين المرأة وزوجها محبة وشفقة.

إنني أرى في تفسيرهم هذا تناقضا كبيرا، حيث نسبوا في المرة الأولى النفس إلى الرجل (آدم)، وفي المرة الثانية إلى الجنس الإنساني. وذلك حتى لا يقعوا في تناقض صارخ آخر، لأنهم

لو نسبوها للرجل كما فعلوا في السياق الأول، لأصبح تفسيرهم للسياق الثاني: خلق لأجلكم منكم -أيها الرجال- إناثا يكنّ لكم أزواجًا، فيبهت العاقل استنكارا واستغرابا من هذا التفسير، ويقول: كيف خلق الله مني زوجتي؟

طمعا في الخروج من هذا المستنقع، ذهب آخرون ونسبوا النفس في كلا السياقين إلى آدم، فقالوا أنّ الآيتين لا تتحدثان إلاّ على خلق حواء من آدم، فلووا ألسنتهم وتكلفوا في تأويل الآية الثانية وقالوا أنّ خلق أصل أزواجكم حواء من آدم متضمن لخلقهن من أنفسكم.

تفاديا لهذا التلعثم والتأويل المبهم، لجأ بعض المؤوّلين إلى إسناد النفس إلى الجنس الإنساني في كلا السياقين، فحدثت معضلة كبيرة، حيث خلصوا بإسنادهم هذا إلى أنّ حواء لم تُخلق من آدم، فاصطدموا بالحديث النبوي الذي يؤكد أنّ المرأة خلقت من ضلع، ولا ضلع قبل حواء إلاّ ضلع آدم، فلجأوا إلى القفز إلى أحضان الشيطان للخروج من هذا المأزق، فمنهم من شكك في صراحة الحديث وقال بأنه يحمل المعنى المجازي، ومنهم من تجرأ وطعن في صحته.

أما فيما يخص السكون (ليسكن إليها، لتسكنوا إليها) الذي جاء في السياقين، فقد اعتقد جميع المفسرين أنّه هو سكون الرجل إلى زوجته، أي الأُنس بها والاطمئنان، فذهبوا إلى أنّ الآيتين تتحدثان حصريا على العلاقة الزوجية وما يترتب عنها من مودة ورحمة ومن استمتاع ولذة.

إنني أرى أنّ تفسيرهم هذا للسكون لا يتماشى ومضمون الآيتين، لأنّ السكون الذي ذهبوا إليه يتحقق بين الرجل وزوجته دون أن تكون قد خُلقت منه، بينما السكون الذي جاء في الآيتين مشروط بخلق الزوجة (أو الأزواج) منه (أو منكم) وبما يترتب عن هذا الخلق. بالإضافة إلى هذا، فهم أجمعوا على إقصاء المرأة من الخطاب الإلهي الذي جاء في الآية الثانية، حيث قالوا أنّ عبارة 'خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ' لا تتحدث إلاّ على الرجال فقط. فهذه الأقوال المختلفة والمتناقضة تبيّن أنّ جميع المفسرين والمؤوّلين مازالوا في تخبطات وتناقضات لا سبيل للخروج منها، فهم لم ينتجوا إلى يومنا هذا تفسيرا واحدا يُطمئن القلوب ويُقنع العقول ويوضح توافق مضمون الآيتين.

إنني أرى أنّ هذا الانحراف لجميع المفسرين والمؤوّلين عن التفسير الصحيح والدقيق لهاتين الآيتين نتج أساسا عن الخطأ الذي وقعوا فيه عند تأويلهم وتفسيرهم للفظ 'أزواجا' الذي جاء في الآية الثانية، حيث قالوا أنّه يدل على زوجات الرجال، فلو كان كذلك لجاءت في هذه الآية '...خَلَقَ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجُكم لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...' بدلا من '... خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...'، كي تطابق صيغة العبارة '...جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...' التي جاءت في الآية الأولى.

إنّ لفظ 'أزواجا' كثيرا ما جاء في القرآن بمعنى ذكور وإناث، فإذا أعطيناه هذا المعنى في هذه الآية أيضا، تصبح الإجابة على السؤال: من هؤلاء الذكور والإناث الذين خلقهم الله لنا منا؟ مباشرة ولا لُبس فيها، وهي: إنهم أولادنا البنات والبنين، ففي هذه الحالة يأخذ السكون مدلوله الحقيقي والمطلق، لأنه بالإضافة إلى كونهم خلقوا لنا منا، فهم نشأوا على أيدينا منذ صباهم. وهذا التأويل يتطابق كليا مع تأويلي للآية الأولى التي قلت أنّها تشير إلى خلق حواء صبية من ماء آدم، فتكفل بها كأنها ابنته حتى أصبحت بالغة. فلا مجال لمقارنة سكون الوالدين إلى أبناءهم مع سكون الرجل إلى زوجته كما بينته سابقا. أما المودة والرحمة التي يجعلها الله بين الوالدين والأبناء فهي مودة للكبير ورحمة للصغير (للأبناء في صغرهم) وللعجوز (للوالدين في كبرهم).

يجب عليّ الآن أن أثبت أنّ تأويلي للفظ 'أزواجا' يتوافق أيضا مع الآيات التي تشبه الآية الثانية. لقد جاء هذا اللفظ في قوله تعالى ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝11﴾ [الشورى].

هنا يخبرنا الله بأنه جعل لنا منا بنين ذكورا وإناثا وأنه جعل لنا أيضا ذكورا وإناثا من الأنعام، وهذا من آيات الله لحفظ النسل في الأرض. إنّ قولي هذا يتوافق كليا مع الآية ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝133﴾ [الشعراء]، وينطبق تماما مع عبارة 'جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا' التي تكررت أيضا في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ

وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿72﴾﴾ [النحل]، حيث يخبرنا الله كذلك بأنه جعل لنا منا الأولاد ذكورا وإناثا، وجعل للرجل (أو للمرأة) من زوجته (أو من زوجها) بنين وحفدة. أما أقوال المفسرين في هذه الآيات من غير المفيد ذكرها هنا لأنها لا تختلف عن أقوالهم التي ذكرتها سابقا.

الخلاصة

من خلال البصائر الجديدة التي نورتُ بها مسألة خلق آدم وحواء، أستطيع أن أقول أنّ خلق الجنس الإنساني مر بثلاث مراحل أساسية فقط وهي ببساطة:

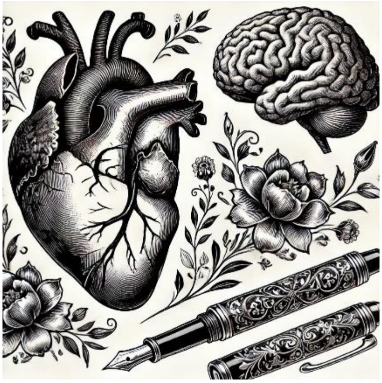
1- خلق الله (الإنسان الذكر) آدم مباشرة من طين بيديه دفعة واحدة، حيث من بين الأعضاء التي خلقها الله في جسمه، الأعضاء المسؤولة عن إنتاج الماء المهين الذي صور الله فيه سلالة الجنس الإنساني كاملة. (هذا خلق استثنائي، وما ذلك على الله بعزيز).

2- خلق الله (الإنسان الأنثى) حواء مباشرة صبية من ماء (نطفة) آدم فقط من دون أم. (هذا خلق استثنائي، وما ذلك على الله بعزيز).

3- بعد خلق الذكر والأنثى، جعل الله التناسل طبيعيا بالتزاوج بينهما وذلك من خلال الماء المهين الذي ينتجه كل واحد منهما بشكل طبيعي.

إنّ ورود لفظ 'نفس' في كثير من الآيات التي تطرقت إليها في هذا الفصل يجبرني على تخصيص الفصل القادم للإلمام بهذا اللفظ وإتمام تفسير هذه الآيات وإثبات صحة ما ذهبت إليه.

الفصل الرابع: النفس عقل وحرية



تمهيد

لا أبحر هنا في الحديث عن النفس التي كانت ولا زالت من أهم اهتمامات الفلاسفة والمفكرين والأدباء والشعراء والعلماء حتى خُصّص لها علم قائم بذاته، ولا أنقل أقوالهم ولا نظرياتهم المتضاربة، ولكنني أقتصر على القرآن والسُّنّة لاستنباط بعض مفاهيمها التي تهم موضوع هذا الكتاب فقط، وبالأخص التي تُمكنني من إبصار حقيقة النفس الواحدة التي خُلقنا منها جميعا والتي خُلق منها زوجها.

بعدما برهنت في الفصل السابق بالقرآن والسُّنّة أنّ حواء خُلقت من آدم، أنتقل الآن في هذا الفصل لتأكيد هذه الحقيقة من خلال إثبات بأنّ النفس الواحدة المذكورة في الآيات التالية لا يمكن لها أن تشير إلاّ إلى العاقل المخيّر. وحسب القرآن والسُّنّة، فإنّ العاقل المخيّر الوحيد المخلوق من الطين والموجود قبل حواء هو آدم. إذن، آدم هو الذي يمثل هذه النفس الواحدة.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿1﴾﴾ [النساء].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿98﴾﴾ [الأنعام].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا

حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿189﴾ [الأعراف].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿6﴾﴾ [الزمر].

لفظ 'النفس' في القرآن والسُّنّة

إنّ لفظ 'النفس' ورد في القرآن مائتين وخمسا وتسعين مرة، باختلاف تصاريفه، منه ما أُشير به إلى الله عز وجل، كما جاء في قوله تعالى ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿28﴾﴾ [آل عمران] وفي ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿116﴾﴾ [المائدة].

ومنه ما أُشير به إلى الإنسان والجان كالذي ورد في الآية ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿130﴾﴾ [الأنعام].

بما أنّ القرآن أُنزل للثقلين الإنس والجن، فلفظ 'النفس' استعمله الله سبحانه وتعالى ليُعبّر عن الذات الإلهية وجعله أيضا مشتركا بين الإنسان والجان ليُعبّر به عن الإنسان بحد ذاته أو الجان بحد ذاته، وهذا نجده في كثير من الآيات، ومنها ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿185﴾﴾ [آل عمران] و ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿35﴾﴾ [الأنبياء] و ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿57﴾﴾ [العنكبوت] التي لا تشير إلاّ إلى الموت الحتمي لكل إنسان حي وكل جان حي، حيث تُفهم هذه الآيات

بتعويض العبارة 'نَفْسٍ ذَائِقَةُ' بالعبارة 'إِنْسَانٍ ذَائِقُ' في حالة الإنس، وبالعبارة 'جَانٍ ذَائِقُ' في حالة الجن أو بعبارات أخرى أكثر دقة.

لفظ 'النفس' لا يُطلق إلاّ على العاقل المخيّر فقط

ولم يأت لفظ 'النفس' في القرآن أو السُّنّة ولو لمرة واحدة ليشير إلى الخلية الحيّة أو النبات أو حتى الحيوان رغم أنّ هذه المخلوقات كلها تتنفس ولها جسم حيوي بيولوجي. إذن، تسمية النفس لا تقتصر على الحياة أو التنفس فقط. ونجد أنّ هذا اللفظ لم يأت أيضا في حق الملائكة.

وحتى أتمكن من استنباط الحكمة من وراء هذا الاستثناء في التسمية، أشير أولا إلى أنّ الشيء المشترك بين هذه المخلوقات الأربعة، الخلية والنبات والحيوان والملَك، التي لم يُشار إليها بهذا اللفظ هو صفة الجبرية التي فطرها الله عليها.

وأما المشترك بين الله والإنسان والجان هو حرية التصرف، فالله هو المسير والمتصرف المطلق، فأعطى الإنسان والجان بعض الحرية في الاختيار، فجعلهما مُخيّرين من بين جميع مخلوقاته التي نعرفها.

ولهذا نجد أنّ لفظ النفس لم يُطلق في القرآن والسُّنّة إلاّ على العاقل الذي له حرية الاختيار والتصرف فقط. وجعل الله العقل والحرية ليُكلف النفس في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝42﴾ [الأعراف]، ويحاسبها في الآخرة ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝71﴾ [غافر].

ورغم كون الملائكة عاقلة، كما بيّنت ذلك في الفصل الأول، فهي لا تفعل إلاّ ما تُؤمر به فقط ولا تعصي الله، فلا تُحاسب. فالخلية والنبات والحيوان لا يُكلّفون ولا يُحاسبون، لأنه لا عقل لهم ولا حرية، وأما الملائكة تُكلّف ولا تُحاسب، لأنه لها عقلا وليس لها حرية، وأما الإنسان والجان يُكلّفان ويُحاسبان، لأنه لهما العقل والحرية (لهما النفس).

من هنا استنبط أنّ النفس تتضمن العقل والحرية، فالتنفس الحقيقي هو تنفس الحرية والقدرة على صناعتها والتحكم فيها بالعقل، بما فيها القصد في حرية الاختيار والتصرف، وليس

تنفس الأكسجين والهواء وتذوق الطعام والتّلذّذ بالغرائز الأخرى. فكلما كانت هذه القدرة أقوى، كانت النفس أقوى، ونفس الله هي الأقوى لأنّ قدرته مطلقة، وأما من انعدمت عنده هذه القدرة انعداما تاما فلا نفس له.

ولهذا لا يجب أن يُطلق لفظ النفس على الملَك رغم أنه عاقل، لأنه لا يصنع الحرية ولا يتحكم فيها، فهو لا يفعل إلاّ ما يُؤمر به فقط، كما لا يجب أن يُطلق على الحيوان ولا على النبات ناهيك عن الخلية الحيّة التي ما هي إلاّ جزء لا يكاد يبين من مخلوق حي.

فهذا المفهوم يمكن استعماله في شرح وفهم الجُمل التي تحوي الأفعال المشتّقة من كلمة النفس، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها الحديث (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نفَّسَ عن مسلِمٍ كُربةً من كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللَّهُ عنهُ كُربةً من كُرَبِ الآخرةِ، ومن سترَ علَى مسلمٍ سترَهُ اللَّهُ في الدُّنيا والآخرةِ واللَّهُ في عونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عونِ أخيهِ" صحيح الترمذي 1425)، حيث نجد هنا أنّ لفظ نفّس يدل على تحرير المسلم مما كان فيه من عناء وهمّ، وذلك باستعمال العقل لفهم وإدراك الكرب وصناعة هذا التحرير بالطريقة الصحيحة. وهذا لا يقتصر على تحرير الفرد فقط، بل يشمل أيضا تحرير أي شعب مسلم.

'أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ' و 'خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ'

بعد استنباط واثبات حقيقة مفادها أنّ لفظ النفس لا يُطلق إلاّ على العاقل المخيّر، أقول إنّ كلمة 'نَّفْسٍ' التي وردت في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿98﴾﴾ [الأنعام] جعلها الله مشتركة بين الثقلين فقط، حيث أنها تدل على الإنسان في حالة الإنس وعلى الجان في حالة الجن، فأرى أنّ الجن أيضا خُلقوا جميعا من جان واحد، ولا يُحتمل أن يكون هو إبليس. والآية تؤكد في حالة الإنس أنّ الناس جميعا أنشأهم الله من إنسان واحد عاقل ومخير.

والإنسان الأول الوحيد الذي ذُكر في القرآن والسُّنّة هو آدم عليه السلام الذي خلقه الله بيديه من الطين مباشرة كما بينت ذلك في الفصل السابق، فآدم هو أبو الإنس جميعا،

وهذه الحقيقة التي بيّنتها بالقرآن تتوافق كليا مع ما جاء في الأحاديث الصحيحة، كالحديث (عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُجْمَعُ المؤْمِنُونَ يَومَ القِيامَةِ فيَقولونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنا إلى رَبِّنا فيُرِيحُنا مِن مَكانِنا هذا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فيَقولونَ له: أنْتَ آدَمُ أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بيَدِهِ، وأَسْجَدَ لكَ المَلائِكَةَ، وعَلَّمَكَ أسْماءَ كُلِّ شيءٍ فاشْفَعْ لنا إلى رَبِّنا حتَّى يُرِيحَنا، فيَقولُ لهمْ :لَسْتُ هُناكُمْ فَيَذْكُرُ لهمْ خَطِيئَتَهُ الَّتي أصابَ." صحيح البخاري 7516). وبما أنّ حواء بشر وآدم هو أبو البشر، فهي ابنته وخُلقت منه ثم جُعلت زوجته، وهذا يتوافق مع جميع الآيات التي تشير إلى أنّ الله خلق أو جعل من نفس واحدة زوجها، كما يتوافق أيضا مع ما بيّنته في الفصل السابق.

إذن، لا يمكن أن تُؤوّل كلمة 'نَّفْسٍ' أو تُسند بأي شكل من الأشكال إلى الخليّة الحيّة أو الحيوان أو النوع كما يسعى بعض معتنقي ما يسمى بنظرية التطور المنتسبين إلى الإسلام إلى تحميل الكلمة ما لا تطيق وإلى محاولاتهم اليائسة لتطويع وتكييف القرآن ليناسب الأفكار المتمردة على الخالق البارئ المصور.

وأما الذين يقولون أنّ آدم هو مجموعة من الناس منتشرين، رغم أنّ الله أكد أنّ الخلق كان من 'نَّفْسٍ واحدة'، فقد زاغوا زيغا عظيما، وسذاجتهم هذه لا يقتنع بها إلاّ البشر الذي ليس له نفس (عقل وحرية).

وأما الذين يقولون أنّ عبارة 'أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ' تعني الإنشاء من جنس أو نوع واحد أو طبيعة واحدة، فقد جهلوا أو تجاهلوا الحكمة الواضحة من هذه الآية وبالتحديد من العبارة 'وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ' التي يُعرّف الله نفسه من خلالها أنه هو القادر الذي استطاع أن يُنشئ الناس جميعا من نفس واحدة، أي من رجل واحد عاقل ومخيّر ولم يحتاج في ذلك إلى أنثى، وهذا هو الأمر الاستثنائي العظيم الذي جاء في هذه الآية، فمن صيغتها 'وَهُوَ الَّذِي' يتضح أنها ليست إخبارية فقط، بل تدل أيضا على عظمة الله، وأما الإنشاء من جنس واحد باستعمال الذكر والأنثى بديهي وطبيعي يعرفه الجميع فلا يحتاج إلى مثل هذه الصيّغ في التعبير.

ومن اعتمد ضلال هؤلاء ليؤول به الآية ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿28﴾﴾ [لقمان] التي من سياقها يتضح جليا أنّ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ لا تشير إلاّ إلى إنسان واحد عاقل ومخيّر، يقوده إلى إجبار 'كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ' على تحمّل معنى 'كجنس واحد'، فتصعق نفسه وتسقط في زنزانة مظلمة لا يجد فيها نورا لتشغيل عقله ولا منفذا لاسترجاع حريته. فليحذر المسلم من هؤلاء ومن مصائدهم حتى لا تُجر نفسه بحبالهم وتُحبس في مثل هذه الزنزانات.

الحرية

بعدما تمكنت من استنباط وتحديد المفهوم الدقيق للفظ النفس الذي ورد في القرآن والسُّنّة وخلصت إلى أنّ النفس هي عقل وحرية، أقوم الآن باستغلال هذا المفهوم الجديد لتقسيم النفوس إلى أنواع مختلفة. ومن أجل ذلك أستند إلى القرآن والسُّنّة فقط لمعرفة أنواع العقل وأشكال الحرية، ولا ألجأ إلى إعادة سرد الأقوال والتعريفات العريضة المتناقضة التي وردت من قبل في هذا الموضوع والمعروفة لدى العام والخاص.

إنّ كلمة الحرية اسم على مسمى، فالحرية حرية، وهي تتضمن في رأيي ممارسة جميع الأفعال الظاهرة (عمل أو قول) دون أن يتعرض لها البشر بأي شكل من أشكال التقييد.

فالله عز وجل ميّز الإنسان على سائر الخلق بتسوية النفس الإنسانية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿7﴾﴾ [الشمس]وبجعْل العقل فيها ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿78﴾﴾ [المؤمنون] وبإعطائها الحرية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿108﴾﴾ [يونس]، ثم بيّن وعرّف له طريق الخير وطريق الشر كما جاء في ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿10﴾﴾ [البلد] وفي ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿8﴾﴾ [الشمس]، ثم خيّره بين الطريقين، أي بين ممارسة الصواب وممارسة الخطأ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿3﴾﴾ [الإنسان]، ثم رغّبه في انتهاج طريق الخير ورهّبه من اتباع طريق الشر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿9﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿10﴾﴾ [الشمس].

فالإنسان جُعلت له حرية فعل أي شيء يقدر عليه حتى قتل نفسه أو غيره، كما له في المقابل حرية إنقاذ نفسه أو غيره، وهكذا.

إذن، الحرية يجب أن تُصنّف بالتقييم الذي يقودنا إلى نوعين فقط من الحرية، الحرية الصحيحة وهي تتمثل في ممارسة الأفعال الصحيحة، والحرية الخاطئة وهي تتمثل في ممارسة الأفعال الخاطئة.

ومن بين الأدوات الأساسية التي أنشأها الله للإنسان ليمارس بها هذه الحرية، الفم ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿9﴾﴾ [البلد] واليدان والرجلان ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿24﴾﴾ [النور]. فهذه الأدوات الثلاثة هي التي تقوم بتنفيذ الحرية التي يصنعها العقل، فتشهد يوم القيامة على كل فعل مارسته في الدنيا، حيث يشهد اللسان على كل ما تفوّه به ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿18﴾﴾ [ق]، وتتكلم اليد عن كل بطش قامت به وتشهد الرِّجْل عن كل موقع مشت إليه ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿195﴾﴾ [الأعراف].

العقل

وأما العقل الذي وهبه الله للإنسان ليُميّز به بين الصواب والخطأ (أي بين النافع والضار) فيتضمن الأمور الباطنية وله القدرة على صناعة هذه الحرية والتحكم فيها، فيجب أن يُصنّف أيضا إلى نوعين فقط، العقل المنير الذي يُنتج الحرية الصحيحة ويتحكم في استقامتها، والعقل المظلم الذي يُنتج الحرية الخاطئة ويتحكم في استمرار ضلالها.

ومن بين الأدوات الأساسية التي أنشأها الله للإنسان ليمارس العقل وظيفة التكليف على أكمل صورة، السمع والبصر والفؤاد، وليس الأذن والعين ومضغة القلب فقط، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿78﴾﴾ [النحل]. فهذه الأدوات الثلاثة هي التي تقوم بزويد العقل بكل ما يحتاجه لإدراك الأشياء والأمور من أجل صناعة الحرية والتحكم فيها، فهي المسؤولة

عن علم وتعلم الإنسان ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿36﴾﴾ [الإسراء]. نظرا لكون أهمية العقل في النفس جوهرية، سأعود وأتحدث عنه وعن أدواته بإسهاب لاحقا.

النفس المثالية والنفس الواقعية

إنّ الله عز وجل خلق الإنسان على الفطرة، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿30﴾﴾ [الروم]، وفي الحديث (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن يُولَدُ يُولَدُ علَى هذِه الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ، كما تَنْتِجُونَ الإبِلَ، فَهلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ، حتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ مَن يَمُوتُ صَغِيرًا؟ قالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بما كَانُوا عَامِلِينَ." صحيح مسلم 2658).

وهذه الفطرة تجعل العقل كامل النور منعدم الظلمة وتجعل الحرية صحيحة معصومة من الخطأ. ولكن عند خروج الإنسان إلى محيطه العائلي والمجتمعي، تبدأ تتأثر هذه الفطرة ويحدث صراع في العقل بين النور والظلام وفي الحرية بين الصواب والخطأ، وهذا الصراع صفة من صفات النفس لأنها لوامة ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿2﴾﴾ [القيامة]، فتنتقل النفس من المثالية إلى الواقعية.

ونقول عن العقل في هذه الحالة أنه منير إذا طغى نوره على ظلامه وأنه مظلم إذا طغت ظلمته على نوره، وحتمية وجود على الأقل بعض الظلام في العقل هي صفة من صفات النفس لأنها أمارة بالسوء ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿53﴾﴾ [يوسف].

ونقول عن الحرية أنها صحيحة إذا كان انحرافها لا يكاد يبين أمام استقامتها وأنها خاطئة إذا كانت استقامتها لا تمثل شيئا أمام انحرافها. ونجد العقل والحرية المثاليين في نفس الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي اجتهد لتحقيق ذلك بمعونة الله، وفي نفس المسيح عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم الذي أعانه الله في ممارسة هذه الفطرة المثالية منذ ولادته.

تنبيه: إنّ الله خلق الإنسان وميّزه عن الحيوان بالعقل والحرية وكلّفه بالعبادة، فلا يقبل منه إلاّ الحرية الصحيحة التي أنتجها بعقله خالصة لوجه ربه، ولا تكون الحرية صحيحة إلاّ إذا توافقت كليا مع القرآن والسُّنّة ولا تعارضهما، وما دون ذلك فهو خاطئ. فكل من حقق شرطي الصحة والإخلاص في كل حركاته وسكناته سيسعد في الدنيا والآخرة. والحرية الصحيحة قد تفيد الإنسان وتجعله يأخذ نصيبا من الدنيا، ولكنها لا تنفعه في الآخرة إن لم تكن ناتجة من الإخلاص. فكل من أعرض عن الإيمان بالله ورسوله والقرآن والسُّنّة، فهو من الخاسرين في الآخرة ولو بدت حريته صحيحة في الدنيا. فلا تغتر أيها العبد المسلم بأفعال هؤلاء الكفار والملحدين والنصيب الذي أخذوه من الدنيا، فلا تُسوِّل لك نفسك اتباعهم ولا الاقتداء بهم، لأنّ مصيرهم جهنم خالدين فيها، وما عليك إلاّ منافستهم على بصيرة، وذلك بالتصحيح الحقيقي لحريتك وبتقوية إخلاصك لتصبح أفضل منهم في الدنيا والآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿97﴾﴾ [النحل]، فهذا الفوز العظيم الذي وعد الله به عباده لا يتحقق إلاّ إذا اقترن العمل الصالح (الحرية الصحيحة) بالإيمان بالله ورسوله والقرآن والسُّنّة.

أنواع النفوس

بما أنّ لفظ النفس يرمز إلى الإنسان بحد ذاته، أو بالأحرى الإنسان هو نفس في جسم حيوي بيولوجي، فإنّ التقسيم العام للنفوس يمكن أن يُستنبط من الآيتين ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿49﴾﴾ [الذاريات] و ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿2﴾﴾ [التغابن]، حيث نجد أنّ الله خلق مثلا الحياة والموت، النور والظلام، الحق والباطل، الجنّة وجهنّم.

فهذا يستلزم أنّ هناك أيضا نوعين من النفوس، نفس مؤمنة يكون مثواها جنّة الخلد لأنها كانت في الدنيا حيّة في النور على طريق الحق، ونفس كافرة يكون مأواها جهنّم خالدة فيها لأنها كانت في الدنيا ميّتة في الظلام على طريق الباطل.

وبعد إبراز أنواع العقل وأشكال الحرية والإقرار على أنّ النفس هي عقل وحرية، يمكن

إحداث مزيد من التفصيل في هذا التقسيم لإدراج الأنواع الأخرى من النفوس المذكورة في القرآن والسُّنّة، وذلك باعتماد التقسيم المزدوج الذي يقودنا إلى الأنواع الأربعة التالية:

1- نفس مؤمنة (عقل منير وحرية صحيحة): هي النفس التي آتاها الله هداها ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝13۝﴾ [السجدة]، فاتخذت القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝57۝﴾ [يونس] والسُّنّة ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝45۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝46۝﴾ [الأحزاب] سراجا تُداوي وتُنير به عقلها، ومنهاجا تسير عليه وتُقوّم به طريقها وحريتها ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝9۝﴾ [الإسراء]، فيطغى نور عقلها على ظلامه، وتُهيمن صحة حريتها على خطأها، فتفوز بجنة ربها ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝13۝﴾ [النساء]. فليسارع الإنسان إلى ملء نفسه بالإيمان والنور وإلى كسب وممارسة الحرية الصحيحة فقط قبل فوات الأوان ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝158۝﴾ [الأنعام].

2- نفس مؤمنة مقهورة (عقل منير وحرية خاطئة): هي النفس التي تُسيطر على باطنها بعقلها المنير ويكون ظاهرها مُقيّدا بقيود الإنسان، فتُكْرَه على ممارسة الحرية الخاطئة. وهذا الصنف من النفوس جاء في قوله تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝106۝﴾ [النحل]، ويشمل بعض العبيد والأسرى وكل من يخاف على نفسه وأهله أن يُرجموا أو يُعادوا في الملّة الباطلة ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝20۝﴾ [الكهف]. والمثال على هذا النوع من القرآن هو امرأة فرعون التي أخفت

ما في عقلها من نور عن فرعون وقومه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞11۞﴾ [التحريم]. فتجد النفس في هذا النوع تمارس الحد الأدنى من الحرية الخاطئة في العلن، والحد الأقصى من الحرية الصحيحة في السر، والله هو العالم بحالها.

3- نفس منافقة (عقل مظلم وحرية صحيحة): هي النفس التي تمارس الحد الأقصى من الحرية الخاطئة في السر ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞64۞﴾ [التوبة]، والحد الأدنى من الحرية الصحيحة في العلن ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۞142۞﴾ [النساء]. فالمنافقون يستهزؤون ويسخرون بالإسلام والمسلمين في الدنيا ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۞14۞﴾ [البقرة]، ولكن يوم القيامة يُذلّون ويستغيثون بالمؤمنين ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞13۞﴾ [الحديد]. إنهم يعيشون بين المسلمين، ولا يعلمهم إلاّ الله ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۞101۞﴾ [التوبة]، ولكن مأواهم الخلد في جهنم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۞68۞﴾ [التوبة].

4- نفس كافرة (عقل مظلم وحرية خاطئة): هي نفس لها جميع الأدوات التي يحتاجها العقل كالأذن والعين والقلب، ولكنها لا توظفها في القيام بالمهام الحقيقية المنوطة بالإنسان والتي خُلقت من أجلها ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۞179۞﴾ [الأعراف]، فهي إذن كالأنعام في فقهها للأمور وفي سمعها للكلام

وفي رؤيتها للأشياء، وتكون الحرية التي تنتجها بعقلها المظلم منحرفة ولا ترقى حتى إلى مستوى الحرية الغريزية التي تمارسها الأنعام ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿44﴾﴾ [الفرقان]، وفي الآخرة تندم هذه النفس على ما قامت به في الدنيا من إعراض عن سماع كلام الله وكلام رسوله وعن عدم الاهتداء بآيات الله المكتوبة في القرآن والمرئية في الوجود ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿10﴾﴾ [الملك]. فانظر يا عبد الله للذين تراهم اليوم من الكفار علماء كبار كيف وصفهم الله بأنهم أضل من الأنعام، وانظر يا عبد الله كيف يعترفون يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا لا يسمعون ولا يعقلون، واعلم يا عبد الله أنّ سبب هذا كله هو كون عقولهم مظلمة لا ترى النور ولا تُنتجه ولا تصنع الحرية الصحيحة التي خُلق من أجلها الإنسان.

إنّ تقسيم النفوس إلى نفس مؤمنة ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿100﴾﴾ [يونس] وأخرى كافرة كما قسّمها الله هو الأساس، ويجب أن تُعلّم هذه الحقيقة للأجيال وأن تُغرس فيهم منذ صباهم، وأن تُحمَل كشعار وراية، وأن تُنكس جميع الشعارات والرايات الأخرى أمامها. فبحمل هذا التقسيم كعقيدة يجعل النفس المؤمنة تثبت على طريق ربها ولا تتولى إلاّ الله ورسوله والنفوس المؤمنة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿56﴾﴾ [المائدة]، لأنه لا يجب عليها أن تتولى الكفار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿51﴾﴾ [المائدة]، ولو كانوا من أقرب الأقربين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿23﴾﴾ [التوبة]، ولكن في المقابل عليها أن تسعى بالدعوة إلى تنوير العقول وتصحيح الحرية لإخراج النفوس الكافرة من الظلمات إلى النور ومن النار إلى الجنة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿1﴾﴾ [إبراهيم]، وتلك هي الإنسانية الحقيقية.

وأما تقسيم النفوس إلى أربعة أنواع له أيضا حِكم عظيمة وفوائد كثيرة، حيث قد يستفيد منه الداعي إلى الله ليحذر من مكائد المنافقين من حوله وليعلم أين يضع ثقته، كما يجعله يأخذ بعين الاعتبار في دعوته وجود نفوس مؤمنة مقهورة في الجانب الآخر ليبصر استغاثتها والحلول الواجب تقديمها لها. فهذا هو التقسيم الذي يجب على النفس المؤمنة اعتماده في حياتها، لأنه مبني على القرآن والسُّنّة.

وبما أنّ النفس هي عقل وحرية كما بيّنت سابقا، يجب أن ترتكز دراسة صفات النفس الواحدة أو الشخصية على الفهم العميق للعقل وللحرية التي يُنتجها ويتمسك بها، ولا يكون هذا الفهم صحيحا إلاّ إذا كان على ضوء القرآن والسُّنّة، لا على الآراء والأفكار الضالة كالتي تنسب كل حركات الإنسان وسكناته إلى الغريزة الجنسية، لأنّ هذه الغريزة ليست خاصة بالإنسان وحده حتى تُبنى عليها النظريات، بل تتمتع بها أيضا الحيوانات وتمارسها حتى في العلن ولا تبالي.

فكل فكرة أو نظرية بُنيت على غير العقل والحرية اللذيْن ميّز الله بهما الإنسان عن الحيوان، فهي مبتورة من أساسها ولا تصلح للإنسان المكلّف بتاتا، ومن اعتمدها فقد سلّم بأنّ الإنسان ما هو إلاّ فصيلة من فصائل الحيوانات، وبهذا التسليم يصبح طعما سائغا في حبال ما يسمى بنظرية التطور التي تزعم أنّ الإنسان تطور عشوائيا وصدفيا من الحيوانات.

وأما القول الشائع بأنّ الإنسان هو حيوان ناطق، فما هو إلاّ سمّ زُرع في هذه الحبال للصيد فقط. فالإنسان ليس ناطقا أو عاقلا فقط، بل هو مخلوق عاقل ومكلّف، أي خلقه الله لسبب وجعل له العقل والحرية عن قصد، وخلق له السماوات وما في الأرض جميعا وكلّفه بممارسة الحرية الصحيحة التي عرّفتها سابقا. فمن استثنى هذا التكليف من عقله وجحد به فقد كفر.

العقل هو القلب الروحي

أعود الآن لأتحدث عن العقل الذي حيّر الجميع وخاصة العلماء والمفكرين، فنجد الذين لا يؤمنون بالإسلام وقليلا من المسلمين يقولون إنه الدماغ، وأما غالبية المسلمين فيقولون إنه

القلب.

إنّ اقتناع المسلم بأنّ العقل هو الدماغ يعارض كليا الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة التي تشير بوضوح تام إلى أنّ الشيء الوحيد الذي يعقل ويفقه في الإنسان هو قلبه الموجود في صدره ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿46﴾﴾ [الحج]، وتحديدا في جوفه ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿4﴾﴾ [الأحزاب]، ولا جوف للإنسان إلاّ الجوف المعروف لدى العام والخاص والذي يحوي الأعضاء الحيوية كالقلب والرئتين والكبد وغيرها.

وليتذكر هذا المغرر به أنّ قلب وصدر وجوف الإنسان كانت معروفة عند العرب بهذه الأسماء قبل نزول القرآن الذي صاغه الله بلسانهم. فالذي تُوهِمُهُ شياطين الجن والإنس بالفرضيات المادية ويقول أنّ الصدر هو مقدمة الرأس حتى يزعم أنّ القلب المقصود في القرآن موجود في الرأس، قد قلب مفاهيم لغة العرب رأسا على عقب كي لا يصطدم بصدر الحقيقة، فانقلبت به إلى جوف الهوى.

وأما الذي يعتقد أنّ العقل هو مضغة القلب المسؤولة بضخ الدم إلى جميع أنحاء الجسم بما فيها الدماغ، فتجده لا يُكلِّف نفسه عناء التفكير كثيرا في هذا الموضوع، فيقتصر بالإيمان والتصديق بظاهر القرآن والسُّنّة، رغم أنه لا يمكن أن يُقنع نفسه بهذا الاعتقاد ناهيك عن اقناع غيره، وخاصة عندما يرى أناسا يعيشون حياة طبيعية وقد تم استبدال قلوبهم بقلوب أناس آخرين أو بمضخات اصطناعية.

ومن جهة أخرى، سواء اعتقد هؤلاء أنّ العقل هو الدماغ أو آمنوا أنه هو مضغة القلب، فقد جهلوا أو تجاهلوا مبدأ أساسيا في العقيدة الإسلامية، ألا وهو الإيمان بالغيب، وتحديدا بالروح الموجودة في الإنسان، لأنّ اعتقادهم هذا المرتكز على العضوين الماديين، الدماغ ومضغة القلب، يجعلهم يُفسرون كل ما يجري في الإنسان تفسيرا ماديا بحتا، كأنهم يدرسون الحيوان الذي

يملك أيضا الدماغ ومضغة القلب، فيلغون ضمنيا وجود الروح في الإنسان، ويترتب على ذلك إلغاء وجود البرزخ والآخرة والحساب.

حلا لهذه الإشكالات، أقول أنّ القلب قلبان، قلب مادي وقلب روحي. فأما القلب المادي فيتمثل في القلب المعروف المكلف بتزويد خلايا الجسم بما تحتاجه من أكسجين وغذاء، وتخليصها من ثاني أكسيد الكربون والفضلات النّاتجة عن عمليات الأيض، حيث يقوم هذا القلب باستقبال الدم من كافة أجزاء الجسم، ثم ارساله إلى الرئتين لتطهيره من أكسيد الكربون وتزويده بالأكسجين، ثم استقبال الدم النقي من الرئتين لإعادة إرساله إلى كافة أجزاء الجسم، وهذه العمليات الأربع تتكرر بانتظام ولا تتوقف حتى يقبض الله النفس عند انقضاء أجلها، وتكمن الدورة الدموية الكبرى في عمليتي الاستقبال الأول والإرسال الثاني، وأما الدورة الدموية الصغرى فتتمثل في الإرسال الأول والاستقبال الثاني.

وأما القلب الروحي فهو يقع في صدر الإنسان أو جوفه موازيا للقلب المادي، وتحديدا في منطقة استقبال وإرسال الدم. فجميع الآيات التي ذُكر فيها لفظ قلب تتحدث حصرا عن هذا القلب الروحي، وليس عن القلب المادي الذي لا يختلف عن قلوب الحيوانات. إذن، أخلص إلى القول بأنّ العقل الذي يُميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات يتمثل في هذا القلب الروحي، فهو المسؤول عن كل حركات وسكنات الإنسان الباطنة والظاهرة، وخاصة الإرادية منها التي يحاسبه الله عليها بالثواب أو العقاب، فمضغة القلب تحوي هذا القلب الروحي وتأويه.

الدماغ

إنّ دماغ الإنسان هو عضو مادي، فجميع وظائفه الكهربائية والكيميائية والميكانيكية لا تختلف عن وظائف دماغ الحيوان، وأعتقد أنّ عمله لا يختلف عن عمل القلب المادي من حيث الشكل، حيث أرى أنه يقوم باستقبال الإشارات العصبية من كافة أجزاء الجسم، ثم إرسالها عبر محوّل ما إلى القلب الروحي للمعالجة النهائية والتدقيق والتمحيص، ثم استقبال الإشارات العصبية المعالجة من القلب الروحي عبر هذا المحوّل لإعادة إرسالها إلى كافة أجزاء الجسم، وهذه العمليات الأربع تتكرر بانتظام ولا تتوقف إلاّ إذا انفصلت الروح (بما فيها هذا

القلب الروحي) عن الجسم عن طريق الموت أو النوم، وأقول إنّ الدورة العصبية الكبرى تكمن في عمليتي الاستقبال الأول والإرسال الثاني، وأما الدورة العصبية الصغرى فتتمثل في الإرسال الأول والاستقبال الثاني.

فالدم الذي يُغذي الجسم يتنفس الهواء عبر الرئة المادية، وأما الإشارات العصبية التي تُحرّك الجسم فتستمد تردداتها النهائية من المحول ومن القلب الروحي، والكل في جوف الإنسان. فالعلم التجريبي الحديث يمكنه إثبات وجود هذه الدورة العصبية الكبرى، ولكنه لا يستطيع نفي وجود هذه الدورة العصبية الصغرى التي تتكفل بكل حركات وسكنات الإنسان الإرادية الباطنة منها والظاهرة.

وأعتقد أنّ كل ما هو لا إرادي، كعملية الهضم مثلا أو الحركة أثناء النوم، لا يمر بهذه الدورة العصبية الصغرى، أي أنه ليس من صلاحيات القلب الروحي، فهو يخضع إلى الدورة العصبية الكبرى فقط، لأنه يُرفع القلم في مثل هذه الحالات (عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رُفِعَ القلَمُ عَن ثلاثةٍ عن النَّائمِ حتَّى يَستيقظَ وعنِ الصَّغيرِ حتَّى يكبُرَ وعنِ المجنونِ حتَّى يعقِلَ أو يفيقَ" صحيح ابن ماجه 1673).

فالقلب الروحي الذي يخرج مع الروح عند الموت وينتقل معها إلى البرزخ هو المسؤول عن كل الأمور الإرادية (الحرية) وهو العقل المدبر والمنتج لها والمتحكم فيها، وهو الجزء الوحيد في الإنسان الذي ينظر إليه الله يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝89﴾ [الشعراء].

وأما مضغة القلب وأجهزة الدماغ فتصبح ترابا بعد الموت مثلها مثل أعضاء الجسم الأخرى، فلا أهمية لها بعد الموت. فالإنسان ما هو إلاّ روح في جسم بيولوجي، وجوهره هو النفس (العقل والحرية)، ولبه هو هذا القلب الروحي الذي يمثل العقل، فإذا كان هذا اللب منيرا، يصبح صاحبه من أولي الألباب الذين تحدّث عنهم القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝29﴾ [ص].

فكل نفس ذائقة الموت ولو زُود الإنسان بقلب اصطناعي الذي نظريا لا يفنى، فيبقى يُزود الدماغ بكل ما يلزمه، ولكن عندما يأتي الأجل تموت النفس بخروج الروح، فتنعدم الحرية،

لأنّ القلب الروحي (العقل) المسؤول عنها يخرج مع الروح، فيبقى الجسم البيولوجي يشتغل بالقلب الاصطناعي، ولكن الدماغ لا يمكنه إنتاج الحرية من دون القلب الروحي، فهذا دليل على وجود الروح في الإنسان وأنّ الدماغ ليس هو العقل، فلو كان الدماغ فعلا هو العقل كما يزعم الماديون، فلماذا يتوقف عن إنتاج الحرية رغم تزويده بالدم بشكل طبيعي عن طريق القلب الاصطناعي؟

فإياك أيها المسلم أن تنخرط وتصطف مع الذين يقولون إنّ كل ما نسبه القرآن والسُّنّة إلى القلب، من العقل والفقه والعلم والإدراك والأحاسيس والمشاعر وغيرها، يدخل في إطار وسياق الإسناد الرمزي والمجازي فقط. لأنك إن فعلت كذلك ستفسر موت الإنسان بتحوله إلى التراب فقط، فيصعب عليك حينئذ الاعتقاد بأنه هناك جزء منه ينتقل إلى عالم البرزخ، فتضطر إلى تفسير هذا العالم وما يليه من جنة ونار بالمجاز، بل ستجعل كل الأمور الغيبية التي وردت في القرآن والسُّنّة في خانة المجاز، فهيهات هيهات لمن يتبع هذا الانحراف. واعلم أيها المسلم أنّ الإيمان بالغيب هو أصل من أصول العقيدة الإسلامية، فهو الفاصل بين المؤمن والكافر ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝3﴾ [البقرة].

الفؤاد

وأما المحوّل الذي تحدثتُ عنه فأعتقد أنه هو الفؤاد، فظاهره يتعامل مع الإشارات العصبية التي تأتي من المحيط الداخلي للجسم، وتحديدا من الجهاز العصبي بما فيه الدماغ، وباطنه يتعامل مع القلب الروحي، فهو جهاز يتواجد في الصدر، ويُعتبر همزة وصل بين الجسم المادي للإنسان وروحه، فنصفه ظاهري مادي ونصفه الآخر روحي.

إنّ جميع مشتقات لفظ الفؤاد في لسان العرب تتحدث عن النار والرماد والحرارة وغيرها، فالقول: فأد اللحم: شواه، فتحترق الطبقة الخارجية وينضج ما بالداخل، وكذلك فؤاد الإنسان، هو جهاز يتعرض من الخارج إلى الإشارات العصبية الكهربائية (نارية)، فيحولها إلى داخله ليعالجها أو يمررها إلى القلب الروحي. فالفؤاد يعالج الإشارات كما يعالج الرماد الخبز أو اللحم. وهو المسؤول عن جميع أحاسيس الإنسان المادية وغير المادية، ويأتي ذِكره غالبا في القرآن مع

حاستي السمع والبصر اللتين تترجمان للإنسان محيطه الخارجي ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿36﴾﴾ [الإسراء].

والفؤاد ليس مرادفا للقلب ولا للعقل كما يظن البعض، لأنّ القرآن يستعمل لفظ الفؤاد ليشير إلى شيء مختلف عن الذي يشير إليه القلب، كالاستعمال الذي جاء في قوله تعالى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿10﴾﴾ [القصص].

فمن بين مهمات الفؤاد تخزين جميع الغرائز التي فطر الله الإنسان عليها ومعالجة وتسيير كل الأمور غير الإرادية، وأما مهمة القلب الروحي فهي معالجة وإنتاج الأمور الإرادية ﴿... وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿154﴾﴾ [آل عمران]، فالله يمتحن ويختبر ما في الصدور، أي ما في الفؤاد والقلب الروحي، ولكنه يُميّز الإنسان بما أنتجه إراديا في قلبه الروحي فقط. فمن هذه الآية يتبين أنّ الصدر يحوي أداة لابتلاء ما فيها، ألا وهي الفؤاد، وقلب روحي لتمحيص ما فيه.

وكما قلت سابقا، الفؤاد هو أيضا بوابة تمر من خلاله الإشارات إلى القلب الروحي، فهذه البوابة قد تكون متسعة ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿22﴾﴾ [الزمر]، وقد تكون ضيقة ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿125﴾﴾ [الأنعام]. فالقلب الروحي القاسي ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿74﴾﴾ [البقرة]، أو المقفل عليه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿24﴾﴾ [محمد]، أو المختوم عليه ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿7﴾﴾ [البقرة]، أو المطبوع عليه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا

بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿155﴾﴾ [النساء]، أو المغطى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿25﴾﴾ [الأنعام]، لا يمكنه استقبال النور من الفؤاد.

وقد يكون الإسلام نورا في الفؤاد، ولكنه لا يصير الإنسان مؤمنا إلاّ إذا دخل هذا النور إلى قلبه الروحي ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿14﴾﴾ [الحجرات].

فالمسلم من أسلم فؤاده، والمؤمن من أسلم فؤاده وآمن قلبه الروحي، والمنافق من أسلم فؤاده ولم يؤمن قلبه الروحي، والكافر من كفر فؤاده وسلك هذا الكفر إلى قلبه الروحي ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿200﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿201﴾﴾ [الشعراء]. والتمييز بين المسلمين هيّن على الله، لأنه يعلم المؤمن منهم والمنافق ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿11﴾﴾ [العنكبوت]، فإسلام الفؤاد لا ينفع وحده إن لم يسلك هذا الإسلام إلى القلب الروحي لإقراره والمصادقة عليه. ولا يدخل الجنة إلاّ الذي في قلبه شيء من الإيمان، ولا يخلد في جهنم الذي في قلبه شيء من الإيمان (عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يخرجُ منَ النارِ مَنْ كانَ فِي قلبِهِ ذرَّةٌ مِنَ الإيمانِ" الألباني صحيح الجامع 8062).

والله لا يحاسب الإنسان على بعض الأفعال الخاطئة التي قد ينتجها الفؤاد بمعزل عن القلب الروحي ويأمر بها الدماغ لينفذها، ولكنه يحاسبه على جميع الأفعال التي وصلت إلى الدماغ عن طريق الفؤاد بعد أن تم المصادقة عليها من طرف القلب الروحي، وهذا جاء في ﴿... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿5﴾﴾ [الأحزاب]، وفي ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿225﴾﴾ [البقرة].

أعتقد أنه هناك علاقة وطيدة بين الجلد من جهة والفؤاد والقلب الروحي من جهة أخرى، وقد تكون هذه العلاقة مباشرة لا تمر عبر الدماغ، حيث تمر من الجلد عبر الأوعية الدموية إلى الخلايا العصبية الموجودة في مضغة القلب أو الصدر ثم إلى الفؤاد وبعدها إلى القلب الروحي. والشيء الذي جعلني أعتقد هذا الاعتقاد هو كون الجلد يساهم في الإحساس الروحي، حيث يقشعّر بالقرآن ثم يلين هو والقلب الروحي معا إلى ذكر الله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝23﴾ [الزمر]، وكونه يضمن الإحساس المادي، حيث يتجدد دائما في نار جهنم لضمان استمرار التذوق المادي للعذاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝56﴾ [النساء] ولكي تستمر النار من خلاله في الاطلاع على الفؤاد لضمان استمرار التذوق المعنوي للعذاب ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝6 الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝7﴾ [الهمزة]. فالعذاب أو الهناء يكون للفؤاد وللقلب الروحي فقط، وليس للجلد ولا للدماغ ولا لمضغة القلب.

واعتقادي بوجود علاقة مباشرة بين الجلد والفؤاد والقلب الروحي تدعمه شهادة الجلد يوم القيامة ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝20﴾ [فصلت]، التي تغيظ الإنسان ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝21﴾ [فصلت]، لأنها تكشف عن كل أعماله الباطنية التي يُخفيها ويُكنّها صدره (الفؤاد والقلب الروحي) والتي ظنّ أنها لا يعلم بها أحد ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝22﴾ [فصلت]، وأما أعماله الظاهرية، فيشهد عليها السمع والبصر. وأنهي الحديث عن اعتقادي هذا متمنيا من العلم التجريبي تأكيد وجود تواصل مباشر بين الجلد والخلايا العصبية المتواجدة في مضغة القلب أو الصدر.

ومن جهة أخرى، أعتقد أنّ الله جعل للحيوان الفؤاد فقط (حديث أبي هريرة رضي الله

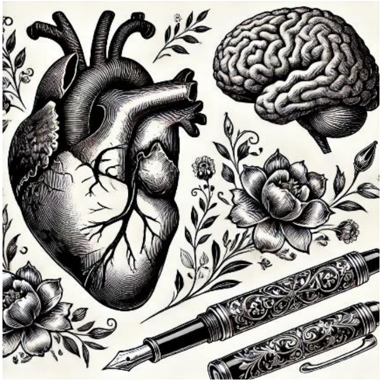
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "يَدْخُلُ الجَنَّةَ أقْوامٌ، أفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أفْئِدَةِ الطَّيْرِ" صحيح مسلم 2840)، ولم يجعل له القلب الروحي، فهو مسلوب الحرية، لهذا لم يُكلفه. فأرى أنّ الحيوان لا يتمتع إلاّ بالدورة العصبية الكبرى، حيث يقوم الدماغ باستقبال الإشارات العصبية من كافة أجزاء الجسم، ثم إرسالها إلى الفؤاد للمعالجة النهائية، ثم استقبال الإشارات العصبية المعالجة من الفؤاد لإعادة إرسالها إلى كافة أجزاء الجسم، وهذه الدورة تتكرر بانتظام ولا تتوقف حتى الموت. فجميع الأمور والغرائز التي فطر الله عليها الحيوان أو الإنسان قد غرست في الفؤاد وليس في الدماغ.

فالإنسان يكون عاقلا إذا استغل دورته العصبية الصغرى إيجابيا، أي وفقا للقرآن والسُّنّة، ويكون كالحيوان إذا عاش بغرائزه الموجودة في فؤاده فقط كأنه لا يملك هذه الدورة، ويكون أضل من الحيوان إذا شغّل الدورة سلبيا، أي خلافا للقرآن والسُّنّة، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿44﴾﴾ [الفرقان] وفي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿179﴾﴾ [الأعراف].

فإذا أراد الإنسان الفوز بالجنة حقا، فعليه باستغلال فؤاده مع قلبه الروحي إيجابيا، ومفتاح ذلك هو الإيمان بالله ليهدي قلبه ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿11﴾﴾ [التغابن]، ثم ذكر الله ليظمئن قلبه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿28﴾﴾ [الرعد]، ثم يليه تعظيم شعائر الله ليتقي قلبه ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿32﴾﴾ [الحج]، وذلك بالحرص الشديد على الذكر والشعائر ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿37﴾﴾ [النور]. وعلاوة على كل هذا، يجب على الإنسان أن يُعظّم في صدره كل ما جاء في القرآن وألا يجحد به ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿49﴾﴾ [العنكبوت]، كما

يجب عليه أن يتيقن بأنّ القرآن هو موعظة وشفاء لما في صدره وهدى ورحمة له ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿57﴾﴾ [يونس]. فبعد هذا التعظيم واليقين في الصدر والاستقامة في الفعل، تأتي مرحلة البلاغ والدعوة دون أن يتحرج الصدر مما في القرآن، وتكون بإنذار الكفار وبتذكير المؤمنين ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿2﴾﴾ [الأعراف].

الفصل الخامس: رحلة الإنسان



تمهيد

في هذا الفصل، أحاول إبصار واستنباط بالدليل من القرآن والسُّنّة التفاصيل الأساسية لمسيرة الإنسان من العدم إلى الخلد، كما أسعى إلى رفع اللبس عن كثير من النقاط التي وردت في القرآن فيما يتعلق بالخلق الأول والتي استشكلت على المفسرين وأهل التأويل. ومن أهم هذه الإشكالات أعرض التي وردت في قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴿6﴾﴾ [الزمر]، والتي تُنتج طبيعيا السؤال: كيف خُلقنا جميعا من آدم وبعدها جُعلت حواء زوجة لآدم؟

وفي ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴿36﴾﴾ [البقرة]، والتي تُنتج طبيعيا السؤال: لماذا جاء أمر هبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض بالجمع؟

وفي ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿172﴾﴾ [الأعراف]، والتي تُنتج طبيعيا السؤال: متى حدثت هذه الشهادة؟

وفي ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿64﴾﴾ [النور]، والتي تُنتج طبيعيا السؤال: كيف نرجع إلى الله ونحن عنده في قبضته أينما كنا؟

للإجابة على هذه التساؤلات وغيرها، أُقسّم هذا الفصل إلى جزئين أساسيين. الجزء الأول أعرض فيه بطريقة فريدة من نوعها مراحل خلق الإنسان بالتناسل، وأما الجزء الثاني فأخصصه إلى برهنة المراحل الكبرى في رحلة الإنسان والتي من خلالها استنبط الإجابات المقنعة والدقيقة التي ترفع اللبس عن أي إشكال متعلق بهذه الرحلة.

مراحل خلق الإنسان بالتناسل كما لم تسمعها من قبل

إنّ الله عز وجل خلق آدم من طين ثم جعل جميع الناس بما فيهم حواء وعيسى يُخلقون من بعده من سلالة من ماء مهين، وهذا يتوافق كليا مع قوله تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿7﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿8﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿9﴾﴾ [السجدة].

وهناك أيضا آيات أخرى مهمة في هذا الشأن يجب دراستها. فسأتطرق لها بانتهاج أسلوب يُظهر بعض أسباب ورودها، وفي نفس الوقت، يستعرض بعض مراحل بروز الجنس الإنساني. ولتحقيق دراسة موضوعية مُنظّمة، سأعتمد طريقة: أنا أسأل ربي وهو يجيبني بالقرآن.

إننا نؤمن بأنك يا ربنا أنت خلقت الكون وما حوى، لا صغير ولا كبير خلقته عبثا، ولا شيء وُجد صُدفة، ولكنك أبدعت وقصدت في خلقك لا إله إلاّ أنت، فسبحانك أنت الخالق البارئ المصور. فنحن صناديد بهذا الإيمان الذي وهبته لنا، فهو مستقر في قلوبنا ومسيطر على أفئدتنا ومتبلّج في أذهاننا، لا الصدفة يمكنها أن تسلب منا سكينة قلوبنا، ولا حيّل معتنقيها قادرة على إطفاء نور عقولنا. فالنظر في خلقك كما أمرتنا، طمأنينة لقلوبنا، وإجابتك على أسئلتنا من خلال وحيك، زيادة ليقيننا وتبصرة لكمال حكمتك وجلال قدرتك. إنك أحسنت كل شيء خلقته، فأنشأتنا وجعلت لنا السمع والأبصار والأفئدة، فاللهم ربنا سخرها لنا في النظر في خلق الإنس موضوع بحثنا، فنسألك ربنا أولا كيف أنشأتنا؟ فيجيب ربنا ويقول:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿98﴾﴾ [الأنعام]

هذه الآية تجيبنا بوضوح تام عن الكيفية التي أنشأنا الله بها، وتؤكد لنا أنّ النشأة الأولى كانت من نفس واحدة، ولم تكن إذن من إثنين (الذكر والأنثى) أو أكثر، حيث يخبرنا الله أنه هو الذي أنشانا جميعا (الأحياء منّا والأموات) من نفس واحدة والتي تمثل آدم كما أثبت ذلك في الفصل السابق وأكدت أنه خلقه الله بيديه من الطين، فمنّا من هو حيّ مستقرّ في هذه الأرض (الحياة الدنيوية) إلى حين يبلغ أجله، ومنّا من استودعها وأصبح وديعة في القبر (الحياة البرزخية) إلى أن تقوم الساعة. فنقول استفهاما واستغرابا: يا ربنا كيف خلقتنا من نفس واحدة؟ فيجيب الناس الأحياء السائلين ويقول:

– ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿1﴾﴾ [النساء]

في هذه الآية، يقول لنا ربنا اتقوني في هذا الاستفهام والاستغراب، ويؤكد لنا للمرة الثانية أنه خلق الناس جميعا من نفس واحدة وهي آدم، ثم يخبرنا عن بعض تفاصيل كيفية هذا الخلق، حيث يخبرنا أنه خلق من آدم زوجته كما بيّنت ذلك في الفصل الثالث وأكدت أنها خلقها الله من ماء آدم، ثم بث منهما رجالا كثيرا ونساء. والمقصود هنا ليس جميع رجال ونساء الحياة الدنيا، لأنّ لفظ 'كثير' لا يدل على الجميع. فنقول يا ربنا بهذه الاجابة قد تبيّنت لنا الآن الخطوط العريضة لكيفية الخلق، ولكننا نريد يا ربنا تفاصيل أكثر، ونقول لك استفهاما: لماذا جعلت زوجته منه؟ وكيف بثت الرجال والنساء منهما؟ فيجيبنا ويقول:

– ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿189﴾﴾ [الأعراف].

في هذه الآية، يؤكد لنا ربنا للمرة الثالثة أنه خلق الناس جميعا من نفس واحدة وهي آدم، كما أنه يؤكد لنا للمرة الثانية أنه جعل حواء من آدم، ثم يجيبنا أنه جعل زوجته منه ليسكن اليها، وذلك بخلقها صبية من منيّه وجعله يرعاها كابنته، لأنه لو لم تُخلق بهذه الطريقة وخُلقت

مستقلة عن آدم أو جُعلت من جنس آخر لصعب هذا السكون الذي هو أشمل من الألفة، كما بيّنت هذا في الفصل الثالث، ثم يجيبنا عن كيفية بث الأولاد فيقول إنّ آدم جامع زوجته فحملت، أي بطريقة التناسل الطبيعي التي نعرفها ونستعملها لإنجاب الأولاد، فأنجبا بهذه الطريقة عددا كبيرا من الأبناء والبنات. فنقول يا ربنا بهذه الاجابة قد تبيّن لنا كل شيء وما بقي لنا إلّا الاستفسار حول قضية واحدة وهي: كيف يكون الحمل؟ فيجيبنا ويقول:

- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿6﴾﴾ [الزمر].

في هذه الآية، يؤكد لنا ربنا للمرة الرابعة أنه خلق الناس جميعا من نفس واحدة وهي آدم، ويؤكد لنا للمرة الثالثة أنّه جعل حواء من آدم. كما توجد فيها أيضا إجابة من ربنا عن كيفية الحمل، حيث يخبرنا أنّ الحمل يتم خلقه في بطن الأم على مراحل (نطفة، علقة، مضغة، عظام، كساء العظام باللحم، التسوية، ونفخ الروح لإنشاء جنين إنساني حي) التي توصل العلم إلى بعضها اليوم، وقد جاءت هذه الأطوار مفصلة في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿14﴾﴾ [المؤمنون] ومؤكدة في قوله تعالى ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿13﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿14﴾﴾ [نوح].

وقد يُفهم من 'خلقكم من نفس واحدة' أنّ الله خلق في آدم ماء يحمل سلالة الجنس الإنساني، فهذا الماء يجعل تكون الجنين (ذكر أو أنثى) طبيعيا بالتناسل حتى يصل مرحلتي التسوية ونفخ الروح، كما يصبح إنتاج هذا الماء في جسم الإنسان (ذكر أو أنثى) كذلك طبيعيا. وهذا المعنى قد يحمله أيضا قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿11﴾﴾ [الأعراف]. إذن، قد نقول إننا خُلقنا جميعا بما فيها حواء يوم خلق الله الماء المهين في جسم آدم وصور فيه الجنس الإنساني، كما خُلقت جميع أطنان الفاصوليا الموجودة في الأرض يوم خُلقت وصُورت بذرة أو شجرة الفاصوليا

الأولى. ثم بعد خلق هذا الماء المهين خُلقت منه حواء كما بينت ذلك في الفصل الثالث. ولكن ورود لفظ 'ثم' في (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) يجعلنا نعيد النظر في هذا التفسير الذي يبدو غير دقيق وغير كامل ونقول: كيف خلقنا الله جميعا من آدم ثم جعل حواء من آدم؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى التفصيل والتأصيل والتأمل أكثر في الآيات السابقة التي تشير إلى أنّ الإنسان مرّ كذلك بمرحلة أخرى قبل مرحلة التناسل التي نعرفها، وهذا الموضوع سأتطرق إليه لاحقا.

بهذا التحليل التسلسلي، تصبح الآن مراحل خلق الإنسان بالتناسل واضحة المعالم ومبرهنة. رغم هذا، قد تبقى بعض الأسئلة تتبادر إلى الأذهان، ومنها: بما أنّ حواء خُلقت من آدم مباشرة، سواء من ضلعه أو من مائه، فهي من صلبه وتعتبر كابنته، ولا شك أنّ هذه الصلة أقوى بكثير من صلة الرضيع بمرضعته، إذن، قد يقول قائل: كيف لآدم أن يتزوج ابنته؟ فأقول: وكيف لأبناء آدم وحواء أن يتزوجوا أخواتهم؟

إنني أرى –والله أعلم– أنّ الخلق الأول لم يتأثر بالمشاكل الوراثية التي نعيشها اليوم، لأنّ سلاسله الوراثية البيولوجية لم تكن مكتملة، فنجد أنّ آدم لم يكن له لا أب ولا أم ولا أجداد، وحواء لم يكن لها لا أم ولا أجداد، وأبناؤهما لم يكن لهم أجداد. فهذا التزاوج ربما جعله الله قصد بناء الجنس الإنساني من سلالة موحدة، ولذلك خلقنا الله جميعا من نفس واحدة، وهي آدم. إذن، الاستفهام الذي أشرت إليه خاطئ من الإساس، لأنه من جهة نابع من نتائج الواقع الذي نعيشه اليوم، ومن جهة أخرى يرمي إلى إيجاد تفسير لواقع باستعمال معطيات ونتائج واقع آخر يختلف عنه تماما.

مراحل رحلة الإنسان

حتى أتمكن من ابصار تفاصيل المراحل الأساسية التي يمر بها الإنسان في رحلته، أرى من الضروري التطرق أولا إلى مفهومين مفتاحيين يرتبطان بهذه الرحلة، وهما **الإماتة والإحياء**. عند التأمل جيدا في القرآن الكريم، نجد أنّ الله عز وجل خلق الموت والحياة ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝2﴾ [الملك]، وجعل الإنسان يمر

بإماتتين وإحياءين، وهذا جاء في الآية ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۞11۞﴾ [غافر]، التي استخدمت حرف العطف 'و'، الذي يفيد الجمع ولا يُلزم الترتيب الزمني. أما تفصيل هذا الجمع، فنجده في قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞28۞﴾ [البقرة]، حيث استخدم الله حرف العطف 'ثُمَّ'، الذي يفيد الترتيب والتوالي.

إنّ لفظي 'أَمَتَّنَا' و 'أَحْيَيْتَنَا' يشيران، على الترتيب، إلى عمليتي الإماتة والإحياء اللتين تُنتجان على الترتيب الموت والحياة. وعليه، فإنّ عبارة 'أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ' لا تشير إلى موتتين وحياتين، بل تدل على وقوع إماتتين وإحياءين، وهو تمييز أجعله أساسا لبحثي، سعيا لإبصار الحقيقة وتجنبا للخلط الذي وقع فيه معظم المفسرين، كابن كثير وغيره.

قبل الشروع في التنقيب عن تفاصيل رحلة الإنسان التي تتضمن أساسا هاتين العمليتين، أطرح بديهية عقلية لا أظن أنه سيعارضها أحد، وهي: كل إماتة تسبقها حياة حقيقية (الروح في الجسم البيولوجي)، وكل إحياء يسبقه موت حقيقي (الروح في البرزخ). فلا تكون عملية الإماتة إلاّ إذا كان الإنسان حيا ثم تُقبض الروح من الجسم، كما لا تكون عملية الإحياء إلاّ إذا كان الإنسان ميتا ثم تُعاد الروح إلى الجسم.

بناء على ذلك، لا يمكن القول إنّ الله أحيا آدم، لأنّ آدم لم يخضع لعملية إحياء، بل لعملية خلق ابتدائي، وفي المقابل، يمكن القول إنّ الله أحيا الطين على هيئة آدم، لأنّ الطين كان ميتا ثم صار حيّا. وبالمثل، يمكن القول إنّ عيسى أحيا الطين، لكنه لم يُحيِ الطير، إذ إنّ الحياة تنتج إما عبر عملية الإحياء، كالتي نعيشها اليوم والتي سنعيشها في الآخرة، وإما عبر عملية الخلق الابتدائي، كالتي عاشها آدم والتي عاشها طير عيسى.

هذه البديهية تنطبق كذلك على النبات، حيث نجد أنّ كل إماتة للنبات تسبقها حياة حقيقية (اخضرار)، وكل إحياء للنبات يسبقه موت حقيقي (البذرة في الأرض). فيستحيل أن تُحيا الأرض إلاّ بعد هذا الموت، ولو سُقيت بماء غدق.

بناء على هذا الفهم، أرى – بخلاف ما ذهب إليه المفسرون – أنّ 'الإنبات من الأرض'،

الذي ورد في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿17﴾﴾ [نوح]، يشمل جميع الناس، بمن فيهم حواء، لكنه لا يشمل آدم، لأنّ آدم خُلق مباشرة من طين خالص بيدي الله تعالى، ولم تكن هناك بذرة إنسان قبله حتى يقال إنه أُنبتَ. وهذا ما برهنت عليه في الفصل الثالث.

أما البشر من بعده، فينشؤون من الأرض من خلال بذورٍ تعود في أصلها إلى آدم، وتحمل في داخلها القدرة على النمو والتكاثر. هذه البذور تتكون وراثيّا من مواد ترابية في الأصلاب، ثم تُزرع في الأرحام، ثم تُسمّد وتُسقى بمواد وسوائل خاصة بها، فتنبت وتتطور عبر أطوار متتابعة معروفة، لا تختلف في جوهرها عن تلك التي تمر بها النباتات والأشجار، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴿14﴾﴾ [نوح]. وهذه السوائل والمواد، وكذلك الأرحام والأصلاب، جميعها نشأت من الطعام الذي أصله تراب الأرض.

باعتماد هذه البديهية العقلية، يصبح تفسير العبارة 'أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ'، التي تشير إلى إماتتين وإحياءين، أمرا هينا باستعمال العبارة 'وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ'.

اللفظ 'ثُمَّ يُحْيِيكُمْ' يشير إلى **الإحياء الأخير** (البعث من العظام البالية)، الذي يحدث في الآخرة ويُنتج حياة الآخرة الخالدة، ويسبقه الموت في الأولى. وهذا الموت ينتج عن **الإماتة الأولى** المشار إليها بلفظ ' ثُمَّ يُمِيتُكُمْ'، والتي ليس من بعدها موت، وتحدث في الأولى وتسبقها حياة الأولى. وهذه الحياة تنتج من **الإحياء الأول** (الخلق من العظام الحيّة، النطفة)، الذي يحدث في الأولى والمشار إليه بلفظ 'فَأَحْيَاكُمْ'، الذي يجب أن يكون قد سبقه موت حسب البديهية العقلية. وهذا الموت تؤكده أيضا عبارة 'وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا'، ويكون قطعا قد نتج عن إماتة أخرى، لأنّ الإنسان يمر حتما بإماتتين. وهذه الإماتة، التي أسميها **الإماتة الابتدائية،** يجب بدورها حسب البديهية العقلية أن تكون قد سبقتها حياة. وهذه الحياة قطعا لم تكن قد نتجت من عملية إحياء، لأنّ الإنسان لا يمر إلّا بإحياءين فقط. فإذن، هذه الحياة تكون قد نتجت من عملية خلق ابتدائي، وأسميها الحياة الابتدائية، بينما يسميها البعض عالم الذر. وبهذا أكون قد وضّحت مفهوم الإماتتين والإحياءين بصورة جلية، متسقة مع ما ورد في النصوص القرآنية ومع مقتضيات

العقل.

يمكنني الاستدلال بطريقة أخرى، وذلك من خلال تحليل عبارة 'وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا'، التي تحتمل تأويلين لا ثالث لهما:

التأويل الأول: كنا موادا ميّتة، كالتراب أو الماء العادي أو الطين أو الماء المهين (فيه حياة بيولوجيا فقط).

التأويل الثاني: كنا في عالم البرزخ.

وبما أنّ لفظ 'فَأَحْيَاكُمْ' جاء مباشرة بعد العبارة 'وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا'، فهو يؤكد أنه لم نُخلق خلقا ابتداء مثل آدم، بل أحدث الله فينا عملية الإحياء، أي أعاد الله الأرواح إلى الأجسام (فيها حيات بيولوجيا) بعدما كانت في عالم البرزخ. إذن، العبارة 'وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا' يجب أن تأخذ التأويل الثاني، فتتضمن إماتة أخرى التي يجب حسب البديهية العقلية أن تكون قد سبقتها حياة.

ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا: هل كانت هذه الحياة الابتدائية التي أبصرتها وبيّنت حقيقة وجودها أزلية، كما ستكون الحياة في الآخرة أبدية، أم أنها كانت ذات بداية محددة؟

لقد برهنت في الفصل الأول، من خلال التمعن في صيغة الآيتين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿71﴾﴾ [ص] و ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾﴾ [الحجر]، أنّه كان هناك بشر يعيشون في الأرض قبل خلق آدم لم يخلقهم الله لا من طين ولا من صلصال. إذن، آدم، المشار إليه في القرآن بلفظ 'نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ'، هو البشر الأول الذي خلقه الله من طين خلقا ابتدائيا ولم يكن إحياء. أما حواء، فهي أيضا أول بشرية خُلقت من صلصال كالفخار، أي من نطفة آدم، كما بيّنت ذلك في الفصل الثالث.

ومن خلال الآية ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴿6﴾﴾ [الزمر]، نستنتج أنّ الله خلقنا جميعا من آدم (نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) أحياء في هيئات الله يعلمها، وهذا ليس إحياء، بل خلق ابتدائي جديد، ويعتبر يوم خلْقِنا هذا بمثابة بداية الحياة الابتدائية. مما ينفي عنها صفة الأزلية، ويُجيب بذلك عن السؤال المطروح سابقا. وبعد هذا اليوم بمدة زمنية الله أعلم

بها، أماتنا الله فأصبحنا في عالم البرزخ، ثم أحيانا في الأولى عن طريق آدم وحواء والتناسل المعروف، أي بإعادة أرواحنا التي كانت في البرزخ ونفخها في أرحام أمهاتنا، ثم يميتنا في الأولى عن طريق الموت المعروف فنرجع إلى عالم البرزخ ثانية، ثم يحيينا في الآخرة عن طريق البعث.

وبناء على ذلك، أستنبط أنّ رحلة الإنسان تتضمن ثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الابتدائية: فيها خلْق ابتدائي جديد، ثم حياة ابتدائية، ثم إماتة ابتدائية.

المرحلة الأولى: فيها الإحياء الأول، ثم حياة الأولى، ثم الإماتة الأولى.

المرحلة الأخيرة: فيها الإحياء الأخير، ثم الخلود.

وفيما يلي تفصيل كل مرحلة على حدة:

المرحلة الابتدائية

المرحلة الابتدائية بدأت من العدم، وفيها خلقَنا الله ولم نكن شيئا، وهذا جاء في الآية ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿9﴾﴾ [مريم]، وفي ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا، ﴿67﴾﴾ [مريم]. وهذه المرحلة تعتبر تحضيرا للمرحلة القادمة، وتكمن في خلق الإنسان الذكر (آدم) والإنسان الأنثى (حواء) وجميع أرواح الخلائق، فهي تشمل مراحل كثيرة خاصة بها، وهي:

1- خلْق التراب، أي الأرض، من العدم ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿54﴾﴾ [الأعراف].

2- تحضير وتهيئة الأرض بخلق كل ما فيها للإنسان ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿29﴾﴾ [البقرة].

3- أخْذ التراب من الأرض لخلق الإنسان، لأننا منها خُلقنا ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿55﴾﴾ [طه]، وهذا جاء أيضا في الحديث (عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللَّهَ تعالى خلقَ آدمَ من قبضةٍ قبضَها من جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدمَ على قدرِ الأرضِ فجاءَ منْهمُ الأحمرُ

والأبيضُ والأسودُ وبينَ ذلِكَ والسَّهلُ، والحزنُ، والخبيثُ والطَّيِّبُ" صحيح الترمذي 2955).

4- خلْق آدم من الطين (التراب والماء) رجلا عاقلا دفعة واحدة ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿7﴾﴾ [السجدة]، هذا الخلق تطرقت إليه بإسهاب في الفصل الثالث.

5- خلْق وتصوير في صلب آدم جميع 'الناس' ما عدا حواء. أبدأ تأكيد وجود هذه المرحلة بتفسير الآية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿1﴾﴾ [النساء]. بما أنّ النفس تشير إلى الإنسان العاقل والمخيّر ولا يمكن أن تكون خلية أو حيوانا، كما بينت ذلك في الفصل السابق، فإنّ النفس الواحدة في هذه الآية تشير إلى آدم. فهذه الآية تتحدث عن الخلق الابتدائي، حيث تُخبرنا أننا خُلقنا جميعا من آدم يوم خلقه الله، وتؤكد أنّ حواء خُلقت أيضا من آدم، فآدم هو أول من خُلق، وهذا الترتيب في ذكر الخلق يمكن أن يدل على أننا خُلقنا قبل أن تُخلق حواء. فهذه الآية لا تشير إلى أننا خُلقنا عن طريق الزوج آدم وحواء، لأنّ الله لم يقل 'بثّكم منهما'، فالآية لا تأخذ مدلول العبارة 'خَلَقَ مِّن نَّفْسٍ زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً' ولا العبارة 'خَلَقَ مِّن نَّفْسٍ زَوْجَهَا وَبَثَّكم منهما'. وأدعم تفسيري هذا بالآية ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿6﴾﴾ [الزمر] التي جاء فيها الحرف 'ثم' الذي يفيد الترتيب، والتي تُثبت لنا مرة أخرى أننا فعلا خُلقنا ابتداء من آدم قبل أن تُخلق حواء أو على الأقل قبل أن يجعلها الله زوجة لآدم. وأما الآية ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿189﴾﴾ [الأعراف] التي حافظت على الترتيب دون التشديد عليه، توضح لنا أنّ سبب جعل حواء من آدم هو السكون إليها،

كما بيّنت ذلك في الفصل الثالث. وأما الذين يقولون أنّ ورود لفظ 'لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا' يوحي بأنّ لفظ 'زَوْجَهَا' يعني آدم ولفظ 'نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ' تعني حواء، فأقول: هذا لا يصح لأنّ الله عز وجل قد عرّف لنا دلالة لفظ 'زوج' في أوائل نفس الصورة وتحديدا في الآية 19 التي توضّح أنه يشير إلى زوجة أو امرأة آدم ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿19﴾﴾ [الأعراف]. إذن، سياق الآيات التي تأتي بعد هذه الآية يجب أن تُؤَوَّل على هذا الأساس، فأقول أنّ الآية 189 من نفس السورة تشير إلى أنّ الله خلقنا من نفس واحدة، وهي آدم، وخلق من آدم زوجها، وهي حواء، ليسكن إليها. ونجد أنّ حواء لم تُذكر قط في القرآن بهذا الاسم بل يشار إليها دائما بلفظ زوج. ومن الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿11﴾﴾ [الأعراف]، نستنتج أنّ الله خلقنا وصورنا جميعا في صلب آدم قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وهذه الآية تؤيد تفسيري للآيات السابقة. فجميع 'الناس' خُلقوا من الطين يوم خلق الله آدم من الطين ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿2﴾﴾ [الأنعام]، وخُلقوا جميعا من التراب يوم خلق الله آدم من التراب، وهذا جاء في ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿37﴾﴾ [الكهف]، وفي ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿5﴾﴾ [الحج]، وفي ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿20﴾﴾ [الروم].

6- تعليم آدم الأسماء كلها وجميع 'الناس' أحياء في صلبه ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿31﴾﴾ [البقرة].

7- سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس عن السجود وجميع 'الناس' أحياء في صلب آدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿51﴾﴾ [الكهف].

8- خلق حواء من نطفة آدم صبية في المهد، كما بينته في الفصل الثالث.

9- سجود الملائكة لحواء وامتناع إبليس عن السجود، كما بينته في الفصل الثالث.

10-إسكان آدم وحواء في الجنّة وجميع 'الناس' أحياء في صلب آدم. هذا الإسكان ورد في ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿35﴾﴾ [البقرة]، وفي ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿19﴾﴾ [الأعراف].

11-أكل آدم وحواء من الشجرة وجميع 'الناس' أحياء في صلب آدم. هذا الأكل ورد في ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿121﴾﴾ [طه]، وفي ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿22﴾﴾ [الأعراف].

12-هبوط آدم وحواء من الجنّة إلى الأرض وجميع 'الناس' أحياء في صلب آدم. هذا الهبوط ورد في ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿36﴾﴾ [البقرة]، وفي ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿38﴾﴾ [البقرة]، وفي ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿24﴾﴾ [الأعراف]، وفي ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿123﴾﴾ [طه]. نلاحظ من الآيات السابقة التي تتحدث عن الإسكان في الجنّة والأكل من الشجرة أنّ الخطاب كان كله بالمثنّى لأنّ الأكل من الجنّة وعدم الاقتراب من الشجرة والأكل منها وما ترتب على ذلك من أفعال وأمور

كلها تخص حصرا آدم وحواء المكلّفين، ف'الناس' الأحياء في صلب آدم غير مكلّفين وغير معنيين بالخطاب إطلاقا. وأما الخطاب الذي يتعلق بالهبوط من الجنّة إلى الأرض فجاء كله بالجمع، لأنّ آدم وحواء وجميع 'الناس' في صلب آدم كلهم معنيين بهذا الهبوط والاستقرار في الأرض واتباع هدى الله الذي يأتي به الأنبياء والرسل، ولعلى العبارة 'قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا' التي وردت في مسألة الهبوط دليل على أنّ الخطاب كان موجها مباشرة إلى آدم وحواء الظاهرين وضمنيا إلى جميع 'الناس' الأحياء في صلب آدم. والعداوة التي تنشأ بين هؤلاء بعد الاستقرار في الأرض حقيقة لا مفر منها، فهي تنشأ أساسا بين الكفار والمؤمنين، كما قد تنشأ بين طوائف من نفس العقيدة. قال بعض المفسرين في قضية الهبوط أنّ الخطاب جاء بالجمع ليشمل إبليس أو الشيطان، فأقول: هذا التفسير يجب أن يكون غير صائب لأنّ الخطاب 'فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ' أو 'فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ' لا يكون إلاّ للناس جميعا، فلا يجب أن يشمل الشيطان لأنه لا يُؤتى الهداية ولا يُنتظر منه إتباع الهدى. فلو لم يكن الناس جميعا أحياء في صلب آدم، لكان الخطاب موجها لآدم وحواء فقط، ولجاءت الآية بالمثنى، مثل العبارة 'فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمَا'.

13- مسح ظهر آدم وإخراج جميع 'الناس' وأخذ منهم الميثاق، وهذا جاء في الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝172۝﴾ [الأعراف] التي تُفسّر بالحديث (عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ مِن ظهرِ آدمَ بِ (نعمانَ) يومَ عرفةَ، وأخرجَ من صُلبِه كلَّ ذريةٍ ذراها فنثرَهمْ بينَ يديهِ كالذَّرِّ، ثمَّ كلَّمَهُم قَبَلًا قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى" الألباني صحيح الجامع 1701) الذي يدعمه الحديث (عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "يقولُ اللَّهُ تَعالَى لأَهْوَنِ أهْلِ النَّارِ عَذابًا يومَ القِيامَةِ: لو أنَّ لكَ ما في الأرْضِ مِن شيءٍ أكُنْتَ تَفْتَدِي بهِ؟ فيَقولُ: نَعَمْ، فيَقولُ: أرَدْتُ مِنْكَ أهْوَنَ مِن هذا، وأَنْتَ في

صُلْبِ آدَمَ: أنْ لا تُشْرِكَ بي شيئًا، فأبَيْتَ إلَّا أنْ تُشْرِكَ بي" صحيح البخاري 6557). ويمكن أن نستنبط من هنا أنّ جبل عرفة أو عرفات (نعمان) سُمي بهذا الاسم لأن الناس جميعا عرفوا ربهم فيه يوم عرفة حين أخرجهم الله جميعا من صلب آدم وشهدوا على ذلك. وربما لهذا السبب ولقداسة هذا المكان وهذا اليوم ورد في السُّنّة الصحيحة أنّ الحج عرفة أو عرفات.

14-إعادة وإماتة جميع 'الناس' في صلب آدم ونقل أرواحهم إلى عالم البرزخ (أو عالم الأرواح)، وما بقي حيا على الأرض من الإنس سوى آدم وحواء، فالذكر والأنثى العاقلان المكلّفان وجميع أرواح الخلائق ما هم إلاّ النتيجة المقصودة من المرحلة الابتدائية. وهذه الإماتة تعتبر إماتة ابتدائية لم يحس بها 'الإنسان' ولم يذقها، لأنه كان نسمة أو ذرة فقط، فهو لم يمارس الحياة أصلا، فالذي لم يذق الحياة لا يمكنه أن يذوق الموت.

المرحلة الأولى

هذه المرحلة تخص الحياة الدنيا التي تسمى الأولى ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿70﴾﴾ [القصص]، ويحدث فيها الإحياء الأول لجميع الخلائق بعدما تعرضوا للإماتة الابتدائية في المرحلة الابتدائية. وهذا الإحياء يتم عن طريق النطفة، كما جاء في ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿4﴾﴾ [النحل] وفي ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿6﴾﴾ [الطارق]، حيث يخبرنا الله أننا خُلقنا من نطفة (الماء الدافق من الإنسان)، ثم يسألنا إن كنا قد تفكرنا في هذا الخلق، ويقول ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿77﴾﴾ [يس]، ويقول ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿20﴾﴾ [المرسلات]، ويقول ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿57﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿58﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿59﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿60﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿61﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿62﴾﴾ [الواقعة]. وهذه الآية الأخيرة تشير إلى النشأة الأولى (الإحياء الأول) التي تحدث في الأولى بالخلق من المني (النطفة) وعن طريق التناسل ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ

نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿54﴾﴾ [الفرقان] ثم التصوير في الأرحام ﴿﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿6﴾﴾ [آل عمران]. وهذا الخلق من النطفة أو الماء الذي هو أساس التناسل يشمل جميع الدواب التي تدب في الأرض ﴿﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿45﴾﴾ [النور].

إذن، في هذه المرحلة يتم إحياء جميع الخلائق عن طريق التناسل بزواج الذكر بالأنثى والإتيان بالأرواح من البرزخ ونفخها في أرحام النساء الحوامل، وكان آدم وحواء أول من تزوج من الإنس وأنجبا رجالا كثيرا ونساء. وقد ورد في السُّنة أحاديث صحيحة عن هذا النفخ، ومنها الحديث (عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – وهو الصَّادِقُ المِصْدُوقُ– قالَ: "إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فيُؤْمَرُ بأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، ويُقَالُ له: اكْتُبْ عَمَلَهُ، ورِزْقَهُ، وأَجَلَهُ، وشَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ، ..." صحيح البخاري 3208).

وبعد انقضاء الأجل ﴿﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿11﴾﴾ [المنافقون] تأتي الإماتة الأولى التي تحدث في الأولى والتي يتم فيها نزع الروح (النفس) من الجسم وأخذه ثانية إلى البرزخ ﴿﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿42﴾﴾ [الزمر]، وهذا النزع أو المسك يذوقه الإنسان لأنه قد ذاق الحياة من قبل، وهذه الإماتة الأولى تُنتج الموت المعروف ﴿﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿57﴾﴾ [العنكبوت] وتسمى الموتة الأولى ﴿﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿56﴾﴾ [الدخان] التي لا يؤمن المشركون والكفار في الدنيا بالإحياء أو البعث بعدها ﴿﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿35﴾﴾ [الدخان]، وسُميت بالموتة الأولى لأنها لا تحدث إلاّ في الأولى، أي في الدنيا. فالأولى تبدأ بالنشأة الأولى وتستمر الحياة فيها حتى تنتهي

بالموتة الأولى.

أعود الآن إلى تفسير الآية ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝2﴾ [الأنعام]، التي أرى أنها تخص المرحلتين الابتدائية والأولى، والتي استشكلت على جميع المفسرين، حيث ذهبوا إلى أنّ معناها يشير إلى أنّ أصل الإنسان من الطين، في إشارة إلى خلق آدم عليه السلام. غير أنّ هذا التفسير لا يُجيب عن تساؤل جوهري : كيف خُلقنا نحن من الطين؟ ولماذا جاء استخدام حرف الترتيب 'ثم' في هذه الآية؟

أما أقوالهم حول الأجلين، فهي متباينة ومتناقضة، مما يجعل من الصعب الاعتماد عليها دون تأسيس متين، فلا فائدة لسردها أو مناقشتها هنا. وانطلاقا مما ذهبتُ إليه سابقا في مسألة رحلة الإنسان، أقول –والله أعلم– إنّ الله خلقنا جميعا من الطين يوم خُلق آدم عليه السلام، ثم قدّر لكل إنسان أجله الذي سيخرج فيه إلى الدنيا، كما كتب عنده الأجل الذي سيفارقها فيه.

فالمدة الزمنية للأجل الأول تمتد منذ خلق آدم عليه السلام إلى اللحظة التي ينفخ فيها المَلَك الروح في رحم الأم، بينما تبدأ مدة الأجل الثاني المسمى عند الله، الذي يكتبه الملك عند نفخ الروح، من لحظة النفخ إلى حين قَبْض ملَك الموت للروح .وهذا الأجل الأخير لا يعلمه الإنسان، في حين أنّ الأجل الأول يمكن للإنسان معرفته من خلال تاريخ ولادته، وقد يدرك مدته أيضا إذا علم متى خلق الله آدم، وهو أمر كان الأجيال الأولى من أبناء آدم أقرب إلى معرفته.

منذ أن خلق الله الإنسان في صلب آدم، وهو يتطلع بشغف إلى لحظة خروجه إلى هذه الدنيا للقيام بمهمته في الخلافة، لكنه قد لا يكون على علم بهذه اللحظة. ومنذ أن أحياه الله في بطن أمه، وهو يترقب بوجل لحظة خروجه من هذه الدنيا للحساب، لكنه قطعا لا يعلم بهذه اللحظة. لذا، فإنّ الأجلين الوحيدين اللّذيْن يهمان الإنسان ويتفاوتان بين الأفراد هما: لحظة المجيء إلى الدنيا، وهي محبوبة ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝16﴾ [الأعلى]، ولحظة الرجوع منها، وهي مكروهة ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿8﴾﴾ [الجمعة].

المرحلة الأخيرة

هذه المرحلة تخص ما يسمى بالآخرة ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿4﴾﴾ [الضحى]، ويحدث فيها الإحياء الأخير لجميع الخلائق بعدما تعرضوا للإماتة الأولى في الأولى. والآخرة لم تسم بالثانية حتى لا يكون هناك تطلع لحياة ثالثة أو مراحل دورية، لأنّ الحياة فيها أبدية فلا موت فيها ولا رجوع إلى الأولى. وهذا الإحياء يتم عن طريق النفخ في الصور، كما جاء في ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿51﴾﴾ [يس]، وقد سماه الله النشأة الآخرة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿20﴾﴾ [العنكبوت] أو النشأة الأخرى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿44﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿45﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿46﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿47﴾﴾ [النجم] التي لا نشأة أخرى للإنسان بعدها. فالآخرة تبدأ بالنشأة الآخرة وتكون الحياة فيها بعد ذلك أبدية إما في الجنّة أو في النار، وهذا جاء في ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿7﴾﴾ [الشورى]، وفي ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿9﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿10﴾﴾ [التغابن].

وبعض تفاصيل هذه النّشأة الآخرة جاءت في الحديثين الصحيحين (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أرْبَعُونَ، قالَ: أرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قالَ :أبَيْتُ، قالَ: أرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قالَ: أبَيْتُ، قالَ: أرْبَعُونَ سَنَةً؟ قالَ: أبَيْتُ، قالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيَنْبُتُونَ كما يَنْبُتُ البَقْلُ، ليسَ مِنَ الإنْسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَومَ القِيامَةِ." صحيح البخاري 4935)، و (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرابُ، إلَّا عَجْبَ

الذَّنَبِ، منه خُلِقَ وفيهِ يُرَكَّبُ" صحيح مسلم 2955). ففي هذا العظم جزء دقيق جدا يمثل 'صورة' صاحبه التي يُخلق منها هذا الإنسان ويُبعث عن طريق النفخة الثانية في الصُّورِ (أو الصُّوَرِ كما في قراءة ليست مشهورة)، وذلك بعودة روحه من البرزخ ودخولها في هذه 'الصورة'. وهذا الجزء لا يتأثر بالعوامل الطبيعية ولا بالنار مهما كانت درجة حرارتها، (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ في الإنْسانِ عَظْمًا لا تَأْكُلُهُ الأرْضُ أبَدًا، فيه يُرَكَّبُ يَومَ القِيامَةِ قالُوا أيُّ عَظْمٍ هُوَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ :عَجْبُ الذَّنَبِ " صحيح مسلم 2955).

وهذان الحديثان يتوافقان كليا مع القرآن الذي يشير بوضوح إلى إحياء العظام البالية المتفتتة بعد موت الإنسان ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿78﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿79﴾﴾ [يس]، وإلى نشزها وكسوها باللحم ﴿... وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿259﴾﴾ [البقرة].

تفسير 'أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ'

في المرحلة الابتدائية، وهي من الغيب بالنسبة لنا خلق الله ابتداء صور (أمثال أو هيئات) الناس جميعا دفعة واحدة من الطين في صلب آدم، ثم نفخ فيها الأرواح. أما في المرحلة الأولى، وهي معلومة لنا، فيخلق الله صور الناس بالتعاقب من النطاف التي تخرج من عظام الإنسان، ثم يعيد الأرواح فيها بالنفخ. وفي المرحلة الأخيرة، التي تُعد أيضا من الغيب، يُنبت الله صور الناس جميعا دفعة واحدة من العظام البالية في الأرض، ثم يعيد الأرواح فيها بالنفخ.

وميزة الإيجاد دفعة واحدة في الخلق الابتدائي والبعث الأخير لجميع الناس تشبه خلق وبعث إنسان واحد، كما في قوله تعالى ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿28﴾﴾ [لقمان]. ويبيّن تفسيري هذا أنّ هذه الآية تخبرنا عن الغيبين: الخلق الابتدائي في المرحلة الابتدائية، المشار إليه بلفظ 'خَلْقُكُمْ'، والبعث في المرحلة الأخيرة، المشار إليه بلفظ 'بَعْثُكُمْ'.

وعليه، لا يمكن أن يشير لفظ 'خَلْقُكُمْ' إلى خلق الناس في الدنيا (الأولى)، كما ذهب إليه المفسرون، لأنّ خلق الناس بالتعاقب معلوم، وهو في الواقع يتم بخلق نفس واحدة في كل مرة، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿62﴾﴾ [القمان]. ولو سلّمنا بتفسيرهم، لأصبحت عبارة 'مَّا خَلْقُكُمْ ... إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ' بلا قيمة إضافية ولا تخبرنا بشيء عن صعوبة الخلق أو سهولته، ولكَفَتِ الآية بالصيغة 'مَّا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ'.

إذا عجزت عقولنا عن إدراك تفاصيل الخلق الابتدائي وفهم حقيقة البعث وسهولته على الخالق، فقد وجّهنا الله إلى السير في الأرض والنظر في آياته المشهودة، كما جاء في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿19﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿20﴾﴾ [العنكبوت].

حيث إذا سرنا في الأرض ونظرنا إلى الكيفية التي يبدأ الله بها الخلق باستمرار، نجد أنه يبدأه بالبذرة، فالأرض لا تُنبت إلاّ بالبذور (أو بقايا النبات)، كما أنّ الأرحام لا تلد إلاّ بالنطاف. فالنباتات تُرى رأي العين وهي تُعاد وتُنشر بكل سهولة دفعة واحدة، إما من بذورها المتناثرة أو من بعض أجزائها الميتة، بمجرد توافر الشروط الضرورية لذلك.

فإذا أدرك العقل المتدبر هذه الظاهرة، واستوعبها القلب المتبصر، فلا شك أنّ ذلك سيجعل التصديق بالنشأة الآخرة، أو الإعادة، أو البعث، أو النشور، أو الخروج، أمرا أكثر وضوحا ويسرا. إذ كما تعود الحياة إلى النباتات بسهولة، فإنّ الناس سيُنشرون يوم القيامة دفعة واحدة من خلال صورهم (بذورهم) الكامنة في رفاتهم، عندما يهيّئ الله الشروط اللازمة لذلك، تماما كما تحيا الأرض بعد موتها.

وقد ورد هذا الربط بين بديهية إحياء الأرض في الدنيا وحقيقة إحياء البشر يوم القيامة في عدة مواضع من القرآن الكريم، ومنها قول الله تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿19﴾﴾ [الروم]، وقوله ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿11﴾﴾ [الزخرف]، قوله ﴿وَاللَّهُ الَّذِي

أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿9﴾﴾ [فاطر].

فالإنسان يبدأ الله خلقه من البذور الموجودة في الأصلاب، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿57﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿58﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿59﴾﴾ [الواقعة]، ويعيده يوم القيامة من بذرته الموجودة في عظامه البالية.

وحتى لا ننسى، فإنّ ما يميز الإنسان تماما عن الكائنات الحية الأخرى هو الروح التي نفخها الله فيه. وهذا النفخ هو الذي جعل الإنسان عبارة عن زوج من جسم مادي وآخر غير مادي. يُلازم هذا الجسم غير المادي الجسم المادي في الأولى، ثم يفارقه عند الموتة الأولى، ليمثل الإنسان في البرزخ ثم في الآخرة.

وقد اختلفت الآراء حول تسمية هذا الجسم غير المادي، فمنهم من قال إنه الروح، ومنهم من نسبه إلى النفس، ومنهم من خلط بينهما. وأنا أميل إلى الخلط حسب السياق. والحقيقة أنه لا أحد يستطيع الجزم بأنه يملك الفهم المطلق لهذه المسألة، فمن ادّعى أنه فهم الروح تلعثم في فهم النفس، أو العكس. لكن الأهم، في اعتقادي، هو الإيمان بأنّ الإنسان يتكون من هذا الزوج (الجسم المادي والجسم غير المادي).

أما من ينكر وجود هذا الجسم غير المادي أو يختزله في المعرفة والتشريع، كما يفعل بعض المفكرين المعاصرين الذين يعصرون القرآن عصرا ويخنقونه خنقا، ويستهزئون بتراث الأمة وعلمائها، فأقول لهم: إذا كان نفخ الروح في آدم مجرد منحٍ للمعرفة والتشريع، فهل يكون النفخ الثاني في الصُّور (الصُّوَر) يوم القيامة كذلك مجرد سكب للمعرفة والتشريع حتى نتمكن من إنشاء في الآخرة مجتمع متقدم علميا وتشريعيا واقتصاديا وحضاريا وتكنولوجيا وعسكريا؟

أما الذين يزعمون، من هؤلاء وغيرهم، أنّ الإنسان مجرد طفرة بيولوجية حدثت لخلية أو كائن حي، فأقول لهم: هل يثبت علمكم أنّ الطفرات التي تطرأ على الأجسام المادية البحتة يمكن أن تُنتج أجساما غير مادية؟ فكيف إذن لشجرة واحدة أن تُثمر الإنسان، إلى جانب الكائنات البيولوجية المادية البحتة؟ أم أنكم تنكرون أصلا وجود هذا الجسم غير المادي؟ لهذا

أقول دائما: إنّ الاعتقاد بهذه الشجرة المزعومة، التي لا أصل لها، يؤدي بصاحبه إلى الضلال، بل قد يكون سببا في خلوده في قعر جهنم. فاحذر، أيها المسلم، من هؤلاء، فإنهم يسعون إلى زعزعة إيمانك والتمكن منك، حتى يُقنعوك في النهاية بعدم وجود هذا الجسم غير المادي، وما يترتب عنه من برزخ وآخرة وحساب وعقاب.

فكن على يقين، أيها المسلم، أنّ الإنسان مادة وروح، فهو زوج من بذرة مادية وبذرة روحية. فالله يبدأ خلق الإنسان في الأولى بالبذرة المادية الموجودة في الأصلاب، ثم يأتي ببذرة هذا الإنسان الروحية الموجودة في البرزخ، والتي نتجت عن الموتة الابتدائية، كما فصلت ذلك سابقا. ويعيد الله الإنسان في الآخرة من بذرته المادية الموجودة في رفاة عظامه البالية، ثم يأتي ببذرته الروحية الموجودة في البرزخ، والتي نتجت عن الموتة الأولى المعروفة.

وأرى –والله أعلم– أنّ البذرة الروحية كانت في أصلها فطرية ومثالية في الحياة الابتدائية، لكنها حين تدخل في الجسم المادي عند الإحياء الأول، تنمو في صورة نفس قد تزكو أو تُدس. وبعد الإحياء الأخير، تُحاسب هذه النفس التي عرّفتها في الفصل الرابع، فمن زكاها فمصيره الجنّة، ومن دساها فمآله إلى النار.

وأخيرا، بعد استدلالي بأدلة من مقروء القرآن والسُّنّة، ومشهود الأرض والإنسان، ومعقول المنطق والعقل، أتمنى أن أكون قد وُفقت في تفسير العبارة 'كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ' التي وردت في الآية ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿19﴾﴾ [العنكبوت] بصيغة المضارع وتكررت كثيرا في القرآن بنفس الصيغة. ويبقى الآن تفسير العبارة 'كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ' التي جاءت في الآية ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿20﴾﴾ [العنكبوت] بصيغة الماضي.

إنّ معرفة التخليق الابتدائي، سواء كان متعلقا بالإنسان أو الحيوان أو النبات، تُعدّ أصعب من فهم أي إحياءٍ بعد موتٍ، لأنّ التخليق الابتدائي يتضمن خلق الصورة أو البذرة أو المخلوق من العدم أو من الجماد. وتزداد تعقيداته في حالة الإنسان، لأنه يتضمن أيضا خلق البذرة الروحية. ومع ذلك، يمكن إدراك بعض تفاصيل هذا التخليق الابتدائي رغم كونه من

الغيب، خاصة في حالة الحيوان أو النبات، من خلال السير في الأرض والتأمل في آيات الله المشهودة.

أما في حالة الإنسان، فقد لا نحتاج إلى هذا السير والنظر في الموضوع أساسا، لأنّ الله أخبرنا في القرآن عن البذرة المادية (الطين) والبذرة الروحية (الروح) اللتين استُخدمتا في التخليق الابتدائي للإنسان، وأكد أنه بدأ خلقه من طين، كما جاء في قوله تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿7﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿8﴾﴾ [السجدة]. كما أخبرنا أيضا أنّ كيفية التخليق كانت بيدي الله، وهذا الإخبار يحمل إشارات عدة مهمة، كما وضحت ذلك بإسهاب في الفصل الثالث. وعليه، أرى أن الغاية من الأمر الإلهي، 'قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ'، هي الربط بين عملية إحياء النباتات المشهودة والحقيقة الغيبية في قوله تعالى 'ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ'، وهو أمر يخص فقط الذين لم يدركوا مراد قوله تعالى 'أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ'، الذي وضحته سابقا.

أقول على سبيل التشبيه: إنّ الإنسان خُلق ابتداء بذرة، ثم عاش أولا شجرة، ثم يُبعَث أو يُخرَج أخيرا ثمرة. وهذا الإخراج على شكل ثمرة ورد في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿57﴾﴾ [الأعراف]. فحياة الإنسان في المرحلة الابتدائية تشبه حياة البذرة، وفي المرحلة الأولى تشبه حياة الشجرة، وفي المرحلة الأخيرة تشبه حياة الثمرة.

فاحرص، أيها الإنسان، على أن تكون شجرة مباركة تُؤتي أُكُلَها الطيب كل حين، واجتهد في انتقاء بذور أصيلة صالحة، وغرسها في تربة نقية، وسقيها بماء غدق، وصنعها على عينيك، حتى تُنتج أشجارا أصولها ثابتة وفروعها في السماء وثمارها تُنَزَّل نُزلا كراما في الفردوس الأعلى. واحذر أن تكون أنت أو أحد أبنائك كشجرة الزّقّوم، أصلها في الجحيم، وطلعها كأنه رؤوس الشياطين.

وهذا التشبيه ينطبق على مختلف جوانب الحياة، فنجد أنّ العمل، مثلا، يبدأ ببذرة النيّة

المقصودة (الفكرة)، ثم يتجسد على شكل شجرة من أسباب متنامية ومتشعبة، ثم يُتوج في النهاية بثمرة النتيجة المنشودة.

فإن أردتَ، أيها الإنسان، أن تقطف ثمارا يانعة نضرة، تُشرق بنضجها تحت ضياء العقل، وتتفجر عذوبة في جنان الوجود، فاستعمل عقلك السليم، ذاك النور الذي وهبك إياه الخالق، فامتشقه سيفا يبدد ظلام الجهل، وازرع في أرض عقلك بذور الأفكار النقيّة، واسقها بمياه التأمل العميق، وانثر عليها سماد الحكمة والتجربة، حتى تزهر رؤًى سامقة، يفوح أريجها في حدائق المعرفة، فتتفتح لها دروب الإبداع وتتجلى بها أنوار الفهم.

شيد لأفكارك بنيانا متينا، كصرح شامخ، تتفيأ ظلاله الأجيال، وكشجرة باسقة، تضرب بجذورها في أعماق الأرض، وتعانق أغصانها عنان السماء، تجود بثمارها لمن اجتهد في قطافها، وتمنح ظلها لمن احتمى بفيئها. وأتقن أعمالك باتخاذ أسباب قيّمة، تُصاغ من عرق الجبين وصدق النيّة، حتى تكون كالنجم الهادي في ليل الإنجاز، تُضيء دروبا لم تُسلك من قبل، وتحفر اسمك في سجلّ الخلود، حيث لا يضيع أثر الساعين ولا تُمحى بصمات العظماء.

حقيقة رحلتيْ المجيء والرجوع

بعد استنباط تفاصيل رحلة الإنسان من القرآن والسُّنّة، يتضح أنه هناك ثلاثة عوالم فقط للإنسان، عالم الأولى وعالم الآخرة وعالم البرزخ، وأنّ الانتقال بين هذه العوالم يشير إلى أنّ هذه الرحلة يمكن تقسيمها أيضا إلى رحلة المجيء من عالم الآخرة إلى عالم الأولى للاستقرار فيه إلى حين، ورحلة الرجوع في الاتجاه المعاكس بعد انقضاء الأجل من عالم الأولى إلى عالم الآخرة للاستقرار الأبدي فيه. فرحلة المجيء بدأت في عالم الآخرة، وتحديدا في المكان الذي خلق الله فيه آدم والناس جميعا وزوجته حواء، ثم استمرت بانتقال (هبوط) الجميع إلى عالم الأولى، ثم حدثت فيه الإماتة الابتدائية لجميع الناس وانتقال أرواحهم إلى عالم البرزخ، ثم تنتهي بالإحياء الأول (مجيء الأرواح من عالم البرزخ إلى الأجساد) للاستقرار في عالم الأولى إلى حين. هذه الإماتة لم تحدث لآدم وحواء. وأما رحلة الرجوع فهي تبدأ بالموتة الأولى (خروج الأرواح من الأجساد وانتقالها إلى عالم البرزخ) بعد انقضاء الأجل في عالم الأولى، ثم تمر بالإحياء الأخير

(مجيء الأرواح من عالم البرزخ إلى الأجساد) يوم القيامة في عالم الآخرة، ثم تنتهي بالاستقرار الأبدي في عالم الآخرة.

وهذا الرحيل من عالم الأولى باتجاه عالم الآخرة عبر عالم البرزخ سمّاه الله أيضا الرجوع في مواضع كثيرة في القرآن، ومنها ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿64﴾﴾ [النور]، و ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿93﴾﴾ [الأنبياء]. وقد يقول قائل: كيف نرجع إلى الله ونحن عنده في قبضته في كل لحظة من لحظات حياتنا ومماتنا في الأولى وفي الآخرة وفي البرزخ؟ إنّ هذا الاستفهام نابع من عقيدة المسلم السليمة التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند الإجابة على هذا التساؤل، فأقول إنّ الرجوع في هذا السياق يشير إلى أنّ الإنسان كان أصلا في عالم الآخرة فسافر (فجاء) منه باتجاه عالم الأولى عبر عالم البرزخ، ثم يرجع إليه بعد أجل مسمى عبر نفس البرزخ، وهذا بالضبط ما ذهبت إليه في تفصيل رحلتي المجيء والرجوع.

وهذا البرزخ ذُكر في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿99﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿100﴾﴾ [المؤمنون]، حيث قال أغلب المفسرين أنّ عبارة 'وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ' تعني: ومن أمامهم برزخ يحجز بينهم وبين العودة إلى الدنيا. إنّ هذا التفسير حقا غريب، حيث من جهة: كيف تُفسَّر كلمة وراء بنقيضها أمام؟ ومن جهة أخرى: كيف يكون البرزخ وراء أو أمام الميت؟ وإجابة لهذين السؤالين أقول أنّ الآيتين تتحدثان في شطرين عن أمرين منفصلين، فالشطر الأول يتحدث عن الميت واستحالة تحقيق طلبه بالعودة إلى الأولى، وأما الشطر الثاني فهو يُخبر أحياء الأولى أنهم سيجدون عند رجوعهم إلى الآخرة برزخا يبقون فيه إلى يوم البعث، فالميت يكون بالضبط في البرزخ لا أمامه ولا وراءه، وأما الحي في الأولى يكون البرزخ من وراءه. فالآيتان لا تشيران إلى أنّ الأحياء الذين يتحدث عنهم الله ذاهبون إلى الآخرة فيجدون البرزخ أمامهم، فيفرض الواقع تفسير كلمة وراء بأمام، فلو كان كذلك لجاءت الآية مباشرة بعبارة 'وَمِن أَمَامِهِم بَرْزَخٌ'، ولكن عدم مجيء العبارة بهذه الصيغة جعل الآيتين تشيران إلى أنّهم راجعون إلى الآخرة

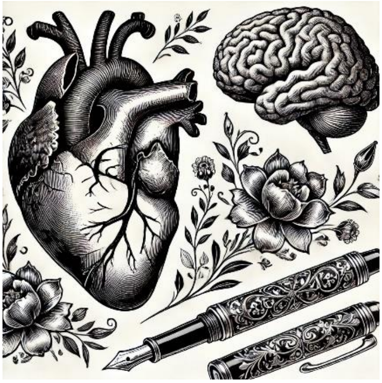
كالسير إلى الخلف فيكون البرزخ خلفهم، ويأخذ لفظ وراء معناه المضبوط دون تكلّف ولا زيغ. فتعبير الله الدقيق 'وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ' دليل آخر على صحة مدلول الرجوع الذي ذهبت إليه والذي يعكس رحلة المجيء التي فصلتها بدقة.

وهذا المدلول يصلح أيضا في قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝15۝ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝16۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝17۝﴾ [إبراهيم]، وفي ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝10۝﴾ [الجاثية]، وفي ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝125۝﴾ [الأعراف]، وفي ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۝87۝﴾ [الكهف]. فباستعمال مبدأ الرجوع (وليس الذهاب) من الأولى إلى الآخرة، الذي تكرر كثيرا في القرآن بصيغ مختلفة، يستقر لفظ 'وراء' على معنى خلْف في هذه الآيات، وهذا هو الصواب، وأما الانحراف الذي وقع فيه المفسرون بإجبارهم لفظ 'وراء' أن يحمل معنى أمام وهو لا يطيقه فكان سببه إهمال هذا المبدأ أو عدم إبصاره أصلا، فسووا بين الرجوع والذهاب.

وقد أصبح هذا الانحراف عند هؤلاء المفسرين وبعض اللغويين قاعدة لغوية يستعملونها كلما صادفهم لفظ 'وراء'، حتى في قوله تعالى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝79۝﴾ [الكهف] قالوا أنّ الملك كان أمامهم، ولكنني أرى أنّ خُدّام الملك كانوا يطاردون السفن في البحر كاللصوص، فكانوا خلف هذه السفينة، لا أمامها، وبهذا يستقر لفظ 'وراء' على معنى خلْف في جميع آيات القرآن.

ومبدأ الرجوع من الأولى إلى الآخرة الذي أبصرت حقيقته والذي يعكس المجيء من الآخرة إلى الأولى يمكن استعماله للتأكيد على أنّ آدم والناس جميعا وحواء لم يُخلقوا في الأرض ولم يسكنوا في بستان من بساتين الأرض ولم يهبطوا منه إلى الأرض، بل خُلقوا في الآخرة من تراب الأرض ثم سكنوا إحدى جنّات الآخرة ثم هبطوا منها إلى الأرض، وبهذا أُفنّد قول الذين يقولون أنّ جنّة آدم كانت في الأرض.

الفصل السادس: الاصطفاء والاختيار



تمهيد

في الجزء الأول الذي يشمل الفصول الخمسة الأولى لهذا الكتاب، بيّنت بحجج بالغة من القرآن والسُّنّة أنّ آدم عليه السلام هو أول بشر خُلق من طين. وأما في هذا الفصل فسأستنبط المدلول الحقيقي والدقيق للفظ 'الاصطفاء' الذي به أستطيع أن أدحض قول الذين يقولون أنّ آدم قد أُختير من بين مجموعة من البشر الطيني الذين كانوا موجودين من قبل. وكان دليلهم في ذلك قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿33﴾﴾ [آل عمران]، حيث فهموا أنّ الاصطفاء هو الاختيار، ولا يكون الاختيار إلاّ من بين مجموعة.

وهذا الفصل جعلته أيضا همزة وصل بين الجزء الأول والجزء الثاني الذي يشمل الفصول المتبقية من هذا الكتاب والتي خصصتها لاستنباط مراحل خلق الله للمسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام ومراحل خلق عيسى للطير، ولإظهار معجزات عيسى الحقيقية، ولإبطال المعجزات المغلوطة التي نُسبت له من طرف أهل التفسير والتأويل. فسأبين التشابه الكلي بين هذه المراحل ومراحل خلق آدم وذريته التي فصلتها في الجزء الأول، وسأكشف التناسق المطلق للقرآن في هذه القصص والمواضيع، وسأرفع اللبس عن كثير من الإشكالات التي وقع فيها أهل التفسير والتأويل.

فارتأيت أن أُنهي الجزء الأول بهذا الفصل الذي استنبط من خلاله التفسير الصحيح لاصطفاء آدم، وفي نفس الوقت أعرض فيه اصطفاء أهل عيسى (آل عمران وأمه مريم) كمقدمة

للجزء الثاني. ففي هذا الفصل، أتطرق بالتفصيل إلى لفظ 'الاصطفاء' الذي هو من ألفاظ القرآن، وأستنبط تعريفه الدقيق، وأُثبت استحالة إيجاد مرادف له، وأرد بالدليل على كل من زعم من أهل التأويل والمفكرين المعاصرين أنّ لفظ 'الاختيار' هو من مرادفات لفظ 'الاصطفاء'. وهذا تأكيد بأنّ ألفاظ القرآن وضعها الله بدقة مثالية، فكل لفظ لا يقبل لفظا آخر مرادفا له، بل يقبل جُملا أو فقرات أو صفحات أو كتبا للتعبير عن معناه. وبهذا يتحقق ما أشار إليه الله عز وجل في قوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞27۞﴾ [لقمان].

اصطفاء مريم عليها السلام

لقد جاء ذكر اصطفاء الله لمريم عليها السلام في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۞42۞﴾ [آل عمران].

وهذا الاصطفاء بدأ أولا باصطفاء الله لعائلتها آل عمران، الذي ورد في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞33۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞34۞﴾ [آل عمران].

ثم باستجابة الله وتقبُّله لدعاء أمها امرأة عمران أن يعيذها الله وذريتها من الشّيطان الرّجيم، الذي جاء في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 35 فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞36۞﴾ [آل عمران]. وهذه الاستجابة أكدها الحديث (قال أبو هريرة رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: "ما مِن بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِن مَسِّ الشَّيْطَانِ، غيرَ مَرْيَمَ وابْنِهَا." ثُمَّ يقولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} صحيح البخاري 343).

ثم بإنبات الله لها نباتا حسنا، واختياره لأحسن كفيل لها النبي زكريا عليه السلام، وإطعامها برزق خالص من عنده، حتى يكون لها جسم طاهر، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا

رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝37۝﴾ [آل عمران].

وقبل هذا التكفّل، نجد أنّ الله لم يجعل امرأة زكريا عاقرا بالصدفة ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝40۝﴾ [آل عمران]، بل كان هذا الجعل عن قصد كي يُهيئ لمريم كفيلا ليس له أولاد فينشغل بهم ويُقصّر في تربيته لها ويملأ بهم عينيه وقلبه فيغفل عنها، ومن البديهي أنّ هذه التهيئة جعلت مريم قرة عين زكريا فسخّر لها كل ما في قلبه من حنان وعطف وكل ما يخص الكفالة.

وما كان أيضا فوز زكريا في قرعة الأقلام عشوائيا ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝44۝﴾ [آل عمران]، بل كان أمرا إلهيا مُسطّرا 'وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا'.

ثم بعد هذه التنشئة الحسنة المقصودة أخبرها الله باصطفائه وتطهيره لها وأمرها بالتقرب إليه أكثر بالقنوت والتعبد، حيث قالت لها الملائكة ﴿... يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝42۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝43۝﴾ [آل عمران]، وهذا لتتمكن من حمل أمر الله المقضي ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝21۝﴾ [مريم] بكل مسؤولية وإخلاص وثبات، فاستجابت حق الاستجابة، وبذلك استحقت البشرى من الله، ﴿... يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝45۝﴾ [آل عمران].

فخلال هذه التنشئة الربانية المقصودة، استطاعت مريم من جانبها طوعا واختياريا أن تكون في مستوى هذه الرعاية، فأحصنت فرجها، وصدّقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين، ثم جعلها الله أما دون أن يمسسها بشر، وهكذا تميّزت على سائر نساء العالمين، حيث قال الله عز وجل في هذا الشأن ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا

وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ۝12۝﴾ [التحريم].

إذا قمنا بتحليل هذا الاصطفاء نجده لا يحمل مدلول الاختيار إطلاقا، لأنه بدأه الله قبل أن يخلق مريم، ثم استمر به أثناء خلقها وبعده، فأنشأها تنشئة خاصة صافية ومقصودة، ولم يتركها تنشأ التنشئة العامة التي تنشأ بها نساء العالمين، حتى نقول أنّ الله اختارها لأنها أفضلهن وتستحق أن تكافأ بالأمر الاستثنائي العظيم، بإنجاب عيسى عليه الصلاة والسلام. فالألفاظ الثلاثة التي جاءت في الجملة 'اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ' لا تشير إلى الاختيار لا من قريب ولا من بعيد، وإنما دلالاتها الحقيقية هي كالتالي:

(1) الاصطفاء الأول يُشير إلى التنشئة الصحيحة المقصودة التي قدمها الله إلى مريم ﴿... وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ... ۝37۝﴾ [آل عمران]، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ مريم لم تكن الوحيدة التي حظيت بمثل هذا النوع من الرعاية الإلهية، فقد كان على سبيل المثال يحي عليه السلام أحد هؤلاء، فهو يتقاطع معها في كثير من أمور هذه الرعاية وخاصة العائلة.

(2) التطهير يشير إلى أنّ الله أذهب عنها الرّجس ووفقها لتحصين فرجها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا... ۝12۝﴾ [التحريم]، فهو يأخذ معنى التطهير الذي جاء في حق نساء النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝32۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝33۝﴾ [الأحزاب].

(3) الاصطفاء الثاني يشير إلى أنّ الله جعل مريم تحمل بعيسى بطريقة تُميّزها على سائر نساء العالمين، من حواء إلى يوم القيامة، وهذا الحمل آية من الله ﴿... وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ... ۝21۝﴾ [مريم].

أمثلة أخرى عن الاصطفاء الإلهي من القرآن

اصطفاء موسى عليه الصلاة والسلام

وبنفس المنطق أقول أنّ اصطفاء الله لموسى الذي جاء في قوله تعالى ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي

اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿144﴾﴾ [الأعراف] لا يحمل معنى الاختيار قطعا، حيث لم ينظر الله في الناس فوجد موسى هو أفضلهم فأختاره، ثم كلّفه بالرّسالة وكلّمه تكليما، ولكنه بدأ باصطفائه قبل ميلاده، فصنعه على عينه، واصطنعه لنفسه، وأنشأه تنشئة خاصة صافية ومقصودة، حتى يبلغ مقاما لا يمكن للناس بلوغه، وذلك لقوله تعالى ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿38﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿39﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى ﴿40﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿41﴾﴾ [طه].

وتفاصيل أخرى لهذه التنشئة نجدها في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿7﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿8﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿9﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿10﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿11﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿12﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿13﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿14﴾﴾ [القصص].

اصطفاء طالوت

والاصطفاء الذي جاء في قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

﴿247﴾ [البقرة] لا يشير أيضا إلى أنّ الله اختار طالوت من بين القوم فجعله ملكا عليهم لأنّه أفضلهم في العلم والقوة، حيث لم يقل 'اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ لأنّه ذا بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ'، أو شيئا من هذا القبيل، بل يشير إلى أنّ الله أنشأ طالوت تنشئة صافية صحيحة مكنته من كسب العلم وقوة الجسم أكثر منهم، فاستحق أن يبعثه الله ملكا عليهم.

اصطفاء الدين

وكذلك اصطفاء الدين الذي جاء في قوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿132﴾﴾ [البقرة] لا يدل على الاختيار، لأنّ الله لم يختر لهم الدين الإسلامي من بين الأديان السماوية والوضعية الأخرى التي كانت موجودة في ذلك الزمان، كالمستهلك العاجز، الذي لا يملك القدرة على الإنتاج، لا يمكنه إلاّ أن ينظر ويختار أفضل ما يُعرض عليه، ولله المثل الأعلى، ولكنه أنشأ لهم الإسلام وصفاه حتى صار منهاجا مثاليا يسعد الملتزم به في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا جاء التعبير الإلهي الدقيق بلفظ 'اصْطَفَىٰ' وليس بلفظ 'اختار' حتى لا يحيد عن المراد.

اصطفاء الولد

وحتى اصطفاء الأولاد الذي جاء في قوله تعالى ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿149﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿150﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿151﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿152﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿153﴾﴾ [الصافات] لا يعني الاختيار.

إذا دققنا النظر في لفظ 'أَصْطَفَى' نجد أنّه يشرح لفظ 'وَلَدَ' الذي جاء قبله، أي الولادة والتنشئة، وأنّه يدل بالتحديد على الاتخاذ والتخصيص، وهذا يمكن إدراكه بسهولة من الآيتين ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿16﴾﴾ [الزخرف] و ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿40﴾﴾ [الإسراء]. ومعاذ الله أن ينشئ لنفسه ولدا ذكرا كان أو أنثى.

كما أنّ الاصطفاء الذي ورد أيضا في هذا الصدد والذي جاء في الآية ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن

يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞4۞﴾ [الزمر]، لا يحمل بشكل من الأشكال مدلول الاختيار، حيث لا يجب تفسير الآية بالقول بأنّه لو أراد الله أن يتخذ ولدا لأختار واحدا من العباد وجعله ولدا له.

فبالرغم من أنّ الله يصطفي من عباده رسلا ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞75۞﴾ [الحج]، و أنه اتخذ من المصطفين منهم خليلا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۞125۞﴾ [النساء]، إلاّ أنّه لا يتّخذ منهم ولدا، فلو أراد حقا أن يتّخذ ولدا لخلق وأنشأ ولدا ليس كمثله شيء يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وهكذا يكون اصطفاء ولد الله لو أراد ذلك، ولكنه تعالى عما يقول المشركون علوا كبيرا، هو الله الواحد القهار الغني الذي يملك السماوات والأرض ،فلا يحتاج لولد ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞68۞﴾ [يونس].

المدلول الدقيق للاصطفاء

بعد إبراز حقيقة مفادها أنّ لفظ الاصطفاء ليس من مرادفات لفظ الاختيار باستعمال أمثلة من القرآن التي جاءت في حق الملائكة والبشر وحتى الدين، أرى –والله أعلم– أنّ المزج بين الاصطفاء والاختيار الذي انتهجه غالبية المفسرين وأهل التأويل غير سديد. فإذا دققنا النظر في القرآن نجد أنّ الاصطفاء هو عملية يختص بها الله حصريا عن غيره من خلقه، ولكن إذا سلّمنا أنّه يمكن اسناده أيضا لغير الله، فإنّ هذه الحقيقة تصبح جليّة كالشمس ليس دونها سحاب، ولتأكيد هذا استعين بمثالين من حياتنا الواقعية:

مثال مصطنع حول اصطفاء الحيوانات

إذا أخذ الفلاح أفضل كبش من قطيع غنمه وذبحه في عيد الأضحى، فيجب أن يقال أنّه اختاره وليس اصطفاه، أما إذا أخذ خروفا صغيرا عند ولادته أو بعدها بقليل، ثم بدأ يُنشئه ويرعاه رعاية خاصة ليُهيئه للعيد، فيكون غالبا هو الأفضل في القطيع، فيجب أن يقال يوم يجعله أضحية للعيد أنه اصطفاه وليس اختاره، لأن الاختيار يقصي التنشئة الخاصة المقصودة

التي قُدمت، بينما الاصطفاء يتضمنها جليّة.

مثال مصطنع حول اصطفاء الناس

إذا أخذ الملك امرأة ورجلا قصدا من عائلتين لهما مواصفات مثالية كثيرة، ثم زوّجهما لحاجة في نفسه قضاها، وعندما أنجبا صبي، قدّم له رعاية صحيحة مقصودة وفريدة من نوعها، فيصبح الصبي من جهته يجتهد ويُكَوِّن نفسه بالاستغلال الأمثل للوسائل والظروف المثالية المتاحة، فلا شك أنّه عندما يكبر يصبح ذا بسطة في العلم والجسم والمواصفات الأخرى، ويكون أفضل من جميع رجال قومه، وإذا أُريد انتقاء أفضل القوم لقيادة الجيش مثلا، فمن البديهي ألاّ يقع الاختيار إلاّ عليه، ولكن في حقيقة الأمر وقع هذا 'الاختيار' قبل ولادته. فلهذا يجب أن يُقال: إنّ الملك اصطفى قائد الجيش، ولا يحق أن يقال: إنّ الملك اختار أو انتقى قائد الجيش من بين رجال قومه وزمانه.

تعريف الاصطفاء

بهذا أخلص إلى القول بأنّ الاصطفاء هو عملية التنشئة الصحيحة الخاصة والمقصودة، وينفرد به حصريا المنتج الذي يقصد في إنتاج منتوج صاف، ويبقى الاصطفاء المثالي لا يختص به إلاّ الله الخالق الحكيم العليم، لأنّ التنشئة الخاصة التي يُقدمها الله سبحانه وتعالى تضمن الوصول إلى الصفاء الحقيقي والكمال المطلق في الصفات المعيّنة التي يقصدها من خلال هذه التنشئة.

الاختيار عند البشر

أما الاختيار فهو يخص المستهلك فقط، وهو عملية الغربلة المقصودة التي تُستعمل في الانتقاء المباشر لمنتوج من بين المنتوجات المعروضة أو المتاحة دون إحداث أي تعديل إيجابي أو سلبي على هذه المنتوجات أثناء الغربلة، أما إذا بدأ المستهلك في التعديل، فقد انتقل من مرحلة الاختيار إلى الإنتاج أو الاصطفاء فيصبح منتجا، والمنتج يكون قبل بدأ الإنتاج مستهلكا لأنه يُغربل الأفكار المتاحة له لاختيار المنتوج الذي يرغب في انتاجه، وهذه الأفكار تكون دائما مستوحاة من الوجود باستعمال وتركيب الموجودات، فالمنتج يختار قبل الإنتاج ويصطفي أثناء

عملية الإنتاج، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه لا اصطفاء ولا اختيار ولا انتخاب إلاّ بالوعي والقصد.

وأعظم منتج إنساني عرفته البشرية هو عيسى صلى الله عليه وسلم الذي أنتج طيرا كاملا متكاملا، ورغم هذا نجد أنّ عيسى هو بحد ذاته منتوج وقبل أن يبدأ في الإنتاج اختار هيئة للطير الذي يريد أن يُنتجه من بين هيئات الطيور التي رآها في الوجود، ثم اختار الماء والتراب من الوجود وقام بتركيبهما، وذلك باستعمال عقله وبصره ويديه ونفخه التي وجدها في الوجود، ولم يفلح هذا كله إلاّ بإذن الله. إذن، الإنسان يبقى دائما مخلوقا مستهلكا مهما عَظُم إنتاجه ويبقى يختار ويستهلك موجودات الله التي سخرها له إلى يوم الدين.

الاختيار الإلهي

والاختيار الذي يختص به الله الخالِق المنشِئ الموجِد يختلف تماما عن الاختيار الذي تقوم به مخلوقاته، فالله لا يختار من بين الموجودات كالمستهلك، بل يختار مما عنده في علمه قبل أن يخلقها، فاختيار الله مقرون بإرادته ومشيئته وقراره قبل الخلق، وهذا جاء في قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝68۝﴾ [القصص].

فهذه الآية تشير إلى ما هو أعظم مما ذهب إليه المفسرون، فأقول إنها وردت ليُعجز الله بها المشركين ويُبيّن لهم أنهم لم تكن لديهم حرية اختيار حتى أشكالهم وصورهم أو مجيئهم إلى الدنيا من عدمه، فالله هو الذي يختار ما يشاء أن يخلق، وله الْخِيَرَة المطلقة قبل الإيجاد، فهو الذي اختار أن يكون الإنسان على هذه الهيئة قبل أن يخلق آدم، وهذا الاختيار في الخلق خصّه الله لنفسه وسلبه من جميع خلْقه وذكره للمشركين كي يعجزهم، فالاختيار عند الله يكون قبل أن يبدأ عملية الاصطفاء.

وأما الْخِيَرَة التي جاءت في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝36۝﴾ [الأحزاب] فهي تخص المؤمنين والمؤمنات جميعا إلى يوم القيامة، ولا تخص الذين نزلت في حقهم فقط.

فمن خلال هذه الآية يحثّ الله المؤمنين بأن يكون لهم انقياد إرادي مطلق لكل حُكم

جاء في القرآن أو السُّنّة الصحيحة فيما يتعلق بأمور دينهم ودنياهم، لأنّهم يُفترض أن يكونوا على يقين بأنّ هذه الأحكام كلها خير ونور وما دون ذلك فهو شر وظلام.

فلا مجال إذن للاختيار ولا حتى للتفكير فيه، ولا يحتاج الأمر لأي غربلة، ومن يخالف الله ورسوله طوعا فقد ضلّ ضلالا مبينا. ولا تؤمن نفس إلاّ إذا اطمأنت ورضيت بهذه الأحكام كلها وسلّمت تسليما طوعيا تاما لها دون أن تجد أي حرج في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿65﴾﴾ [النساء]، وعلى المؤمن السمع والطاعة بالإذعان لكل ما جاء في القرآن وبالامتثال لكل ما ورد في السُّنّة الصحيحة ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿51﴾﴾ [النور].

أمثلة عن الاختيار الإلهي من القرآن

اختيار الله لموسى عليه الصلاة والسلام

واختيار الله لموسى الذي جاء في قوله تعالى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿13﴾﴾ [طه] لا يجب أن يُقارن باختيار الإنسان، كالذي ورد في الآية ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿155﴾﴾ [الأعراف]، لأنّ موسى الإنسان المخلوق اختار من بين الموجودات، رجال قومه، فهو مستهلك، وأما الله الخالق فلم يختر موسى الموجود من بين الموجودات، بل اختار أن يُوجده ثم خلقه واصطفاه لهذه المهمة بالتنشئة الخاصة المقصودة التي بيّنتُها سابقا والتي يُدعِّمها أيضا قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿7﴾﴾ [القصص]. فاختيار الله يقع قبل الخلق، وهذا هو المعنى الدقيق لعبارة 'وَأَنَا اخْتَرْتُكَ' الذي يليق بجلال وعظمة الخالق.

اختيار الله لبني إسرائيل

وكذلك اختيار الله لبني إسرائيل الذي جاء في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿30﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿31﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿32﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿33﴾﴾ [الدخان] قد وقع أيضا قبل أن يُنشئهم، وذلك على الأقل قبل تنشئة النبي إسرائيل عليه السلام، وهذا الاختيار لا يدل على اصطفاءهم ولا على انتقائهم لكونهم أفضل من غيرهم، ولكنه يدل على أنّ الله اختار إنشاؤهم على علم منه، أي عن قصد وحكمة ليبعث فيهم عددا كبيرا من الأنبياء والرّسل الذين أيّدهم بآيات ومعجزات عظيمة يختبر بها بني إسرائيل، وهكذا أصبحوا متميزين على العالمين بمشيئة الله وعلم ﴿... لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ... ﴿4﴾﴾ [الروم]، وهذا هو تفضيل الله لهم على العالمين ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿47﴾﴾ [البقرة]، الذي حصل بكثرة نِعَمِ الله عليهم والتي لم ولن تُعطى لغيرهم بذلك الحجم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿20﴾﴾ [المائدة]. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنّ إتيان المُلْك لا يعني بالضرورة القرب من الله، لأنّ الله يُؤتي عباده المُلْك ولو كانوا كافرين، كالذي حاجّ إبراهيم عليه السلام في الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿258﴾﴾ [البقرة].

وأرى أنّ لفظ 'العالمين' الذي جاء في هذه الآيات يدل على جميع الناس من آدم إلى يوم البعث، وليس كما قال أغلب المفسرين أنه يدل على عالمي زمان بني إسرائيل فقط، لأنّ هذا التفضيل يعود أساسا إلى العدد الهائل من الأنبياء الذين جُعلوا فيهم، الشيء الذي لم تشهده البشرية من قبلهم ولن تشهده إلى يوم القيامة، لأنّ محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، وكذلك إتيان بعض أنبيائهم أمثال سليمان عليه السلام مُلكا

لن يمنحه الله لغيره من البشر ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿35﴾﴾ [ص]، وفضلا مبينا ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿16﴾﴾ [النمل]، وهذا أكده الحديث (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البارِحَةَ - أوْ كَلِمَةً نَحْوَها - لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاةَ فأمْكَنَنِي اللَّهُ منه، وأَرَدْتُ أنْ أرْبِطَهُ إلى سارِيَةٍ مِن سَوارِي المَسْجِدِ، حتَّى تُصْبِحُوا وتَنْظُرُوا إلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أخِي سُلَيْمانَ :{رَبِّ هَبْ لي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِن بَعْدِي}، قالَ رَوْحٌ: فَرَدَّهُ خاسِئًا." صحيح البخاري 4808).

وأما عِلْم الله في الاختيار فيمكن أن نفهمه أفضل من خلال عِلْمه في التفصيل الذي ورد في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿52﴾﴾ [الأعراف]، والذي يدل على أنّ كل صغيرة أو كبيرة جاءت في الكتاب قد وضعها وفصّلها الله بدقّة عن دراية وقصد وحكمة ولم تكن عبثا أو عن جهل لأنّ علم الله أحاط بكل شيء ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿12﴾﴾ [الطلاق].

التوظيف الصحيح للفظي الاختيار والاصطفاء

فبالمعنى الدقيق للاصطفاء الذي استنبطته، يتضح أنّ اصطفاء الله للرّسل من عباده الملائكة والناس ليس اختياره لهم من بين الآخرين، بل خلقهم وتنشئتهم خصيصا لغرض حمل الرسالة، حيث أعتقد أنّ الله لم يقع اختياره على جبريل عليه السلام يوم كلّفه ليكون رسول الوحي لكونه أفضل من كل العباد المكرمين، ولكنه تعالى اختار أن يوجده، ثم خلقه وجعل له مؤهلات خاصة تليق بهذه المهمة وتميّزه عن غيره من الملائكة. وكذلك لا أعتقد أنّ الله نظر في الناس، فوجد أنّ محمدا بن عبد الله بن عبد المطّلب أفضلهم في زمانه، فاختاره وأنزل عليه القرآن، بل أرى أنه سبحانه وتعالى اختار أن يوجده، ثم خلقه وأنشأه تنشئة خاصة من أصل خاص يضمن تحقيق خصال وصفات معيّنة في زمن ومكان محددين ليكون الأفضل والأطهر

والأنقى لحمل كلام ربه وتبليغ رسالته، ومن جهته، كان محمد بإرادته في مستوى هذه التنشئة التي بدأت مراحلها من خليل الله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتتلخص في الحديث (عن واثلة بن الأسقع الليثي أبو فسيلة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنانَةَ مِن ولَدِ إسْماعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِن كِنانَةَ، واصْطَفَى مِن قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفانِي مِن بَنِي هاشِمٍ." صحيح مسلم 2276). ومن هذا الحديث يتضح أيضا أنّ اختيار الله على خلق محمد وقع على الأقل قبل أن يُنشئ كنانة، كما وقع اختيار الله على خلق عيسى على الأقل قبل أن يُنشئ مريم.

إنّ المزج والخلط بين الاصطفاء والاختيار، الذي وقع فيه المفسرون، هو الذي أنتج منفذا كبيرا دخل منه التطوريون، فاختلقوا شُبهة في الإسلام بقولهم أنّ اصطفاء الله لآدم الذي جاء في القرآن ما هو إلاّ دليل على وجود البشر من طين الذين اختار الله منهم آدم. ولكن إبصاري للحقيقة، التي مفادها أنّ الاصطفاء لا يحمل أي شكل من أشكال الاختيار، يقضي نهائيا على هذه الشبهة المفتعلة، ويرفع اللبس عن هذه المسألة، ويجعل الباحث عن الحق يدرك أن اصطفاء الله لآدم تمثّل في خلقه، وتنشئته، وتعليمه بكيفية خاصة تليق بأول البشر ذي الأصل الطيني، ليبعثه نبيا ورسولا إلى ذريته وأحفاده، إذ عاش ألف سنة.

حيث، إذا أمعنا النظر في القرآن، نجد أنّ اختيار الله أن يخلق الإنس قد وقع على الأقل قبل أن يخلق ما في الأرض، وذلك لقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞29۞﴾ [البقرة]، وبعد ذلك خلقه من طين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞71۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞72۞﴾ [ص]، ثم علّمه الأسماء كلها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞31۞﴾ [البقرة]، ثم استخلفه في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞30۞﴾ [البقرة]، وكان القصد من هذا الخلق هو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا خَلَقْتُ

الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿56﴾ [الذاريات]. من هذا نستنتج أنّ اصطفاء الله لآدم هو التنشئة الخاصة قصد العبادة، والتي بدأت أولا بخلق له ما في الأرض جميعا، ثم خلْقِه وتسويته وتصويره في أحسن صورة وإعطائه عقلاً وحرية يميّزانه عن الجمادات والحيوانات، ثم تعليمه واستخلافه في الأرض وخلْق منه الناس جميعا.

وتلخيصا لما ذهبت إليه، أرى –والله أعلم– أنّ الله لا يختار من الموجودات التي أوجدها، ولكنه يختار ما يشاء ويريد أن يوجده، ثم بعد هذا الاختيار الذي يكون على علم يبدأ عملية الخلق والتنشئة التي تنقسم في حالة الجنس الإنساني إلى نوعين أساسيين، التنشئة الخاصة وتمثل الاصطفاء الإلهي الذي فصلته سابقا، والتنشئة العامة التي تخص عامة الناس، ولا تخلو التنشئتان من الحكمة الإلهية، والتدخل الإلهي في تقدير تفاصيلهما متى شاء وكيف ما شاء، والعدل الإلهي المطلق في تخيير الإنسان في بعض جزئياتهما ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿62﴾ [المؤمنون]، والعدل الإلهي المطلق في الثواب والعقاب على الأفعال التي تنجم عن هذا التخيير ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿46﴾ [فصلت].

الاصطفاء عند منكري الترادف المعاصرين

قبل عرض مفهومهم للفظ الاصطفاء، أود أولا التطرق إلى الأرضية التي يستعملونها لإنتاج مفاهيم على المقاس تخدم خلفيتهم الفكرية وتحقق أهدافهم المسطرة، حيث سأبين أنه لا براءة تتخلل آراؤهم، ولا صدق في مناهجهم، ولا ثقة في أهدافهم. وإذا نظرنا إلى قصتهم التاريخية، نجد أنهم أشخاص تم اختطافهم في الظلام من طرف الذين وقفوا خاشعين على أرضية تَوَهَّمُوها ثابتة، فأخذوا معهم جميع دواب الأرض ونباتها عنوة، رغم أنّ أنفسهم استيقنت أنّ الأرضية أوهن من بيت العنكبوت، فسقطوا هم ومن معهم أجمعون في خلية واحدة، وما خرجوا منها إلاّ بعد ملايين السنين.

والغريب في هذه القصة أنّ السقوط في الخلية الواحدة كان أمرا حتميا بالنسبة لهم، لأنّ أبصارهم كانت خاشعة فما أبصروا في الأرض التي تبلغ مساحتها أكثر من 510 مليون كيلو

متر مربع إلاّ هذه الخلية، فلو أبصروا الخلايا الأخرى المتنوعة بتنوع الكائنات التي أخذوها معهم لقذفوا كل صنف في خلية تلائمه. ولكنهم اعتقدوا بعد خروجهم من هذه الخلية أنه كان بصرهم حديدا، فتوهموا أنّ هذا السقوط الحتمي كان نتيجة لجاذبية الأمومة وحنانها، وليس لقصور في البَصر ولا لعجز في التقدير، فاعتبروا هذه الخلية أُمًّا لهم ولسائر الكائنات الحية الأخرى، وتوهموا أنها قد وُلدت صدفة في بِركة مائية باركتها الطبيعة الميّتة على غرار ملايين البِرك المائية الأخرى الموجودة على الأرض.

والأغرب من هذا كله أنّ هذه المباركة سمحت لهذه البِركة إنتاج خلية واحدة فقط. فالأسئلة التي تطرح نفسها هنا هي: هل هذه البِركة لم تكن تسع إلاّ لخلية واحدة أو أنّ المواد الموجودة فيها كانت لا تكفي لحضانة أكثر من خلية من نوع واحد؟ أم أنّ امتزاج الصدفة مع المباركة جعل الطبيعة شحيحة، فلم تسمح لهذه البِركة إلاّ إنتاج خلية واحدة، ومنعت البِرك الأخرى من إنتاج أنواع أخرى من الخلايا، رغم أنّ الطبيعة اسم على مسمى في خاصية التنوع؟ أم أنّ الصدفة قررت الجماع مع المباركة في مكان واحد مرة واحدة خلال عمر الطبيعة؟ إنها حقا صدفة على المقاس، أو أنها أصيبت بالعقم بعد الولادة الأولى والأخيرة. أما الاستغراب الآخر الذي يتبادر إلى ذهن كل عاقل يؤمن بالمقولة التي تقول أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، هو: كيف نجحت هذه المباركة في جعل بَركة الحياة في بِركة مائية بمواد ميّتة بسيطة فاقدة للحياة؟

طَمَعًا في إيجاد أجوبة مقنعة لهذه الأسئلة ودفاعا عن الصدفة والمباركة، شرع اليوم بعض أبناء هذه الخلية المدعين العلم في إثبات عدم صحة هذه المقولة في حضرة الصدفة الولودة، فاستوجب عليهم معالجة عقم الصدفة أولا وقبل كل شيء. فراحوا يهيئون المحيط لتلد فيه الصدفة معززة مكرمة، فاختاروا قابلات وأطباء مختصين في هذا النوع من التوليد، وجهّزوا لهم مخابر زاعمين أنها تحاكي البِركة التي نشأت فيها أمهم الخلية والتي كانت الحياة فيها منعدمة تماما سواء في مائها أو تربتها أو هواءها، أي أن هذه العناصر الثلاثة كانت مطلقة النقاء من حيث المواد العضوية والبكتيريا والمواد الأخرى التي لا يمكن رؤيتها بالمجهر أو التي يقصيها العلم من معادلة نشأة الحياة جهلا منه أنها لا علاقة لها بذلك. فماؤنا اليوم حي مثله مثل تربتنا وهوائنا، ورغم

السعي لمعالجة المحيط وهذه العناصر بحرارة عالية أو ببرودة شديدة أو بتقنيات أخرى، إلاّ أنه لا يمكن محاكاة ظروف مطلقة النقاء وعديمة الحياة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، وإذا زعم هؤلاء أنهم وصلوا مثلا في تنقية العناصر والمحيط إلى نسبة 99.999999999%، فهذا لا يعني أنهم حققوا التنقية المطلقة، فالحياة قد تكمن في ذلك الجزء الذي يمثل واحدا على المليار. وإن زعموا إنتاج حمض أميني أو شيء من هذا القبيل بهذه التنقية، فتجاربهم هذه لا تتعدى تجربة القمامة التي لا تظهر الحياة فيها إلاّ بعد مرور بعض الوقت، ثم ترى كائنات تدب في الأرض وأخرى تطير في السماء. فلو كانت القمامة فعلا مطلقة النقاء ومنعدمة الحياة، ما نشأت منها الحياة. وهذا يعيدنا إلى تأكيد صحة المقولة أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، والجزم بأنّ معالجة عقم الصدفة أمر ميؤوس منه. فليعلم هؤلاء أنّ الله سخّر للإنسان كثيرا من الأمور، ولكنه لم يُسخّر له خلق الحياة من العدم، وأما محاولة إيجاد أشكال أخرى للحياة أو إحداث تغييرات في بعض الكائنات باستغلال العناصر غير النقيّة التي بث الله فيها الحياة من قبل فيبقى مجالا مفتوحا ويمكن له أن يُفضي إلى بعض النتائج.

إنّ المزج بين الصدفة ومباركة الطبيعة يُنتج غازا ساما يشلُّ الدماغ ويحرق الفؤاد ويُحجّر القلب، ثم يتسرب إلى القلب فيبقى بداخله في انشطار مستمر، وبعدها يهيج عقل المصاب، فتأمره نفسه بالقفز في النار لعلّ النار تُنهي معاناته، وبهذا القفز يجد هذا الغاز الطاقة الملائمة التي تُحفّزه في تكثيف الانشطار والاستمرار فيه، فيخلد المصاب في هذا العذاب لا يموت به ولا يحيا. فبعد تبيان النتائج الحتمية لهذه التجربة، أقول للمسلم: أياك أن تُجربها أو تَقْرُبْها بأي شكل من الأشكال أو تقترب من أصحابها أو تفكر بها. وفي نفس الوقت، أنصحك أيها المسلم أن تكافح هذه الغازات السامة المنبعثة من هنا وهناك والتي تحرق الأخضر واليابس والتي قد تتسرب بطريقة أو بأخرى إلى بيتك. وحتى تقوى على هذا الكفاح، عليك بالتيقُن أنه لا مباركة إلاّ بمباركة الله، ولا صدفة تسبق قصد الله.

واحذر أيها المسلم من بعض بني جلدتنا المنتسبين للإسلام الذين يقومون بهذه التجربة ويخططون لتسميم أكبر عدد ممكن من المسلمين، إنهم أخطر من أعداء الإسلام الأعجمين،

لأنهم يُنتجون هذه الغازات في بيوت عربية إسلامية في الليل والنهار، فتُستنشق من طرف الصغار آناء الليل ومن خلال عرض التجربة على الكبار أطراف النهار، ويتخذها مرضى الربو متنفسا جديدا بعدما أوهموهم أطباؤهم أنّ صدورهم تضيق بالهواء النقي.

فاعلم أيها المسلم أنّ هذه الغازات قد تسربت إلى العروق فصارت تخرج عبر الألسنة وتتدفق إلى الأقلام من خلال الأنامل. فليحذر المسلمون جميعا، وخاصة ذوي المناعة الضعيفة، من التحدث والإصغاء والنظر إلى أصحاب مثل هذه الألسنة، وذلك باعتماد سياسة التباعد الاجتماعي والسمعي والبصري، وليكفوا من قراءة الكتب التي تُدَون بمثل هذه الأقلام، وذلك بمقاطعتها وبهجرها هجرا جميلا.

وأخطر الألسنة والأقلام فتكا بالمجتمع هي التي ظهرت في عصرنا هذا باسم عصرنة الدين الإسلامي، فبدأت بهدم جميع بنايات الأجداد هدما، حتى التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وبطمس جميع مصابيح الرسول طمسا، حتى التي تُضيء في ظلمات البر والبحر، وبخنق جميع آيات القرآن خنقا، حتى المحكمات الأمهات. أما الهدم فقد بُرّر بعدم صلاحية بنايات الأجداد لإسكان الأجيال المعاصرة، فعُوّضت لهم أسراب كانت قبورا لأموات الأسياد، وأما الطمس فقد بُرّر باختلاف الظلمات حسب الزمان والمكان، فعُوّض نور الرسول بظلام تُنتجه أدوات الأسياد، وأما الخنق فلم يكن هناك أي مبرر له إلاّ نيّة حبس أنفاس القرآن حتى لا تخرج منه ريح تُذهب الغازات.

فلا تستغرب أيها القارئ وتقول: من هذا الذي يخنق أم القرآن؟ وكيف يجرؤ على فعل ذلك؟ فأقول لك إنّ الذي يُبيح لك أن تضع نطافك في رحم أمك كي تلد لك البنين، والذي يُشجع ابنتك أو أختك العزباء بجماع الرجال بنيّة الحصول على البنين، قادر على فعل أبشع من خنق أم القرآن، وأعتذر للقارئ على صياغة هذه الحقيقة المرة بهذا الشكل.

وحتى يُحقق هذا الخنق أهدافه المسطرة وتتم العملية بإحكام يضمن عدم خروج مثقال ذرة من الريح الطيبة، عُزل القرآن عن نور الرسول وعن دفء بنايات الأجداد، ثم أُخذ بعيدا إلى أرضية مظلمة مملوءة بالغازات السامة، ثم طبقت عليه أدوات الخنق المختلفة. وحتى تتم هذه

العملية بنجاح في الظلام، دون أن يتمكن أهل القرآن من فهم ماذا أُريد به، انتهج القائمون على هذه العملية لغة مشفرة بقواعد مصممة على المقاس. ومن أهم وأشهر هذه القواعد التي وضعوها لأنفسهم واعتبروها خطا أحمرَ، قاعدة نفي الترادف، التي أحيوها وقاموا بإعادة تفعيلها بغطرسة ونفاق شديدين، فزعموا أنهم طبّقوها بصرامة في كل العملية وأنها حاضرة دائما معهم كالابنة المدللة. ولكنهم كاذبون ويظنون أنهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿9﴾﴾ [البقرة].

إنهم تنافقوا في تربية ابنتهم هذه، حيث إذا خدمت الخنق بجّلوها ودلّلوها، وإذا عارضته اغتصبوها، فهم كالحيوان الذي يأكل صغاره إذا جاع. ومن بين السياقات التي حدث فيها هذا الاغتصاب، السياق الذي جاء فيه اصطفاء آدم عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿33﴾﴾ [آل عمران]، حيث سمحوا لأنفسهم بالقول بأنّ الاصطفاء هو الاختيار والتفضيل، وهذا جاء في أحد كتبهم التي دُونت بأقلامهم المسمومة، ونصه حرفيا هو «الاصطفاء هو الاختيار والتفضيل ولقد ورد بهذين المعنيين معًا في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿42﴾﴾ [آل عمران]، فقوله "اصطفاك" يعني اختارك، وقوله "واصطفاك" يعني وفضّلك. والاختيار لا يكون إلاّ بين إثنين فأكثر، والتفضيل لا يكون إلاّ على آخر فأكثر». فمن هنا، يتضح جليا أنهم لم يُفعّلوا شعارهم البرّاق «القرآن خال من ترادف الألفاظ والتراكيب. فالنفس ليست هي الروح، والجعل ليس هو الخلق والإنزال ليس هو التنزيل»، حيث لم يقولوا أنّ الاصطفاء ليس هو الاختيار!!! فنصهم هذا يشهد علنا على أنهم مارسوا اغتصابا جماعيا لابنتهم، حيث تم اغتصاب الاصطفاء أولا بالاختيار ثم بعد ذلك بالتفضيل، رغم أنهم يعلمون علم اليقين أنّ هذه الألفاظ الثلاثة من ألفاظ القرآن التي جاءت في مواضع مختلفة، وأنّ اللجوء إلى استعمال مثل هذا الترادف في ألفاظ القرآن ممنوع منعا باتا حسب أوامر ابنتهم المدللة. ولكنهم مارسوا هذا الاغتصاب عمدا حتى يُنجبوا أمهم الخلية الواحدة من خلال ابنتهم، وهذا متوقع منهم لأنهم، كما أشرت سابقا، لا يكترثون حتى من إنجاب أبنائهم من أمهاتهم.

ولم يكتفوا بفعلة الاغتصاب هذه، فراحوا يمارسون الدياثة في حق ابنتهم، حيث تجدهم يتعمدون ترك الأبواب مفتوحة، ويقولون للقارئ هيت لك، اغتصب لفظ الاصطفاء بلفظ الاختيار ولا تبال بعِرض ابنتنا. والأمثلة من كتبهم على هذا النوع من الدياثة كثيرة، ومنها الأبواب التي تُركت مفتوحة في الجملة «لذلك نجد علماءنا الأفاضل المتمسكين بركام الأساطير، أبقوا على خلط السلف بين هذه المفاهيم، رغم أنّ العلم الحالي يمكّنهم من تحديد معنى الاصطفاء، وأنه من بين مجموعة سابقة من البشر»، التي أخذتُها من نفس الكتاب السابق الذي تحدثوا فيه عن اصطفاء آدم. فلو كانت هنالك براءة في الأداء لقالوا: «رغم أنّ العلم الحالي يمكّنهم من تحديد معنى الاصطفاء، وأنه اختيار من بين مجموعة سابقة من البشر»، أو شيء من هذا القبيل، ولكنهم تعمدوا التدليس وعدم التوضيح حتى لا يتكرر مشهد الجريمة كثيرا، فيكتشف كل قارئ لكتبهم حقيقة اغتصابهم لابنتهم، فتركوا القارئ يغتصب لفظ الاصطفاء كيف يشاء.

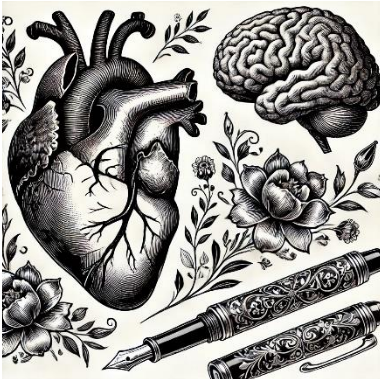
وعمدوا إلى هذا كله، لكي يبرهنوا أنّ آدم أُختير من مجموعة سابقة من البشر الذين تطوروا صدفيا من الخلية الواحدة، وهذه هي عقيدتهم التي يدافعون عنها بكل ما يملكون من أدوات، والتي تتلخص في قولهم «فنحن نقف على ثوابت الأرضية المعرفية لنظرية الخلق كتطور الحياة من أصل الخلية الواحدة، ووجود مورّثات في هذه الخلية تشكل البرنامج التكويني للبشر. ونحن ننفي أيضا عن القرآن القول بالخلق الفجائي الخارج عن نواميس الوجود وصيرورة التطور». إذن، نفيهم للخلق الفجائي لابد أن يُلزمهم هم وأتباعهم بعدم التصديق بالطيور الكاملة المتكاملة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام فجائيا ومباشرة من الطين بالنفخ وبإذن الله، تحديدا كما نفوا خلق الله لآدم عليه السلام من الطين مباشرة بالنفخ. إنهم حقا في الظلمات وما هم بخارجين منها ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿40﴾﴾ [النور].

فاعلم أيها القارئ أنّ الذي تُسيّره الأمواج في الظلام كيف تشاء لا يستطيع رؤية وجود

سياقات في القرآن تتحدث عن القيم كالشرف والعرض والشهامة والمروءة والنخوة المعروفة عند العرب، فلا تنتظر منه سوى سخافات أعظم قبحا من اغتصاب الأرحام والدياثة في حقها، واحذر من هؤلاء حتى لا تُسلخ منك هذه القيم فتصبح جثة هامدة ذليلة في بَحْرٍ لُجِّيٍّ لا تقدر أن تذود عن نفسك حتى من الذباب والبعوض.

وتلخيصا لما ذهب إليه هؤلاء المعاصرون فيما يخص لفظ الاصطفاء، أقول إنهم لم يتمكنوا من تحديد معنى للاصطفاء، ولكنهم اصطفوا مع الأجداد، فاختاروا أن يكون الاصطفاء هو الاختيار، الشيء الذي أثبتُ عدم صحته سابقا. وهذا الاصطفاف لم يكن حبا في السلف ولا اقتناعا بآرائهم، ولكنه كان نفاقا وخداعا لخدمة خلفيتهم الفكرية وترويجا وتحقيقا لأهدافهم الشيطانية المسمومة التي لا تخرج عن نطاق خنق القرآن الكريم، بعدما توهموا أنهم قد تمكنوا من القضاء على السُّنّة النبوية المطهرة وكتب علماءنا المنيرة وتاريخنا الإسلامي المجيد.

الفصل السابع: خلق الله للمسيح عيسى



تمهيد

آيات الله في الكون لا تُعد ولا تُحصى، فكل شيء مخلوق بإرادة الله وكل مخلوق آية بعينه، وحقيقة وجود الله تتجلى ساطعة من خلال هذه المخلوقات ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝105﴾ [يوسف]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝164﴾ [البقرة]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝99﴾ [الأنعام]. فالإنسان ذو العقل القويم والفطرة السليمة الذي ينظر ويتفكر في نفسه وفي الموجودات البديعة من حوله لا يتعب كثيرا في اكتشاف هذه الحقيقة، والتي بها يصبح لا يتوانى ولو لحظة في تعظيم وعبادة هذا الخالق وحده لا شريك له.

ولكن عقول الناس في الغالب تتشوش وفطرتهم تتعكر عبر الزمن، لهذا بعث الله من عباده أنبياء ورسلا ليُبصّروا الناس حتى يروا الحق حقا والباطل باطلا فيُحققوا الاستقامة والسلامة، وأنزل من عنده كُتبا وآخرها القرآن الذي أكمل به الديانات السماوية الأخرى التي

طرأت عليها جميعا تحريفات خطيرة، وتكفّل بحفظه إلى يوم القيامة وجعله منهاجا لمن أراد أن يستقيم عقله وتسلم فطرته وأيده بإعجاز خالد وبحقائق علمية لا تُعد ولا تُحصى تبقى تُكتشف وتتحقق إلى يوم القيامة.

فكان الله يأتي هؤلاء الأنبياء والرّسل ببعض الآيات (المعجزات) ليُدعِّم بها نبواتهم ورسالاتهم وليبيّن من خلالها عظمته وقدرته. فالآية هي شيء حقيقي لا تكون إلاّ بإذن الله ولا يستطيع أن يأتي بها الإنس والجن ولو اجتمعوا لها. فهي لا تخضع إلى القوانين والسّنن الكونية التي سخّرها الله للإنسان وعرّفها له.

فنجد مثلا أنّ الله كان يجعل عصا موسى عليه الصلاة والسلام تتحول إلى ثعبان مبين ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝107﴾ [الأعراف] وإلى حيّة تسعى ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝20﴾ [طه]، كما أنّه آتى عيسى عليه الصلاة والسلام آية خلق الطير التي سأكتشف حقائقها في الفصل الذي يلي الفصل القادم، ولكنه استثنى عيسى عن سائر الخلق بآيتين إضافيتين عظيمتين وهما خلقه من دون أب وجعله يُكلّم الناس في المهد بكلام فصيح مُعبّر يُشبه أفضل كلام الكهول.

وبعد العرض المفصل الذي قدمته في الفصل السابق حول اصطفاء عائلة عيسى، آل عمران وأمه مريم، ارتأيت أن أُخصص هذا الفصل للآية الأولى (خلق الله لعيسى) والفصل القادم للآية الثانية (كلام عيسى في المهد) لأكتشف حقائقهما وحكمهما ولأعرض بصائري فيهما.

خلق الله الاستثنائي لعيسى ابن مريم

لقد جرت سُنّة الله في خلقه أن تُخلق جميع المخلوقات، إنسانا وجنا وحيوانا ونباتا، عن طريق تزاوج الذكر والأنثى، إلاّ في بعض الحالات التي أرادها الله أن تكون استثنائية، كخلق الله لآدم وحواء الذي اكتشفت كثيرا من حقائقه في الفصل الثالث، وخلق طير عيسى الذي سأستنبط فحواه كاملا في الفصل الذي يلي الفصل القادم، وخلق الله لعيسى موضوع هذا الفصل الذي سأعرض فيه بصائري حوله.

إنّ الرّسول عيسى عليه الصلاة والسلام آية من الله بعينه، حيث خلقه بقدرته في رحم مريم عليها السلام دون أن يمسسها بشر قط، وهذا مصداقا لما جاء:

في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝45۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝46۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝47۝﴾ [آل عمران].

وفي سورة مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝17۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝18۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝19۝ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝20۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝21۝﴾ [مريم].

فلما ولدته مريم واتت به قومها تحمله، اتهموها بالفاحشة زورا وبهتانا، وهم متيقنون بعفتها ونقاء أهلها. ولكن الله كان في المرصاد لدحض هذا القذف في شرف وعرض المحصنة والعذراء مريم، فجعل هذا الصبي يُكلم الناس في المهد كلاما بليغا يُبهت الكافرين ويُبين أنّه عبد الله ونبيّه، وذلك مصداقا لما جاء في سورة مريم:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝27۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝28۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝29۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝30۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝31۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝32۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝33۝ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝34۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝35۝﴾ [مريم].

مراحل خلق الله لعيسى في آيتين قرآنيتين متشابهتين

خلْق الله لعيسى ورد في القرآن في الآيتين التاليتين:

الآية القرآنية الأولى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ۞91۞﴾ [الأنبياء].

الآية القرآنية الثانية: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ۞12۞﴾ [التحريم].

إنّ مجيء العبارة 'الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا' في كل من هاتين الآيتين {91 الانبياء} و {12 التحريم} ما هو إلاّ تأكيد من الله أنّ مريم عليها السلام أحصنت فرجها فحفظته حق الحفظ من النكاح الحلال ومن النكاح الحرام، وتأييد لقولها ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۞20۞﴾ [مريم] الذي جاء ردا على رسول الله جبريل عليه السلام لما تمثّل لها على هيئة بشر سوي ليُطمئنها على أنّ الغلام هو هبة من عند الله وهو أمر مقضي.

كما أنّ الآيتين {91 الانبياء} و {12 التحريم} تبدوان متشابهتين في المضمون، ولكنهما زوج يكملا ويفسرا بعضهما البعض، ومن خلالهما يظهر جليا أنّ خلق عيسى مر كذلك بمرحلتين أساسيتين.

فالآية الأولى {91 الانبياء} تتضمن المرحلة الأولى، وهي النفخ في مريم 'فَنَفَخْنَا فِيهَا'. والغرض من هذه النفخة الأولى هو خلق بشر سوي (هيئة إنسان) أو بالأحرى خلق مَثَل (صورة) عيسى في رحم مريم من مواد موجدة فيه. يجب الإشارة هنا إلى حقيقة مفادها أنّ هذه المواد وكل المواد الأخرى المكونة للإنسان ذكرا كان أم أنثى أصلها التراب أو الطين. لهذا جاءت عبارة 'فَنَفَخْنَا فِيهَا' لتدل على النفخ في مريم كي يتشكل مَثَل عيسى منها في رحمها، وهذا يشبه تماما مباشرة الرجل للمرأة فيتشكل مثَل إنسان في رحمها.

أما الآية الثانية {12 التحريم} فهي تتضمن المرحلة الثانية، وهي النفخ في مَثَل عيسى 'فَنَفَخْنَا فِيهِ'، لخلق عيسى كجنين حي في رحم مريم، وهذا يحدث أيضا بنفس الكيفية عند المرأة العادية حين يأتي الملك فينفخ في مثَل الإنسان فيصبح جنينا حيا في رحمها.

إنّ تكرار العبارة 'الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا' في الآيتين {91 الانبياء} و {12 التحريم} ما هو إلاّ دليل آخر على وجود النفختين. فهذا تأكيد على أنّ النفخة الأولى تمت والفرج محصن وعلى أنّ النفخة الثانية تمت وهو ما يزال محصنا.

➢ أعود الآن إلى ما ذهب إليه العلماء والمفسرون في قضية خلق عيسى. إنهم لم يتمكنوا إلى حد الساعة من إيجاد أي تفسير يُقنع الأذهان ويُطمئن القلوب، فهم لا يزالون في حيرة من أمرهم في شأن العبارتين 'فَنَفَخْنَا فِيهَا' و 'فَنَفَخْنَا فِيهِ' اللتين جاءتا مباشرة بعد الجملة المكررة 'الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا'. فهذه الحيرة ما دلتهم إلاّ على أنّ العبارتين تؤديان نفس المعنى رغم ذهاب بعضهم حتى إلى سياق سورتي الآيتين {91 الانبياء} و {12 التحريم}.

➢ وراح بعضهم إلى أنّ معنى كلمة 'فرج' المذكورة في الآيتين {91 الانبياء} و {12 التحريم} هو فرج القميص. فتخيلوا أنّ جبريل عليه السلام نفخ في جيب درع مريم، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فجاء منها عيسى عليه السلام. والبعض الآخر قال أنّ النفخة كانت في الفرج.

إنهم يدخلون في تفاصيل لا أساس لها، فهم إذن يتوهمون أنّه لا يمكن أن تحمل المرأة إلاّ إذا دخل عبر فرجها شيء محسوس ولو كان النفخ.

إنّ تفسير الاستثناء بالمعتاد كثيرا ما يكون مغلوطا، وفي هذه القضية بالتحديد (الحمل الاستثنائي لمريم) قد يكون تقليلا لعظمة الله وقدرته. إنّ الشيء القطعي في ذلك هو أنّ عيسى خُلق بإذن الله بالنفخ فقط، أما طبيعة وكيفية هذا النفخ فلا يعلمهما إلاّ الله. ولعل هذا النفخ ما هو إلاّ أمر الله المقضي بكلمته 'كن' مصداقا لقوله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿59﴾﴾ [آل عمران].

وكذلك الله أعلم بطبيعة وبكيفية النفخ في بطن المرأة العادية الذي ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: حدثنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو الصادق المصدوق قال: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ،

وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ) (متفق عليه).

المقارنة بين خلق الله لعيسى وخلقه لآدم

المقارنة بين خلق الله لعيسى وخلقه لآدم تتطلب الدّقة في الاستنباط، التي تستوجب التفصيل في مراحل الخلق.

إنّ عيسى خلقه الله في مرحلتين أساسيتين كما بيّنته سابقا وأكرره هنا. ففي المرحلة الأولى، خلق الله مَثَل عيسى بالنفخ في مريم ومن خلالها بالنفخ في المواد الموجودة في رحمها. بما أنّ هذه المواد أصلها تراب، إذن مَثَل عيسى خُلق من تراب. ثم في المرحلة الثانية، نفخ الله في هذا المثَل فكان عيسى.

وأما قضية خلق الله لآدم فقد جاءت في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝71۝ ص فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝72۝ ص فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝73۝ ص إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝74۝ ص قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝75۝﴾ [ص].

من هذه الآيات نستنتج أنّه في المرحلة الأولى في خلق آدم، خلق الله بشرا سويا (هيئة إنسان أو صورة آدم) أو بالأحرى خلق مَثَل آدم من طين بيديه. بما أنّ الطين أصله تراب، إذن مَثَل آدم خُلق من تراب. وفي المرحلة الثانية، نفخ الله في هذا المثَلِ فكان آدم.

إذن، المرحلة الأولى هي نفسها في كلتا الحالتين من حيث نوعية المثَل (الهيئة)، فكلا المثَلين (مَثَل آدم ومَثَل عيسى) خُلقا من تراب، أما من حيث الكيفية، فنجد أنّ مَثَل آدم خُلق بيدي الله، وأما مَثَل عيسى فخُلق بالنفخ. أما المرحلة الثانية فهي نفسها في كلتا الحالتين، فالله نفخ في مَثَل آدم فكان آدم، ونفخ في مَثَل عيسى فكان عيسى.

إنّ استنباطي هذا يتوافق تماما مع قول الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝59۝﴾ [آل عمران]. فكلمة 'مَثَل' في هذه الآية جاءت بصيغة مفرد وهي تشير إلى نموذج، صورة أو هيئة مجسمة قبل النفخة الثانية. وهذا المعنى يتطابق

كليا مع مَثَل الإنسان الذي جاء في صيغة الجمع في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿61﴾﴾ [الواقعة]، وفي ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿28﴾﴾ [الإنسان].

فالآية {59 آل عمران} تؤكد التشابه المطلق في نوعية النموذج وفي النفخة الثانية فقط، حيث أنّ الله خلق في كلتا الحالتين النموذج المجسم من تراب، ثم قال لهذا النموذج كن، أي نفخ فيه الروح ليكون وليحيي في هذه الحياة. وما ورود لفظ 'ثُمَّ' في هذه الآية إلاّ دليل على وجود المرحلتين. إذن، يصبح واضحا الآن أنّ حرف الهاء في 'خَلَقَهُ' ولفظ 'لَهُ' يعودان على 'مَثَلِ آدَمَ'، أي على النموذج المجسم لآدم. ولا يصح أن يعودا على 'آدَمَ'، لأنه لو كان كذلك، فلماذا يقول الله لآدم كن وهو قد خُلق من قبل وهو موجود أصلا وانتهى الأمر؟ أما الحرف كاف في 'كَمَثَلِ آدَمَ' فهو للتشبيه بين 'مَثَلَ عِيسَىٰ' و 'مَثَلِ آدَمَ'. وليس للتشبيه بين عيسى وآدم كما ذهب إليه جميع المفسرين.

➢ أعود الآن إلى ما ذهب إليه المفسرون في تفسير الآية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿59﴾﴾ [آل عمران]. لقد أجمعوا على أنّ الآية تُشبِّه عيسى بآدم، فاعطوها بالتحديد الدلالة التي تحملها الجملة 'إنّ عيسى عند الله كآدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون'، ثم بقوا متخبطين في الإجابة على السؤال: لماذا جاءت إذن العبارة 'ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن'؟ والذي يبقى دائما مطروحا ما دام هذا النوع من التفسير هو السائد. وإذا سلمنا جدلا بأنّ هذه الجملة تحمل قطعا الدلالة الكاملة للآية دون أن تُحدث أي تخبط ولا تعارض، فإننا نصل إلى أنّ الجملة تشير إلى التشابه في أمرين فقط: الأول هو الخلق من التراب، والثاني هو النفخ. وبالتالي، فإنّ الآية لا تشير إلى تشابه بين عيسى وآدم في أمور أخرى تتجاوز هاتين النقطتين.

➢ ولكن للأسف، جاء آخرون فقزّموا الجملة وأعطوا الآية دلالة مقتصرة على العبارة 'إنّ عيسى عند الله كآدم'، مما جعل البعض يعتقدون أنّ الآية تؤكد التشابه التام بين عيسى وآدم. وقد تولّد هذا الفهم الخاطئ حتى لدى العديد من المفكرين المسلمين، فصاروا يأتون

باستنتاجات ضالة ومضلة، مثل قولهم: بما أنّ عيسى، الذي وُلد استثنائيا من أم فقط، يشبه آدم، فإنّ آدم وُلد أيضا من أم، ويدّعون بأنّ هذه الأم كانت من بشر عمّروا الأرض قبل آدم. وهنا أقول لهم: قبل أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، افهموا الآية فهما دقيقا، والتزموا بصرامة شديدة بأوجه التشابه التي أشارت إليها الآية فقط، دون زيادة أو تحريف. فالآية تقتصر على التشابه في أصل الخلق (من تراب) وفي النفخ بكلمة 'كن'، ولا تتعرض لأي تشابه آخر خارج هذا الإطار.

بهذا الادعاء، يجحد هؤلاء كل الأدلة الواضحة والصريحة الموجودة في القرآن والسُّنّة، والتي تؤكد بشكل قاطع أنّ آدم عليه السلام خُلق مباشرة من طين بيدي الله تعالى، وأنه أبو البشر الطيني، كما بيّنت ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث. وبذلك، يفتحون أبوابا واسعة للضلال والإلحاد، حيث يتجاهلون النصوص الشرعية القاطعة ويستبدلونها بتأويلات بعيدة عن الحقيقة. وقد ترتب على هذا الفهم الخاطئ نتائج كارثية على عقيدة المسلم، أبرزها إنكار حقيقة الخلق المباشر، والانجراف نحو تبني ما يُسمى بنظرية التطور الصدفي، التي تنفي في جوهرها وجود الخالق سبحانه وتعالى، وتجعل من الخلق مجرد صدفة عمياء.

أرجو من الله تعالى أن يجعل تفسيري للآية {59 آل عمران} الذي يُبيّن أنّ مراحل خلق الله لعيسى تتطابق تماما مع مراحل خلق الله لآدم، نورا يهدي به أصحاب هذه الاستنتاجات الضالة والمضلة، وأن يجعله يساهم في تحصين عقيدة المسلمين وفي تثبيت يقينهم وإيمانهم، وأن يجعله حُجّة بالغة على المشركين الذين يزعمون أنّ عيسى هو ابن الله أو إله.

إن كان أصحاب هذه الاستنتاجات يُصدّقون حقا بكل ما جاء في القرآن، ويوقنون فعلا بقدرة الله الواحد الأحد، فهم إذن مُلزمون بالتّصديق بمعجزة عيسى في خلق الطير الصريحة والغير قابلة لأي تأويل والتي تطرقتُ إليها بإسهاب في الفصل الذي يلي الفصل القادم، كما أنهم مُلزمون أيضا بالإيمان الصادق أنّ عيسى عبد الله ورسوله وبالنكران الصارخ لأي صفة من صفات الألوهية التي تُنسب له.

ولكن عقيدة هؤلاء غريبة جدا، حيث أنهم من جهة صعب عليهم هضم قصة خلق آدم

الواضحة في القرآن، فراحوا يعتقدون أنّ آدم جاء بالتناسل وهو نتيجة ما يسمى بالتطور الصدفي والانتخاب الطبيعي الذي احتاج إلى ملايين السنين، ومن جهة أخرى هم على يقين أنّ طير عيسى خُلق مباشرة من الطين بالنفخ فقط فتكونت في لحظات بلا تناسل ولا تطور ولا انتخاب جميع أجهزته السمعية والبصرية والفؤاد وغيرها، وهم كذلك على نفس اليقين في حالة عيسى الذي خُلق أيضا بالنفخ فقط.

إنّ هذه الازدواجية في الاعتقاد قد تجعل صحة فرضية تصديقهم للقرآن ويقينهم بقدرة الله على المحك. فليعلم هؤلاء أنّ ذكر معجزة خلق عيسى للطير في القرآن ليس عبثا، بل من ورائه اشارات كثيرة، ومن بينها التأكيد بأنّ الله قادر على أن يخلق جميع الخلق بطريقة مماثلة، أو بطرق أخرى لا يعلمها إلاّ هو سواء بتكليف ملك أو بنفسه، وما ذلك على الله بعزيز، وأنّ آدم قد خلقه الله أيضا من الطين مباشرة.

ويجب على المسلم المؤمن أن يتيقن أنّ في هذه الحياة الدنيا نجدين لا ثالث لهما ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝10﴾ [البلد]؛ طريق القرآن والسُّنّة وطريق ما دونهما، الأول يؤدي إلى الجنة والسعادة في الدنيا وفي الآخرة، والثاني إلى النار والشقاء في الاخرة. فلا يجب أن يتوهم طريق ثالث، ولا أن يحاول تقسيم نفسه فيجعل قسم على كل من الطريقين ﴿...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝85﴾ [البقرة].

إذن، إذا أراد حقا الفوز بالجنة والنجاة من النار، فعليه التشبّث بالقرآن والسُّنّة جملة وتفصيلا وجعلهما مرجعا أساسيا في حياته، وعليه أيضا النفور التام عن جميع الأفكار المناقضة لمرجعه هذا والتصدي لها بالحكمة، فهي لا محال ضالة ومضلة تنخر العقيدة كنخر السوس الخشب.

المقارنة بين خلق الله لعيسى وخلقه لبني آدم

بعدما قارنت بين خلق الله لعيسى وخلقه لآدم وبيّنت التشابه بينهما، أنتقل الآن لأؤكد أنّ هذا التشابه موجود أيضا مع خلق الله للإنسان (بني آدم)، بما في ذلك خلق الله لحواء الذي

اكتشفت حقيقته في الفصل الثالث.

فمن هذا الاكتشاف نجد أنّ خلق حواء الذي جاء ذكره في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞28۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞29۞﴾ [الحجر] مر بمرحلتين، المرحلة الأولى تكمن في خلق وتسوية مثَل حواء من ماء آدم الذي نتج من مواد ترابية، ثم في المرحلة الثانية، نفخ الله في هذا المثَل فصارت حواء جنينا إنسانيا حيّا.

كما نجد أنّ خلق بني آدم يمر كذلك بمرحلتين أساسيتين. ففي المرحلة الأولى، تُخلق بإذن الله هيئة (مَثَل) الإنسان كاملة في رحم الأم من مواد ترابية موجودة في هذا الرحم وأخرى من صلب الأب، وهذا يكون طبعا بعد لمس هذا الأب لهذه الأم. فنوعية مَثَل الإنسان هذا ترابية، أما كيفية خلقه فهي تناسلية. وفي المقابل، كما بيّنت سابقا، نوعية مَثَل عيسى أيضا ترابية، أما كيفية خلقه فهي بالنفخ، وهنا يكمن الاختلاف. وفي المرحلة الثانية، يأمر الله بنفخ الروح في مَثَل الإنسان هذا فيكون جنينا حيا (إنسان)، كما نفخ في مَثَل عيسى فكان جنين حي (عيسى).

وهذا أيضا يتطابق كليا مع قول الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞59۞﴾ [آل عمران]. كما هو واضح، فهذه الآية لا تُطابق كيفيات الخلق في المرحلة الأولى لأنها مختلفة، بل تُركّز في ذلك على النوعية الترابية للمَثَل لأنها متشابهة تماما، وتؤكد أنّ المرحلة الثانية (النفخ) متطابقة. إذن، هذه الآية جاءت أيضا لتبيّن نقاط التشابه المطلق بين خلق عيسى وخلق بني آدم. وأما ورود قول الله بصيغة 'كُن فَيَكُونُ'، وليس 'كن فكان'، فما هو إلاّ دليل على أمر الله وخلقه المستمر إلى يوم القيامة لبني آدم عن طريق النفخ في المرحلة الثانية. وقد ورد في السُّنّة أحاديث صحيحة عن هذا النفخ، مثل صحيح البخاري 3208.

في سياق هذه المقارنة، بقي سؤال يطرح نفسه ألا وهو: لماذا تمثّل الملك لمريم عند النفخ على هيئة بشر سوي ولا يتمثل في حالة النساء الحوامل الأخريات؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال تستلزم أولا التذكير بأنّ الله عز وجل قادر على خلق أو فعل ما يريد في الأرض أو في أي مكان آخر نعلمه أو نجهله دون الحاجة إلى إرسال أي ملك. فكان قادر على خلق عيسى في بطن مريم بكلمته 'كن فيكون' فقط، كما هو قادر على خلق الحياة في جنين أية امرأة حامل بطريقة مماثلة. ولكن الله العزيز الحكيم يُكلف الملائكة لأداء بعض المهام وذلك لحِكَمٍ هو يعلمها، لقوله ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝75۝﴾ [الحج].

فمن بين الحِكَم من وراء إرسال ملَك إلى مريم وتمثُّلِه لها في هيئة بشر سوي، هو جعل مريم ترى بعينيها وتسمع بأذنيها رسول ربها وهو يبشرها بغلام زكي حتى لا تندهش ولا تهلع من الحمل الذي سيكون في بطنها بأمر ربها المقضي دون أن يمسسها بشر. وهذا من لطف الله اللطيف على عباده الصادقين. أما في حالة الحمل الطبيعي، فالمرأة الحامل لا يصيبها أي اندهاش من حملها لأنها تعلم عين اليقين من التجارب التي تراها في الطبيعة أنّه جاء نتيجة لجماعها مع ذكر. لهذا لا يستوجب أن يأتيها ملك في هيئة بشر سوي عند نفخ الروح في الجنين.

الخلاصة

أقول –والله أعلم– إنّ عجينة الطين التي خلق الله بها آدم بيديه لا شك أنها تشبه في جوهرها عجينة الطين التي خلق عيسى بها الطير بيديه، كما تشبه إلى حد ما عجينة المواد الترابية: (نطفة ...) الموجودة في ماء آدم والتي خلق الله بها حواء، و(بويضة ...) الموجودة في رحم مريم والتي خلق الله بها عيسى، و(نطفة + بويضة ...) التي يخلق الله بها بني آدم. أما فيما يخص الوقت المستغرق لخلق كل واحد منهم، فنجد أنّ الطير لابد أنّه لم يتعد لحظات حتى أصبح طيرا، لأنه كان يُخلق للناس الحاضرين، كما أنّ عيسى لا شك أنّه لم يستغرق وقتا طويلا حتى أصبح جنينا حيا في رحم مريم، لقول الله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝22۝﴾ [مريم]، وأنّ بني آدم كما هو معروف لا يتعدى بضعة أسابيع حتى تُنفخ فيه الروح فيصبح جنينا حيا، وأعتقد أنّ حواء لم تستغرق كذلك وقتا طويلا. وأما الوقت المستغرق في خلق آدم، الذي خُلق بيدي الله مباشرة من طين، فيبدو أنّه لم يكن طويلا أيضا.

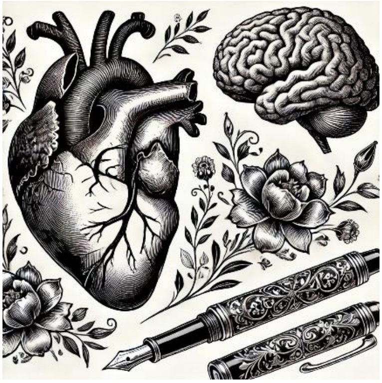
فمن خلال تحليلي المقارن لخلق الله لآدم وخلقه لبني آدم وحواء وخلقه لعيسى وخلق عيسى للطير، يتضح جليّا أنّ القدرة الإلهية جعلت لهذا الخلق مرحلتين أساسيتين. فخصصت المرحلة الأولى لخلق وتسوية مَثَل لهذه المخلوقات من تراب، والمرحلة الثانية للنفخ فيه ليكون مخلوقا حيا. فالاختلاف الجوهري هو في كيفية خلق هذا المثَل، حيث يمكننا تمييز ثلاثة طرق لذلك على الأقل: الخلق بيدي الله (في حالة آدم)، الخلق بالنفخ (في حالتي عيسى وطيره)، والخلق بالنطفة (في حالتي حواء وبني آدم).

ولعلى قول الله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝2۝﴾ [الملك]، دليل على أنّ الخلق يتم في مرحلتين أساسيتين، فهذا الترتيب (الموت قبل الحياة) هو تأكيد على خلق أولا المواد الميّتة من الماء والتراب وصولا إلى مَثَل المخلوق، ثم خلق الحياة بالنفخ في هذا المثَل.

إذن، يمكن تسمية المرحلة الأولى بمرحلة خلق الموت، والمرحلة الثانية بمرحلة خلق الحياة، وهذا يتطابق كليا مع الآية {2 الملك}، فلفظ 'الموت' الذي جاء فيها يشير إلى الجمادات والمواد الترابية التي خُلقت في المرحلة الأولى، وأما لفظ 'الحياة' فهو يشير إلى المخلوقات الحيّة التي خُلقت في المرحلة الثانية، فكل منتوجات المرحلتين جعلها الله زينة ليبلو بها الإنسان، وذلك لقوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝7۝﴾ [الكهف].

إنّ القدرة الإلهية قد جعلت من مرحلتي التهيئة والنفخ نمطا متجليا في حياتنا. فنحن نهيئ البساتين ثم نحييها بزراعتها، ونبني البيوت مجهزة بكل ضروريات الحياة ثم نحييها بالسكن فيها، وننشئ القرى ثم نحييها بالعيش فيها. وكذلك نصنع السيارات ثم نحييها باستخدامها، ونخترع الحواسيب والأجهزة التي تسمع وتتكلم وترى وتشم وتتذوق وتلمس وتتحرك، ثم نحييها بأنظمة ننفخها فيها لتصبح قادرة على تلبية احتياجاتنا. وهكذا يتجلى هذا النمط في كل مجالات حياتنا، ليعكس تناغما بديعا بين العمل البشري والنظام الإلهي الذي نفخه الله في الإنسان.

الفصل الثامن: كلام المسيح عيسى في المهد



تمهيد

من بين الآيات البيّنات التي ميّز الله بها المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام عن غيره من الخلق كلامه في المهد الذي جاء في القصة التي تتحدث عنها الآيات التالية:

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۞27۞ يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۞28۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۦ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۞29۞ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞30۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞31۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞32۞ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۞33۞﴾ [مريم].

لقد تمكنت في الفصل السابق بتوفيق من الله من إبصار مراحل خلق الله الاستثنائي لعيسى ومقارنتها بنجاح مع مراحل خلق الله لآدم وذريته، وأما في هذا الفصل فسأبقى دائما في سياق هذه المقارنة وأطرح السؤال الجوهري: لماذا علّم الله آدم الأسماء كلها وجعل عيسى يُكلّم الناس في المهد؟

إنّ هذا السؤال يندرج ضمن ضرورة استعمال القرآن واستغلاله في تنوير القلوب واصلاح العقول وإظهار الصراط المستقيم. فالقرآن أنزله الله ليتدبره الناس وليعتبر به أصحاب العقول السليمة، لقوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۞29۞﴾ [ص].

وما قصص الأنبياء والرّسل المذكورة في القرآن إلاّ تبيان للحق وموعظة وذكرى للمؤمنين، لقوله تعالى ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿120﴾﴾ [هود]. فنجد أنّ قصة عيسى مثلها مثل القصص الأخرى لها دلالات عظيمة كثيرة لمن أراد أن يتدبر.

وأخُص بالذِّكر هنا كلام عيسى في المهد كي أجيب على السؤال السابق، وأنور الأمة ببصائر جديدة، واستخلص عبر كثيرة في غاية الأهمية، أتمنى أن يستفيد منها المسلم في حياته الدنيوية وأن تساعده في الفوز بالأخرة.

كلامه نتيجة تقوى الله

إنّ استثناء الله لعيسى وجعله يُكلّم الناس في المهد تكليما فصيحا له أسباب وحكم كثيرة، والظاهرة منها أنّ الله أراد أن يدافع عن شرف مريم العذراء بطريقة لا تخطر على بال أحد من العالمين، كما أنه أراد أن يبين لها وللمؤمنين جميعا أنّ من يتق الله ويتوكل عليه يجعل له مخرجا ويجعل له من أمره يسرا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿2﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿3﴾﴾ [الطلاق]، فسبحان الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿62﴾﴾ [النمل].

فكان الله إلى جانب مريم لأنها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿12﴾﴾ [التحريم]، كما كان إلى جانب إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وفداهما بذبح عظيم لأنهما احتسبا وصبرا وسلّما أمرهما لله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿102﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿103﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ ﴿104﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿105﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿106﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿107﴾﴾ [الصافات].

كلامه بيّنة خلق الله الاستثنائي

رغم أنّ جَعْل الله مريم تحمل بعيسى دون أن يمسسها بشر آية من آيات الله العظيمة، إلاّ أنّ هذا الخلق الاستثنائي يمكن اعتباره معجزة خفيّة غير ظاهرة، لأنّه لا يمكن أن يشهد على صحتها إلاّ الله والملائكة ومريم، فالتصديق بها صعب للغاية ويحتاج إلى بيّنة تليق بمقام عظمتها، لأنها خارقة للقوانين والسنن التي يعرفها ويستوعبها العقل الإنساني، فلا شك أنّ الكثير ممن سمع في زمن ولادة عيسى أنّ هناك امرأة في القوم الفلاني وفي العائلة الفلانية أنجبت صبيا دون أن تجامع أحدا قالوا إنّ هذه القصة من الخرافات.

أما أقرب الأقربين لمريم فكانوا في حيرة من أمرهم عندما رأوها هم وقومهم قادمة إليهم وهي تحمل صبيا ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝27۝ يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝28۝﴾ [مريم]، حيث من جهة كانوا متفاجئين بهذا الذي يشاهدونه بأم أعينهم، ومن جهة أخرى كانوا متيقنين بأنّ مريم لا تقوم بالأمور الخاطئة ولا تأمرها نفسها بالسوء ولا يقربها الشيطان أبدا، وذلك من خلال عشرتهم لها ورؤيتهم لأخلاقها المثالية وإيمانها الصادق.

وكي يُطمئن الله عائلة مريم ويُثبّت إيمان المؤمنين ويُزيل عنهم الحيرة ويُبيّن لهم أنّه معهم في صفهم، نجد أنّه لم يجعل مريم تشهد على براءتها بنفسها عندما أتت قومها بابنها تحمله لأنها متهمة والمتهم لا تُقبل شهادته أمام المجتمع ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۦ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝29۝﴾ [مريم]، ولكنه سبحانه وتعالى تكفّل بهذه الشهادة بنفسه، فجعل كلام عيسى في المهد آية ثانية ظاهرة ساطعة تشهد على آية الخلق الاستثنائي الخفيّة الأولى، ومن خلالهما أظهر الله للناس عظمته وقدرته في الخلق.

فلا شك أنّ الكثير من الحاضرين، الذين شاهدوا بأم أعينهم وسمعوا بآذانهم عيسى الصبي وهو يتحدث للناس في حِجر أمه مريم بطلاقة وبكلام فصيح ومعبّر، اقشعرت جلودهم من هذه الآية العجيبة الظاهرة، ثم لانت جلودهم وقلوبهم إلى التصديق بآية الخلق الاستثنائي الخفيّة، فصدّقوا كلامه الذي يؤكد فيه أنّه عبد الله ورسوله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

﴿30﴾ [مريم] وأنّه ابن مريم ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿32﴾ [مريم]، ثم اتبعوا الدين الذي جاء به والتزموا بتعاليمه. فأصبحوا هم الشهود الأوفياء على أمر عيسى العظيم، وكان الحاضر يُخبر الغائب بالقصة، حتى انتشرت في جميع مناطق بني إسرائيل، فآمن آخرون بعيسى بسبب هؤلاء الشهود الذين يمثلون الدليل. وكان الشهود في تزايد مستمر لأنّ كلام عيسى في المهد لم يقتصر على المشهد الأول بل كان يتكرر في مرحلة المهد كلها التي لا تقِل عن شهور، وهذا نفهمه من القرآن الذي جاءت فيه صيغة المضارع الذي يفيد استمرار وتكرار الفعل 'إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا'.

أما الذين قست قلوبهم من بعد حضورهم أو سماعهم ذلك المشهد العظيم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة، أو الذين انبهروا بالمشهد وبمعجزات عيسى حتى اتخذوه وأمه إلهين من دون الله رغم أنهم سمعوا كلامه الذي يشهد على نفسه بوضوح على أنّه المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، فقد أشركوا وكفروا بالله وضلوا ضلالا بعيدا ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿73﴾ [المائدة]. ولكن عيسى بريء مما يقولون ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿116﴾ [المائدة].

وأما موقف المسلمين من هاتين المعجزتين الظاهرة والخفية ومن عيسى بصفة عامة فيجب أن يكون لا غبار عليه ولا شرك فيه، وأن يكون منبثقا حصريا من القرآن الذي يؤمنون ويوقنون بكل صغيرة وكبيرة جاءت فيه، وهذا الإيمان يُلزمهم التصديق المطلق بكل ما شهد عليه الله وأخبرنا به في القرآن بخصوص قصة عيسى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿62﴾ [آل عمران] أو غيرها من القصص ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿3﴾ [يوسف]، والله الخالق السميع البصير هو أصدق شاهد وهو الذي أحاط بكل شيء خبرا ﴿وَمَا تَكُونُ

فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿61﴾﴾ [يونس].

تشبيه قصة عيسى بقصة نزول القرآن

إنّ قصة عيسى في هاتين المعجزتين الظاهرة والخفية تشبه إلى حد كبير قصة محمد صلى الله عليه وسلم في نزول الوحي والقرآن، حيث نجد أنّ نزول الوحي على محمد هو أبرز الأحداث التاريخية التي عاشها عالمي الإنس والجن، ولكنه كان آية خفية وأمر غير ظاهر للناس فلا شهود على ذلك إلاّ الله مُنزل الكتاب وجبريل رسول الوحي ومحمد متلقي القرآن. فإقناع الناس بأمر النزول هذا في ذلك الزمان وخاصة عند بدايته شيء عسير.

ولكن أقرب الأقربين لمحمد صدّقوا بكل ما أخبرهم به عن هذا الأمر من يوم بدايته، والسبب في ذلك كونهم كانوا يعرفون خصاله حق المعرفة في الفترة التي عاش فيها معهم قبل هذا الأمر ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿16﴾﴾ [يونس]، حيث شهدوا في تلك الفترة أنّه سليم العقل وصدوق اللسان ونقي القلب وراع للأمانة والعهد وأنّه يتصف أيضا بكثير من الأخلاق الحميدة الأخرى التي ميزته عن غيره من شباب زمانه. ومن بين هؤلاء الأقربين أخص بالذكر هنا زوجته خديجة وصديقه أبا بكر رضي الله عنهما.

أما البعض الآخر من غير المقربين لمحمد فقد صدّقوا بمعجزة نزول الوحي الخفيّة من خلال نص القرآن (المعجزة الظاهرة) وما يحتويه من علوم، وذلك كلٌ حسب مقامه، حيث :

– بعدما سمع جهابذة البلاغة العربية القرآن، أقرّ بعضهم بأنّه لا يمكن أن يكون من صياغة البشر ولو كانوا من أعظم الشعراء والخطباء ناهيك عن الأميين كمحمد الذي لم يُعرف عنه الشعر ولا الخطابة قط، فكان اعجازه لهم كإعجاز عصا موسى لأعظم سحرة فرعون.

– وبعدما علم العارفون بالتاريخ والديانات السابقة من العرب والعجم ما يحمله القرآن من حقائق تاريخية دقيقة، اعترف بعضهم بأنّه لا يمكن لأحد من البشر أن يكون مُلِما بكل

هذه الحقائق.

– وبعدما أدرك علماء العرب والعجم أنّ القرآن يتوافق كليا مع حقائق علمية مكتشفة في مختلف الميادين كالطب والفلك وغيرها، تيقن بعضهم أنّ العلم الذي يحتويه يستحيل أن يكون قد وصل إليه البشر من قبل.

– وبعدما أبصر البعض الآخر من ناس المعمورة أنّ كل ما يدعو إليه القرآن من العدل ومكارم الأخلاق التامة وغيرها من الفضائل وكل ما يُسطّره كمنهاج ليُخرج به العباد من الظلمات إلى النور يستحيل أن يكون من وضع كائن كالإنسان الظلوم الجهول. حيث نجد أنّ كل إنسان يستطيع العثور على ضالته في القرآن: المرأة تُعزّز ولا تُوأد والرجل يُطاع ولا يُهان، العبد يستعيد حريته والسيّد يُدرك إنسانيته، الأسود يسلم من التمييز العنصري والأبيض يتخلّص من مرض الكبر، الفقير تُعطى له الزكاة والصدقة والغني تُربى وتُطهّر أمواله بالزكاة والصدقة، المريض يُشفى بالقرآن والسليم يُصان ويُحصّن بالقرآن، الصغير يُرحم والكبير يُوقر، المحكوم ينال العدل الكامل والحاكم يُبجّل بالبيعة الصادقة، الضّال يُهدى والسّوي يُثبّت، العربي يُشرَّف والأعجمي يُكرَّم، وهذه الأمور ليست إلاّ بعضا من سمات الإسلام.

– وللقرآن جوانب إعجازية أخرى وميزات جذّابة عديدة، لا يمكن حصرها هنا، جعلت فئات كثيرة أخرى من الإنس والجن يُصدّقون بأنّه كلام الله ويدخلون في دين الإسلام أفواجا.

وأما الملحدون والكفار والمشركون الذين يزعمون أنهم يُكذّبون بهذه المعجزات والحجج البالغة التي جاء بها القرآن فقد كشفهم الله بأنّ نيتهم في ذلك الجحود فقط، وذلك لقوله تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿33﴾﴾ [الأنعام]، وقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿14﴾﴾ [النمل]، ولهذا لا يجب على المسلم أن يُهلك ويُرهق نفسه حزنا على جحود هؤلاء الضالين ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿8﴾﴾ [فاطر].

بعد مقارنة وتحليل قصتي عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، يتضح جليا أنّ معجزة القرآن الظاهرة هي حُجّة بالغة على صحة معجزة نزول الوحي الخفية، وهذا يشبه إلى حد كبير معجزة كلام عيسى في المهد الظاهرة التي كانت بيّنة على صحة معجزة الخلق الاستثنائي الخفيّة.

ولكن هناك فرق شاسع بين المعجزتين الظاهرتين، وهو أنّ كلام عيسى في المهد هو معجزة محدودة بالمكان والزمان، وكانت لمن كان يحضر المشهد فقط، وأما معجزات القرآن فتبقى خالدة معه وتُشاهَد في كل مكان، وحقائقه العلمية والخبرية تبقى تتحقق مع تطور العلم إلى يوم القيامة، وهنا يكمن سر حفظ الله له.

فلا مجال لمقارنة القرآن بالتوراة والإنجيل مثلا، لأنهما كانا قبل تحريفهما منهجين ربانيين فقط، فدعمهما الله بمعجزات ظرفية كالعصى التي تتحول إلى حيّة وخلق الطير، أما القرآن فهو أكمل في المنهج وأوسع في العلم.

ويمكن الاستدلال على هذه الحقيقة بمنطق بسيط نستعمله في حياتنا العملية، حيث نسعى دائما لاقتناء الطبعة الجديد للكتاب لأنها أكمل من السابقة، ونبقى نتطلع إلى الطبعة القادمة لأننا متأكدون أنها أكمل من التي بين أيدينا، وهكذا، ولله المثل الأعلى.

ولكن القرآن هو كتاب الله الأخير الذي جعله للناس قاطبة إلى يوم القيامة وليس بعده أيّة طبعة، إذن هو أكمل من جميع الكتب السماوية التي سبقته وهو صالح لكل الأجيال القادمة. وهذا الاستدلال يُغني المتعطش للحقيقة من المقارنة المملّة والمتعبة بين آيات القرآن ونصوص الكتب السماوية السابقة المحرّفة.

ومن خلال تحليلي للقصتين، أستخلص أيضا أنّ للأخلاق دورا جوهريا في كسب الناس وضمان تأييدهم، حيث رأينا كيف ساهمت أخلاق مريم في إقناع المقربين لها بمعجزة الخلق الاستثنائي الخفيّة، وكيف أثّرت أخلاق محمد على من كان يعرفه في التصديق دون تردد بمعجزة نزول الوحي الخفية. وهذا يدفعني للبحث عن منافع الأخلاق في هاتين القصتين المتشابهتين في جزئيات عديدة.

الأخلاق والغبط

الحسد صفة مذمومة وهو مرض من أمراض القلوب يجعل صاحبه يتمنى زوال النّعمة عن الغير ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿54﴾﴾ [النساء]، ولكنّ مرضه هذا يفتك به أولا قبل أن يطال شرّه الذين أنعم الله عليهم ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿5﴾﴾ [الفلق]، حيث تجده دائما منشغل بالآخرين، فيعيش معيشة ضنكا ولا يتذوق السعادة أبدا. والحسد لا يقتصر على النّعم المادية بل يطال أيضا نعمة الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فنجد الملحدين والكفار يحسدون المؤمنين على إيمانهم بغيظ شديد، وما الحرب التي نعيشها اليوم على الإسلام إلاّ دليل على هذا الحسد الذي أظهره هؤلاء بعد أن استيقنت أنفسهم نور هذا الدين، وذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿109﴾﴾ [البقرة].

ولخطورة الحسد وعواقبه الوخيمة على صاحبه والمجتمع فقد نهى الرّسول عنه (عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ علَى بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا. المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هاهُنا. ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. بحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ. كُلُّ المُسْلِمِ علَى المُسْلِمِ حَرامٌ؛ دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ." صحيح مسلم 2564).

أما الغبطة التي هي تمني مثلَ ما عند الغير من النِّعم دون أن يحسدهم عليها أو يُريد زوالها عنهم، فهي مباحة ونافعة ولا ضرر ينجم عنها، لأنها في كثير من الأحيان تُحفّز صاحبها للأخذ بالأسباب لامتلاك مِثْل هذه النّعم، فتُنتج منافسة حميدة تنفع الفرد والمجتمع في النهوض بالاقتصادي والسمو بالأخلاق .

وهذا طبعا لا يتحقق إلاّ إذا كان صاحب الغبطة ذو بصيرة، فتجعله يُميّز حق التمييز

بين ما هو نعمة وما هو عمل حزب الشيطان، وبهذا لا تكون غبطته إلاّ على الأمر الذي يعود بالنفع في الدنيا والآخرة، ولا يمكنه أن يكون ذا بصيرة إلاّ إذا كان مرجعه في هذا التمييز القرآن والسُّنّة الصحيحة. ولكن للأسف الشديد نجد في مجتمعنا الكثير من الناس هجروا هذا المرجع، فطُمست أبصارهم فأصبحوا يرون كل ما عند هذا الحزب نعمة، وذُلت شخصياتهم فصاروا يلهثون وراء ذلك بالإتباع الأعمى، ويصدُق فيهم قول الرّسول (عن أبي سعيد رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ؟" صحيح البخاري 3456).

وأحسن مثال في الغبطة نجده عند المصطفين الأخيار، وبالتحديد عند زكريا النبي عليه السلام عندما غبط أفضل نساء العالمين مريم عليها السلام على أعظم نعمة وهي الأخلاق الطيبة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝37۝ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝38۝ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝39۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝40۝ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةًۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝41۝﴾ [آل عمران].

الأخلاق والعلاقة الزوجية

كانت خديجة امرأة شريفة ذات ثروة وجاه، وكانت تُكلِّف رجالا يقومون بمهام تجارتها، ومن بين الذين قاموا بهذه المهمة محمد الذي جلب لها ربحا كبيرا يُقدّر بأضعاف مما كانت تجنيه من قبل، فخطف انتباهها، ثم بدأت تتحرى عن قرب السر وراء ذلك، فوجدت أنّ الشاب يتميز عن غيره بالإخلاص المطلق في عمله وبالصدق الحقيقي مع نفسه ومع غيره وبالوفاء الحازم

في عهوده مع الآخرين وبالرعاية التامة للأمانة وبالأخلاق الحسنة التي جعلته محبوبا عند الجميع، فعرضت عليه الزواج، ثم تزوجها قبل نزول الوحي بحوالي خمسة عشرة سنة، فكان نعم الزوج وكانت نعم الزوجة. وكانت خديجة هي الأولى التي أسمعها محمد خبر نزول الوحي، فصدّقت بالخبر دون تردد أو تململ وكانت له ناصرا ومعينا، وهذا جاء في الحديث رقم 3 الطويل المشهور الذي رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فإذا قمنا بتحليل هذه العلاقة الزوجية الفريدة من نوعها لاستخلاص بعض العبر منها، نجد أنّه لا يجب على الإنسان أن يتوهم أنّ كل ما في الأمر هو العثور على الزوجة الصالحة الشريفة لضمان تآزرها المطلق له في كل الأمور مهما كانت عظمتها، بل يجب عليه أولا أن يكون جديرا بمثل هؤلاء النساء، وذلك بالاتصاف الطبيعي في الخفاء والعلن بالأخلاق التي ذكرتها سابقا، وأن يكون هذا الاتصاف ليس مع زوجته فقط بل يجب أن يكون كذلك مع جميع الناس وحتى مع الحيوان والنبات، حتى لا تراه ذو وجهين أو تبصر فيه ذرة من النفاق، فإن كان كذلك حقا وميّزها بإحسان خاص بالعلاقة الزوجية (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا . وخيارُكم خيارُكم لنسائهم." رواه الترمذي في سُننه 1162)، فليكن مطمئنا ومتيقنا أنّه سيحقق معها علاقة مميّزة تجعلها لا تطيعه وتآزره فقط بل تعبده وتسجد له سجود يعقوب وعائلته ليوسف عليهم السلام. وإذا كانت الزوجة من جهتها تتصف بهذه الأخلاق وبالكيفية المماثلة، فإنّ زوجها لا يجعلها تاج فوق رأسه فقط بل يحفظها في بؤبؤ عينه، ثم يُولجها إلى قلبه فيغرسها في لبه حتى يلقى ربه، فتكون له حور عين في الجنة بإذن ربها وليها ومولاها ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝54﴾ [الدخان].

الأخلاق والصحبة الصالحة

والآن أقف عند علاقة الصداقة المثالية التي كوّنها محمد بأخلاقه مع أبي بكر الذي رغم أنّه كان من أثرياء وأبرز تجار قريش وأشرفهم، إلاّ أنّه لم يمنعه هذا المقام من أن يتصف هو أيضا منذ صغره بكثير من الصفات والخصال الرفيعة التي ذكرتها سابقا، لهذا السبب اتخذه محمد

صاحبا منذ فترة طويلة قبل البعثة وكان من بين أعز أصدقائه. فعندما نزل الوحي أول مرة، كان أبو بكر أول من صدّق هذا النبأ العظيم من الرجال، وقد جاء هذا في (قال الرّسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وقَالَ أبو بَكْرٍ: صَدَقَ، ووَاسَانِي بنَفْسِهِ ومَالِهِ، فَهلْ أنتُمْ تَارِكُوا لي صَاحِبِي؟ (مَرَّتَيْنِ)، فَما أُوذِيَ بَعْدَهَا" في الحديث 3661 الذي رواه البخاري عن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله). فأصبح هذا التصديق التلقائي من طرف أبي بكر يتكرر في جميع الأحداث التي مرّ بها الرّسول الصادق حتى لُقِّب بالصدّيق. فنمت وربت هذه العلاقة المبنية على الصدّق والتصديق حتى بلغت أعلى مرتبة يمكن أن يحققها بشران فيما بينهما (قال الرّسول صلى الله عليه وسلم: "إنّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته ومالهِ أبا بكر، ولو كنتُ متخِذاً خليلاً غير ربي لاتخذتُ أبا بكر، ولكنْ أُخُوَّة الإسلام ومودَّته" في الحديث 3654 الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله).

ومن خبايا هذه العلاقة المثالية في الصداقة يتضح جليّا أنّه من الخطأ أن يعتقد الإنسان أنّ كل ما في الأمر هو مصاحبة الأشخاص ذوي الأخلاق السامية فقط، بل يجب عليه أولا أن يكون أهلا لهؤلاء الأشخاص، وذلك بتكوين نفسه وترويضها على الأخلاق الفاضلة حتى يطمح الجميع في مصاحبته. ويمكنه أيضا الاستفادة من هذه القاعدة في تربية أولاده، فأقول له: نعم من الواجب عليك أن تَحرص على ألاّ يُخالط أولادك إلاّ الأشخاص الأصفياء الأتقياء، ولكن قبل ذلك يجب عليك أولا أن تُطهِّر سرائر أولادك بالقرآن والسُّنّة من كل دنس ومرض حتى يصبح الصدق مع أنفسهم ومع غيرهم يسري في عروقهم عفويا لا يشوبه شكل من أشكال النفاق، ويتحقق الإخلاص في إيماهم بالله فيجعلهم لا يحبون ولا يبغضون إلاّ في الله، وهكذا تضمن أنّ أولادك محصّنون فلا يختارون لأنفسهم إلاّ الصحبة الصالحة ولا يسلكون إلاّ الصراط المستقيم، فينفعون المجتمع بنورهم وهداهم، ويعود الخير الكثير عليك وعليهم في الدنيا وفي الآخرة، وبهذا تكون إن كنت تقيا قد أطعت الله كما أمرك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿6﴾﴾ [التحريم].

كلامه إشارة إلى أصل اللغة والعلم

إنّ هذا الاستثناء له حكمة عظيمة أخرى يريد الله من خلالها أن يبيّن لنا أنّه قادر على خلق الناس جميعا ومعهم منذ الولادة كل ما يلزمهم من علوم الدنيا والآخرة دون الحاجة إلى التعلم من الإباء أو العائلة أو المجتمع أو الطبيعة. فالله البارئ جعل لعيسى ملكات اللغة والعلم والحكمة دفعة واحدة وهو في المهد، وفي المقابل نجد أنّ الله جعل الناس الآخرين يتعلمون اللغة ويأخذون من العلم تدريجيا من المهد إلى اللحد، أي أنّه أودع في خلقه سُنّة التعلم على مراحل كما بثّ فيهم قانون التناسل الذي يجعلهم يُخلَقون على مراحل أيضا، ولكنه سبحانه وتعالى أظهر لبني إسرائيل ولنا عبر القرآن بعض ما يمكن أن تفعله سننه وقوانينه الخاصة الاستثنائية كخلقه لعيسى وجعله يُكلّم الناس في المهد.

إنّ قصة هذا الاستثناء لم تأتي في القرآن عبثا، بل جاءت لتجيب الناس الذين يتساءلون عن مرجع اللغة التي كان يتحدث بها آدم وعن مصدر العلم الذي احتاجه في حياته، وهو ليس له أب أو أم أو عائلة أو مجتمع يُعلّمه ويتعلم منه. إذن، جاءت ليعلم هؤلاء الناس أنّ الله العزيز الحكيم خلق آدم بيديه من طين بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه، وبعدها مباشرة تكفل بنفسه بتعليمه اللغة والأسماء كلها وأتاه من علمه دفعة واحدة بطريقة مماثلة للتي جعل بها عيسى يُكلّم الناس في المهد بكلام فصيح وعلم مبين أو بطريقة أخرى هو أعلم بها، وما ذلك على الله بعزيز.

فبهذا يجب على كل من يُصدّق بكلام عيسى في المهد وبخلقه للطير من الطين مباشرة حق التصديق أن لا يتوهم أنّ مصدر آدم ولغته وعلمه كان لبشر من طين عاش قبله، وأن لا يتأثر بالأفكار المزيّنة والفرضيات المغلوطة لما يسمى بنظرية التطور التي تقصي في جوهرها سنن وقوانين الخالق الاستثنائية التي حجبها الله عنا وأوجب علينا الإيمان بها، وما تعتمد في تصوراتها الخاطئة إلاّ على النواميس العامة التي ارانا الله إياها وسخرها لنا، فكل من يقترب من هذه النظرية ويبدي لها بعض من العطف تلقمه ثم تقذف به إلى باطن الإلحاد، الذي يقذف بدروه معتنقيه إلى باطن جهنم، فليحذر من يؤمن بجهنم ويخاف على نفسه وأهله من سعيرها.

فأقول لمعتنقي هذه النظرية الذين يقولون أنّ آدم قد تطور وأُنتقي من جنس كان يعيش

في الأرض قبله فأخذ من لغتهم وعلمهم، أنّ حجّتكم واهية أمام حجّة الله البالغة المتمثلة في هذا الاستثناء العظيم (خلْق الله لعيسى وجعله يُكّلم الناس في المهد ويخلق طيرا كاملا متكاملا من الطين مباشرة) الذي شهده بنو إسرائيل وتشهدون أنتم عليه من خلال القرآن، فعودوا إلى رشدكم وآمنوا بالقرآن والسُّنّة الصحيحة جملة وتفصيلا.

فليتأكد هؤلاء أنّ آدم هو أبو الناس كافة ولم يكن قبله إنسان، ولغته التي عَلّمه الله إياها هي أم اللغات جميعا، وعِلمه الذي آتاه ربه هو أصل ومفتاح العلوم كلها. فبعد النفخ مباشرة، أصبح آدم إنسان كامل بوعيه وإدراكه وسمعه وبصره ولسانه وفؤاده وغيرها من الأعضاء والأجهزة والقدرات والمواهب التي تُؤهِّله لمواجهة تحديات الحياة وتُمكِّنه من أخذ العلم وتطويره وتعليمه لأسرته. فأصبحت تتراكم وتتطور معارف وخبرات الإنسان عبر الزمن وتبقى على هذه السُّنّة الإلهية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فهذه السُّنّة الإلهية في التطور التدريجي للعلوم واللغات من جيل إلى جيل لا شك أنّها لم ولا تتحقق إلاّ باستعمال العقل الذي وهبه الله للإنسان وميّزه عن غيره من المخلوقات الظاهرة في هذا الوجود. ولكن هذا العقل لا يكفي وحده لتمكين الإنسان من الاستغلال الأمثل والكامل لما سخره الله له في هذا الوجود، ولهذا استلزم في بعض الأحيان التدخل المباشر من الله من خلال تعليم انبياءه بعض أساسيات الحياة، كتعليمه لنوح عليه السلام صنع الفلك ولداود عليه السلام تليين الحديد وصنع اللبوس، وغير ذلك من الأمثلة، وأعتقد أنّ الله يبقى يُلهم عباده، الذين يجتهدون في البحث عن حقائق الأمور، الأفكار والمعارف النافعة الجديدة إلى يوم القيامة.

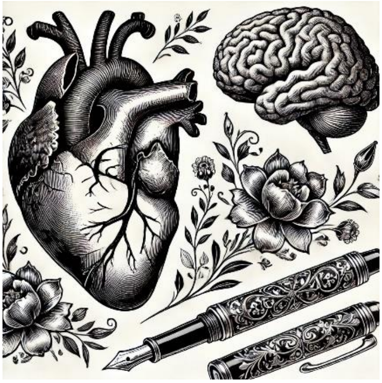
كلامه دليل الهداية الإلهية

وكلام عيسى في المهد، الذي يبيّن أيضا هداية التوحيد والإيمان الكاملة التي أودعها الله فيه منذ الولادة، يوحي أنّ الله قادر على أن يجعل الناس جميعا على الهدى وعلى طريق الإيمان منذ الولادة، وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ

مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿35﴾ [الأنعام]. ولكنه ميّز الإنسان بالعقل كي يُسخّره في طلب العلم والبحث عن حقيقة التوحيد والإيمان ليدركها بنفسه على بيّنة وبصيرة، ويكون اقتناعه بها بعد ذلك أصله ثابت وفرعه في السماء، لا تقتلعه الرياح العاتية، ولا تغطيه الزوابع الرملية الكثيفة، ولا ينخره السوس مهما كثر، وبذلك يفوز بجائزة الله الكبرى، وهي السعادة في الدنيا وفي الآخرة.

ولكن طريق البحث هذا تتخلله أمور غيبية تُصعِّب على العقل الوصول وحده إلى المبتغى من دون توجيه إلهي، لأنّه ضعيف حتى في معرفة الأمور المادية الملموسة التجريبية، كما بيّنت ذلك سابقا وأكدت أنّه يحتاج إلى التدخل المباشر لخالقه، لذلك نوّر الله هذا الطريق بتنزيل كتب من عنده، وجعل القرآن المحفوظ من كل تزييف منهاجا ودليلا يوصل بسلام إلى المبتغى وإلى الفوز الحقيقي في الدارين.

الفصل التاسع: معجزات المسيح عيسى المغلوطة



تمهيد

إنّ عيسى عليه الصلاة والسلام، الذي فصلتُ قصته في الفصول السادس والسابع والثامن، إنسان وُلد من دون أب، بعثه الله رسولا إلى بني إسرائيل، فأيده بروح القدس، فكلّم الناس في المهد وكهلا، وعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، كما كرّمه وأيده بمعجزة خلق الطير التي وردت في القرآن الكريم في آيتين متشابهتين وهما:

الآية القرآنية الأولى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝49﴾ [آل عمران].

الآية القرآنية الثانية: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝110﴾ [المائدة].

إنّ جميع المفسرين لهاتين الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} أجمعوا من خلالهما على أنّ عيسى كان يخلق الطير، ويشفي الإنسان الأكمه، ويشفي الإنسان الأبرص، ويُحيي

الإنسان الميت، ويُنبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

إنّ هذا التفسير الظاهري خطير جدا، وعواقبه وخيمة، وقد يرقى إلى الافتراء عن غير قصد على نبي الله عيسى على أنه كان يشفي مرضى الإنس، ويُحيي موتى الإنس، ويعلم الغيب. إذن، ما هذا إلاّ دعم مباشر أو غير مباشر للعقيدة الخاطئة التي تُؤَلِّهُ عيسى والسائدة عند النصارى.

والصواب في الأمر، كما سأستنبطه بالبرهان في هذا الفصل، هو أنّ الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} تشيران بالتكامل مع بعضهما البعض إلى معجزة واحدة فقط، وهي خلق طير كامل متكامل. كما سأكتشف السبب الحقيقي وراء وجود عبارة 'فَأَنْفُخُ فِيهِ' في الآية الأولى {49 آل عمران}، وعبارة 'فَتَنْفُخُ فِيهَا' في الآية الثانية {110 المائدة}. ثم، سأستنتج المعنى الحقيقي والدقيق لكلمة 'الأكمه'، وسأشير إلى نوع الطير الذي كان يخلقه عيسى.

خلق الطير هي المعجزة الوحيدة لعيسى

أبدأ تفسيري بعون الله تعالى بالآية الأولى {49 آل عمران}.

لا شك أنّ هذه الآية القرآنية تتحدث بكل وضوح عن آية (معجزة) واحدة فقط جاء بها عيسى من الله لقومه، وأدلتي على ذلك هي:

الدليل الأول

نجده واضحا في بداية قول عيسى، حيث قال: 'أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ **بِآيَةٍ** مِنْ رَبِّكُمْ'، ولم يقل لهم 'أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ **بآيات** مِنْ رَبِّكُمْ'. فبعد هذه البداية مباشرة، راح يصف لهم باختصار دقيق بيّنات معجزته الوحيدة. لذلك بدأ هذا الوصف بكلمة 'أَنِّي'، ولم يكررها قط، بل استعمل في جمع دلالات المعجزة واو العطف فقط، لتكون هذه المتعاطفات كلها بيّنات المعجزة الواحدة.

أيضا، فلو كانت الآية الأولى {49 آل عمران} تشير إلى معجزات عظيمة مختلفة، كما ذهب إليه جميع المفسرين، لكرر عيسى كلمة 'أَنِّي' للتأكيد على ذلك، ولقال لهم 'أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ **وأَنِّيَ** أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ **وأَنِّيَ** أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ **وأَنِّيَ** أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ'. لأنّ الأداة 'أَنَّ'

غالبا ما تأتي في القرآن مكررة للتأكيد على الأشياء العظيمة المختلفة، كما في الآيات الثلاثة التالية:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿98﴾﴾ [المائدة].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿78﴾﴾ [التوبة].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿6﴾﴾ [الحج].

الدليل الثاني

نجده في ختام الآية الأولى {49 آل عمران}، وبالتحديد في الجملة 'إِنَّ فِي ذَلِكَ **لآيَةً** لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ'، حيث أنّه لو كانت الآية الأولى {49 آل عمران} تشير فعلا إلى أنّ عيسى يخلق الطير، ويشفي الإنسان الأكمه، ويشفي الإنسان الأبرص، ويُحيي الإنسان الميت، ويُنبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، كما ذهب إليه جميع المفسرين والعلماء، لكان ختامها 'إِنَّ فِي ذَلِكَ **لآيات** لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ'.

الدليل الثالث

نجده في الآية ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿50﴾﴾ [آل عمران]، التي تلي مباشرة الآية الأولى {49 آل عمران}، حيث يقول فيها عيسى 'وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ'، ولم يقل 'وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ'.

إن دل تكرار كلمة 'آية' بصيغة المفرد ثلاث مرات في الآيتين {49، 50 آل عمران} على شيء، فإنما يدل على أنّ عيسى جاء بآية واحدة فقط من ربه، وهي خلق الطير متى شاء، أي أنها معجزة واحدة مستمرة معه.

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ القرآن لا يستعمل صيغة المفرد لكلمة 'آية' إلاّ إذا كان السياق يتحدث عن آية واحدة فقط، كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿248﴾﴾ [البقرة].

ويستعمل المثنى في حالة وجود آيتين فقط، كما في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝12۝﴾ [الإسراء].

ويستعمل دائما الجمع عند وجود أكثر من آيتين، كما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝24۝﴾ [الروم].

إذن، بما أنّ الآية الأولى {49 آل عمران} ينطبق عليها هذا الطرح، فسياقها لا يتحدث إلاّ عن آية واحدة فقط.

فعيسى كان يخلق كهيئة الطير من الطين الذي هو في حقيقة الأمر ميت ولا يرى ولا يسمع ولونه غير المنسجم يظهره كالأبرص، فيكون بنفخ عيسى وبإذن الله يرى ويسمع وبجلد مغطى بالريش، لذلك جاءت الجملة 'وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ'، ثم يحيي ويكون طيرا بنفخ عيسى وبإذن الله 'وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ'.

إنّ القدرة الإلهية العظيمة جعلت عيسى يُولد بدون أب، ويكلم الناس في المهد وكهلا، ويخلق من الطين الميت طيرا حقيقيا. كما جعلت موسى ينشأ في حجر عدوه فرعون معززا مكرما، ويكلم الله تكليما ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝164۝﴾ [النساء]، ويلقي عصاه الميتة فتكون حية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وتلقف بفمها كل ما يصنعه سحرة فرعون، قال الله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ۝17۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ۝18۝ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى ۝19۝ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۝20۝ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۝21۝ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۝22۝﴾ [طه]. ورغم هذا كله، فقد أُتُهم موسى أيضا بالسحر ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝36۝﴾ [القصص].

عيسى لم يكن يشفي الإنسان الأكمه ولا الإنسان الأبرص

من البديهي أنّ للطين أو لهيئة الطير صفتا الأكمه والأبرص في آن واحد، فأتى الفعل 'أُبْرِئُ' بمعنى أُخلِّص أو أُنزِّه الطين أو هيئة الطير من هاتين الصفتين، وليس بمعنى أُبرئ أو أشفي الإنسان الأكمه والأبرص، كما ذهب إليه جميع المفسرين. هنا، سأتحدث عن البرص ولاحقا سأشرح الكمه بإسهاب.

قيل إنّ الأبرص هو الإنسان المصاب بداء البرص الذي يصيب الجلد ببقع بيضاء، وهو غير معدي ولكنه لا يُشفى. إذن، رغم أنّ هذا الداء يشوه بعض الشيء المنظر الجمالي للمصاب، فالإعاقة التي يسببها لا تقارن بالتي يُحدثها العمى أو البكم أو الصمم. والدليل على أنّ هذه الإعاقات الثلاث الأخيرة أكبر بكثير من جميع الإعاقات الأخرى، هو ذكر القرآن لها كثيرا بمختلف معانيها المجازية والحقيقية، وتخصيصها لعقاب الضالين يوم القيامة، لقوله تعالى ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝97﴾ [الإسراء].

إذن، لو كان يريد الله إعطاء عيسى معجزة الإبراء من الإعاقات ليُثبت عظمته لبني إسرائيل وليُدعّم نبوة نبيه، لأعطى عيسى معجزة إبراء الإنسان الذي يولد أبكم وأصم. ولكنه سبحانه وتعالى أعطاه أعظم من ذلك بكثير، وهو إبراء الطين من البرص بإنشاء جلد وريش جميل له. وهذا هو الصواب –والله أعلم– فإن أصبت فمن الله الذي أمرنا بتدبّر القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝24﴾ [محمد]، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان.

إذن، الآية الأولى {49 آل عمران} لا تتحدث إلاّ عن آية (معجزة) واحدة عظيمة، وهي أنّ عيسى كان يخلق طيرا كاملا متكاملا من الطين للناس بالنفخ وبإذن الله. فلا توجد في القرآن أيّة إشارة تدل لا من قريب ولا من بعيد على أنّ عيسى كان يشفي الإنسان الأكمه والإنسان الأبرص، أو يُحيي الإنسان الميت. كما أنني لم أجد أيّة إشارة في هذا الصدد في الأحاديث النبوية الصحيحة.

ولكن، هذا لا يمنع أن يكون عيسى النبي قد أعطاه الله أيضا بعض الكرامات في شفاء المرضى في حالات معدودة ومواقيت محدودة، كما يفعل ذلك مع رُسله وأنبياءه وأوليائه الصالحين، ونذكر هنا يوسف عليه السلام الذي جعله الله يشفي أباه من العمى ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿93﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿94﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿95﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿96﴾﴾ [يوسف].

فرغم حدوث مثل هذه الحالات في أرض الواقع، لا يمكن ولا يجب أن تُنسب صفة 'يشفي المرضى' المطلقة لصاحب الكرامة أو المعجزة، لأنها لله وحده لا شريك له، فنقول أنّ يوسف شفى أباه، ولا يجب أن نقول بحال من الأحوال أنّه كان يشفي الإنسان الأعمى.

عيسى لم يكن يُحيي موتى الإنس

إنني أعتقد اعتقادا راسخا أنّ إحياء موتى الإنس أعظم بكثير من معجزة خلق الطير، لأن السؤال الأعظم بعد السؤال عن الله هو المتعلق بحقيقة البعث. وقد طُرح من طرف الإنسان منذ أن خلق الله آدم، ويبقى يُطرح إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها. وقد تجد في كل زمان كثيرا من غير الملحدين يؤمنون بالله بطريقة أو بأخرى، ولكنهم لا يؤمنون بالبعث، لأنه يترتب عليه الإيمان بالحساب في الآخرة وعليه تستلزم الاستقامة في الحياة الدنيا.

ومن بين الذين أرادوا الاطمئنان في هذه الحقيقة من حيث الكيفية هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿260﴾﴾ [البقرة].

وهناك آيات أخرى كثيرة في القرآن تتعلق بهذا السؤال ومنها:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿78﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿79﴾﴾ [يس].

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿29﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿38﴾﴾ [النحل].

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿49﴾﴾ [الإسراء].

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿5﴾﴾ [الحج].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿37﴾﴾ [المؤمنون].

﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿82﴾﴾ [المؤمنون].

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿7﴾﴾ [التغابن].

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿7﴾﴾ [الجن].

ومن خلال هذه الآيات وغيرها في القرآن، يتبين جليا أنّ إحياء الموتى شيء عظيم، وأنها صفة مطلقة لله عز وجل، لقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿6﴾﴾ [الحج]. وقد أمرنا الله بالسير في الأرض والتأمل في مظاهر خلقه لنتيقن من حقيقة البعث أو النشأة الآخرة، كما جاء في قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿20﴾﴾ [العنكبوت]، وذلك من خلال التأمل في الكيفية التي يُخرج الله بها الحي من الميت، مثل إخراج الإنسان من النطفة والطير من البيضة، والنبات من البذرة، وكيف يُخرج الميت من الحي، مثل النطفة من الإنسان والبيضة من الطير والبذرة من النبات. كما ندرك هذه الحقيقة من إحياء الأرض بالنبات بعد يبْسها وجفافها، كما قال تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ

الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿19﴾ [الروم].

فالشيء الذي أريد أن أصبو إليه من خلال هذا التبيان الذي يُظهر أنّ إحياء الموتى أعظم من خلق الطير، هو أنّه لو كان عيسى يُحيي موتى الإنس فعلا، لما ذُكرت معجزة خلق الطير قبل الجملة 'وَأُحْيِي الْمَوْتَى' في الآية الأولى {49 آل عمران}، ولو كان عيسى يُخرج موتى الإنس فعلا، لما ذُكرت معجزة خلق الطير قبل الجملة 'تُخْرِجُ الْمَوْتَى' في الآية الثانية {110 المائدة}.

وكذلك، لما ذُكرت المعجزة الأقل شأنا ببعض التفاصيل' أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ '، و 'وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي'، وبينما قضية إحياء وإخراج الموتى اختصرت في الجملتين السابقتين دون أي تفصيل. إنّ هذا الطرح يستند إلى حقيقة مفادها أنّ الترتيب والتفصيل في القرآن كثيرا ما يأتي حسب عظمة الأمور وأهميتها.

بالإضافة إلى ذلك، أرى في قصة خلق الطير هذه أنّ الجملتين تحملان معنيين متعاكسين تماما ومتكاملين في الوقت ذاته. فإحداهما تشير إلى إحياء الموتى، والأخرى إلى إخراج الموتى. يُقصد بإحياء الموتى إخراج كائن حي من شيء ميت، مما يدل على أن الجملة الأولى تشير إلى أنّ الطير كان طينا (ميتا)، فأحياه عيسى عليه السلام بإذن الله. أما إخراج الموتى، فهو استخراج شيء ميت من كائن حي، مما يشير إلى أنّ الجملة الثانية تدل على أنّ الطير كان ولودا أو بيوضا.

لهذا أرى –والله أعلم– أنّ الصفة المطلقة التي نسبها الله لعيسى في الجملة 'وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي' التي جاءت في الآية الثانية {110 المائدة} لا تخص إلاّ الطير، وأنها مطلقة في هذا الأمر فقط، فالله يقصد أنّ عيسى يخلق بإذني الله طيرا ولودا أو بيوضا باستمرار متى شاء ومتى طُلب منه.

أما الصفة المطلقة التي نسبها عيسى لنفسه في الجملة 'وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ' التي جاءت في الآية الأولى {49 آل عمران}، أرى –والله أعلم– أنها لا تخص كذلك إلاّ الطير،

وأنها مطلقة في هذا الأمر فقط، فهو يقصد أنه يُحيي الطين الميت أو هيئة الطير الميتة باستمرار متى شاء ومتى طُلب منه، وهذا طبعا لا يكون إلاّ بإذن الله. فإذا أُخرج معنى هذه الجملة عن هذا السياق، تكون جملة مطلقة تماما بلا قيد، وتصبح لا تدل إلاّ على أنّ عيسى يُحيي بإذن الله باستمرار من يشاء متى شاء. إنّ هذا لشيء عظيم، بل هو أعظم من خلق الطير، فلو كان قد حدث هذا فعلا، لكانت هناك أمثلة في القرآن والسُّنّة تدعم ذلك.

إنّ إحياء موتى الإنس أمر عظيم، وهو يخص الله وحده لا شريك له، فرغم ذكر القرآن أنّ الله أحيا إنسان ميت على يدي موسى عليه السلام ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿73﴾﴾ [البقرة]، لا يمكن ولا يجب أن تُنسب صفة 'يُحيي الموتى' المطلقة لصاحب الكرامة أو المعجزة، فلا يجب القول بأنّ موسى يُحيي الموتى.

عيسى لم يكن يعلم ما يأكل وما يدخر الناس في بيوتهم

أما فيما يخص تفسير 'وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ'، يجب أولا الإمعان والتدقيق في الآية الأولى {49 آل عمران} وطرح السؤال: لماذا جاء لفظ 'لَكُمْ' في الجملة 'أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ'؟

الإجابة على هذا السؤال هو أنّ عيسى كان يخلق الطيور فيعطيها لهم (للحاضرين)، ويقول لهم أني أنبأكم بالتي تأكلونها وبالتي تدخرونها من هذه الطيور، فيأخذونها إلى بيوتهم فيأكلون بعضا منها، ويدخرون البعض الآخر، وفي اليوم الموالي يُنبئهم عيسى بالطيور التي أكلوها، وبالطيور التي إدخروها (خبئوها حيّة) في بيوتهم.

يجب الإشارة إلى أنّ كلما ذُكرت في القرآن عبارة 'خلق لكم'، إلاّ وكان ذلك المخلوق ليستفيد منه الإنسان. فالأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها الآيات الثلاثة التالية:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿29﴾﴾ [البقرة].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿21﴾﴾ [الروم].

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿5﴾﴾ [النحل].

إذن، الطيور التي كان يخلقها عيسى هي للأكل وللادخار.

أما حقيقة التنبؤ بالأكل والادخار هو شعور عيسى بموت أي طير من هذه الطيور عند أكله، لأنه مرتبط به ارتباطا عظيما، حيث هو الذي خلقه بنفخه في الطين. وهذا الارتباط لا شك أنه أشد من العلاقة الموجودة بين التوءمين اللذين يشعران ببعض حالات بعضهما البعض. وهذه الظاهرة التي تحدث بين التوءمين قد أقرها العلم التجريبي، ولكنه إلى هذا الحين لم يجد لها تفسيرا.

إنّ الشيء الوحيد المذكور في القرآن عن عيسى في قضية علم الغيب هو أنه كان يُبشِّر بني إسرائيل بمجيء الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿6﴾﴾ [الصف]. وهذا التنبؤ لا يسمح لنا أن نقول أنّ عيسى يعلم الغيب.

العلاقة بين خلق الطير ونزول المائدة

بعدما استنبطت بالحجج ووضحت بإسهاب كل الدلالات الحقيقية التي تحملها الآية الأولى {49 آل عمران}، وبعدما بيّنت بالدليل تكامل الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} في قضيتي إحياء وإخراج الموتى، أعود الآن لأطرح التساؤلات التالية:

لماذا جاءت الآية الأولى {49 آل عمران} في سورة آل عمران؟ ولماذا جاءت شبيهتها الآية الثانية {110 المائدة} في سورة المائدة؟ ولماذا جاءت أصلا؟ ولماذا لم تُذكر فيها قضية التنبؤ بما يأكل الناس وما يدخرون في بيوتهم؟

إنّ الإجابة على التساؤل الأول بديهية، لأن السورة تتحدث عن آل عمران بما فيهم ابنهم عيسى ولادته، نبوته ومعجزته.

أما الإجابة على التساؤلات المتعلقة بالآية الثانية {110 المائدة}، فهي كالتالي:

(1) أبدأها بحقيقة مفادها أنّ هذه الآية جاءت ليُدعِّم الله من خلالها القول الذي قاله

عيسى لقومه في الآية الأولى {49 آل عمران}، وليؤكد أنّ معجزته عظيمة وحقيقية. فكلمة 'الْبَيِّنَاتِ' التي أتت في أواخر الآية الثانية {110 المائدة} تشير إلى المعاني الحقيقية للكلام الذي أتى قبلها، وبالضبط إلى خلق طير من طين يرى ويسمع وله جلد مغطى بالريش وهو ولود أو بيوض. وهذه الخصائص تعتبر البراهين والحجج العينية الدّالة على أنّ الطير الذي كان يخلقه عيسى من الطين كاملا متكاملا، وهو إذن، آية (معجزة) حقيقية وليست سحرا كما قال الذين كفروا من بني إسرائيل. فلولا هذه البيّنات العظيمة التي أكدها الله تعالى في الآية الثانية {110 المائدة} تفصيلا وتبيانا لآية خلق الطير، لكان صنع عيسى لتمثال الطير وجعله يطير، مثل الساحر الذي يسحر أعين الناس بطيران الأشياء.

(2) بما أنّ الطير الذي كان يخلقه عيسى للأكل وللادخار كما بينته سالفا، فمن البديهي أيضا أن يؤكد الله هذه المعجزة من خلال الآية الثانية {110 المائدة} في سورة المائدة التي اسمها لا يدل إلاّ على الطعام. فهذه الدلالة تغني ضمنيا بيّنة التنبؤ بما يأكل الناس وما يدخرون في بيوتهم من هذه الطيور عن التكرار. فلو كان هذا التنبؤ غير متعلق بالطير وكان حقا معجزة من خلالها يعلم عيسى غيب الناس في أكلهم وادخارهم، لما حُذف من الآية الثانية {110 المائدة}، ولكن الثابت أنّ الغيب لا يعلمه إلاّ الله لقوله تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿65﴾﴾ [النمل].

(3) إنّ قصة المسيح عيسى كلها استثناءات من بدايتها إلى نهايتها، من تهيئة لعائلة عابدة واصطفاء آل عمران ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿33﴾﴾ [آل عمران]، إلى إنبات الصدّيقة الأم مريم نباتا حسنا وتكفل النبي زكريا عليه السلام بها ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿37﴾﴾ [آل عمران]، إلى ولادته من غير أب ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿91﴾﴾ [الأنبياء]، إلى كلامه وهو في المهد ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿46﴾﴾ [آل عمران]، إلى خلقه للطير

بإذن الله ﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ... ۝110﴾ [المائدة]، وصولا إلى رفع الله له إليه بعد أن توفاه ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝55﴾ [آل عمران]. فهذا الحدث العظيم تخللته كرامات وآيات متنوعة تجلّت في مختلف القضايا، وأخص بالذكر هنا قضية الرزق أو الطعام التي ركز الله عليها في هذه القصة في كثير من المحطات.

أولا: الكرامة العظيمة التي ظهرت في طعام مريم الذي كان يأتيها دائما من عند الله، حيث كلما دخل عليها زكريا وجد عندها رزقا، لقوله تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝37﴾ [آل عمران].

ثانيا: تأكيد الله بأنّ عيسى بشر من خلال وصفه بأنه يأكل الطعام، حيث قال تعالى ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝75﴾ [المائدة].

ثالثا: إنّ عيسى كسائر الأنبياء والمرسلين، لا شك أنه كان يقول للناس أنّ الله هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝29﴾ [البقرة]، فهو يرزقكم ويطعمكم ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝14﴾ [الأنعام]. فلما أرادوا التأكد بأنّ طعام مريم كان حقا من عند الله وأنّ الله فعلا هو الرزاق، طلبوا منه أن يطعمهم، فاختاروا لحم الطير لأنه من أشهى اللحوم حيث قال الله تعالى ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝21﴾ [الواقعة]. فكان عيسى يخلق لهم الطير للأكل وللادخار برهانا لكل ذلك ولنبوته، حيث قال لهم '**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ**'.

رابعا: لكن الحواريين لم يكتفوا ويقنعوا بهذا اللحم الذي خُلق لهم وبهذه المعجزة التي بدت لهم يدوية، فطلبوا من عيسى أن يُنزّل ربه عليهم مائدة من السماء فيها طعام متنوع. فجاءت

قصة المائدة مباشرة بعد الآية الثانية {110 المائدة}، وبالتحديد في ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۞111۞ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞112۞ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞113۞ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۞114۞ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۞115۞﴾ [المائدة]. وما هذا التسلسل في الاحداث وفي طبيعتها إلاّ دليل على أنّ المائدة متعلقة أيضا بخلق الطير، فالحواريون أرادوا الأكل من مائدة تكون جاهزة من عند الله 'قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا' كما كانوا يأكلون من الطيور الجاهزة من عند عيسى. وكذلك أرادوا من خلال معجزة المائدة التيقن بأنّ الله هو الذي يطعم، وبذلك ينتقلوا من علم اليقين إلى عين اليقين. كما أرادوا الاطمئنان على أنّ معجزة خلق عيسى للطير ليست سحرا بل هي أيضا برهان من الله على نبوته.

تأويلي لعبارتي 'فَأَنْفُخُ فِيهِ' و 'فَتَنْفُخُ فِيهَا'

هنا سأكتشف بعون الله تعالى السبب الحقيقي وراء وجود عبارة 'فَأَنْفُخُ فِيهِ' في الآية الأولى {49 آل عمران}، وعبارة 'فَتَنْفُخُ فِيهَا' في الآية الثانية {110 المائدة}، وبه، سأرفع اللبس عن سبب التذكير والتأنيث في العبارتين، لأنّ جميع التفاسير والتأويلات الموجودة في هذا الأمر تسودها تناقضات متباينة ويكسوها غموض شديد.

إنّ الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} تبدوان متشابهتين في المضمون، ولكنهما زوج يكمل ويفسر بعضهما البعض، ومن خلالهما يظهر جليا أنّ خلق عيسى للطير يمر بمرحلتين أساسيتين، وهذا هو السبب الحقيقي لوجود العبارتين.

المرحلة الأولى: هي النفخ في الطين لخلق هيئة الطير بكل تفاصيلها. وهذه الهيئة لا يمكن لبشر أن يصنعها، لأنها ليست تمثالا للطير. لهذا قال الله لعيسى في الآية الثانية {110 المائدة} 'وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي'. فاستعمل كلمتي 'تَخْلُقُ' و 'بِإِذْنِي'، لأنّ الخلق يكون

لله أو بأذنه وليس كالصنع. ولو كانت الهيئة هي التمثال أو الشكل فقط لما قال 'بِإِذْنِي'، لأنّ أي إنسان يمكن أن يصنع ويُشكل تمثالا للطير. وكذلك لاستعمل كلمت 'تصنع' كما استعملها مع نوح في الآيات الثلاثة التالية:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝37﴾ [هود].

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝38۝﴾ [هود].

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝27۝﴾ [المؤمنون].

المرحلة الثانية: هي النفخ في الهيئة فتكون طيرا بأذن الله. لهذا أتت الآية الأولى {49 آل عمران} بصيغة المذكر 'فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا' كي تعبر عن النفخ في الطين، والتي تمثل المرحلة الأولى. فعيسى يخبر قومه في الآية الأولى {49 آل عمران} بالمعجزة التي أتى بها من الله دون الحاجة لإخبارهم بتفاصيلها ومراحلها. أما الآية الثانية {110 المائدة} أتت بصيغة المؤنث 'فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا' كي تعبر عن النفخ في الهيئة، والتي تمثل المرحلة الثانية، وكرر الله فيها لفظ 'بِإِذْنِي' تأكيدا لوجود المرحلتين 'النفختين'.

إنّ الله يريد من خلال الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} أن يخبرنا أنّ خلق مخلوق حي من طين يمر بمرحلتين أساسيتين، كما أخبرنا بمرحلتي خلق آدم ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝71۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝72۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝73۝ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝74۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝75۝﴾ [ص].

ففي المرحلة الأولى، خلق الله هيئة الإنسان سوية من طين بيديه، ثم في المرحلة الثانية نفخ في هذه الهيئة فكان آدم. فإذا أردنا أن نقارن بين خلق عيسى للطير وخلق الله لآدم، نجد

أنّ المرحلة الثانية متشابهة تماما في كلتا الحالتين، حيث أنّ عيسى نفخ في هيئة الطير فكانت طيرا بإذن الله، وكذلك الله نفخ في هيئة الإنسان فكانت إنسانا. ونجد الفرق العظيم في المرحلة الأولى، حيث أنّ الله خلق وسوّى هيئة الإنسان بيديه، وعيسى خلق بالتأييد من الله هيئة الطير بالنفخ فقط. لأنه يستحيل لإنسان أن يخلق بيديه هيئة بجميع أعضاءها وأحشاءها وخلاياها وتفاصيلها الدقيقة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿73﴾﴾ [الحج].

تأويلي للفظ 'الأكمه'

بعدما برهنت أنّ خلق عيسى للطير وخلق الله للإنسان لهما مرحلتين أساسيتين متشابهتين، أنتقل الآن إلى إثبات أنّ البينات الدالة على عظمتهما متشابهة أيضا. وهذا، بإذن الله، سيرشدني إلى استنباط المعنى الحقيقي والدقيق لكلمة 'الأكمه'.

فالبيّنة الأولى في خلق الإنسان هي أنّ الله أحيى الطين (الميت) وجعله إنسانا حيّا. والبيّنة الثانية هي تنزيه الطين من صفة المنظر البشع (الأبرص)، وذلك بجعله بشرا سويًّا ببشرة فاتحة أو بجلد متجانس جميل وفي أحسن صورة ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿3﴾﴾ [التغابن]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿11﴾﴾ [الأعراف].

أما البيّنات العظمى الأخرى هي جعل لهذا البشر السمع والبصر والفؤاد، كما جاء في الآيات التالية:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿78﴾﴾ [النحل].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿78﴾﴾ [المؤمنون].

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿9﴾﴾ [السجدة].

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿23﴾﴾ [الملك].

والبيّنة الأخيرة هي إخراج ماء مهين (ميت: ليست فيه روح الإنسان) من هذا البشر (الحي) لجعله ولود ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿8﴾﴾ [السجدة].

بهذا يصبح واضحا أنّ هذه البيّنات متشابهة تماما بالتي فصّلتها آنفا في معجزة خلق عيسى للطير. هذا التطابق في البيّنات، بالإضافة إلى أنّ للطير أفئدة أيضا (حديث صحيح مسلم 2840)، يستلزم أنّ المعنى الحقيقي والدقيق لكلمة 'الأكمه'، التي لم ترد في القرآن إلاّ في وصف معجزة طير عيسى والتي اختلف وأخفق المفسرون في معناها لأنها نادرة الاستعمال في اللغة العربية، هو الشيء الذي ليس له السمع والبصر والفؤاد في آن واحد. فهذه الصفة لا تكون إلاّ للموتى كالطين أو مواد منه.

إذن، الله سبحانه وتعالى أعطى عيسى بيّنة إبراء الطين من الكمه بإنشاء الجهاز السمعي والجهاز البصري والفؤاد فيه، وهذا لا شك أنه أعظم بكثير من أن يعطيه معجزة إبراء الإنسان الأعمى التي ذهب إليها جميع المفسرين. وهذا هو الصواب –والله أعلم– وأدعوا الله أن أكون قد وُفِّقْت في تدبر القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿82﴾﴾ [النساء].

إن دل التطابق في بيّنات خلق الإنسان وبيّنات خلق طير عيسى الذي فصلته أعلاه على شيء، فإنما يدل على وحدة البناء في الخلق الشاهدة على وحدانية الخالق. بمعنى، أنّ الله هو خالق كل شيء بما في ذلك طير عيسى. فعيسى لله، قد استعمله الله كأداة لخلق هذا الطير، ويبقى دائما عيسى ليس هو الخالق. والغاية الأساسية من هذا هو إبهات الكافرين بعظمة الله وقدرته عن طريق عبد من عباده. وكذلك الله عز وجل يستعمل عباده لتجسيد بعض صفاته، فهو الرزاق الذي يرزق أرباب العمل فيستعملهم ليرزق الناس الآخرين عن طريقهم، ويبقى دائما رب العمل ليس هو الرزاق. ونحن المسلمون نؤمن بأنّ عيسى ابن مريم عبد الله ورسول، ومعجزته لخلق الطير لا تزيدنا إلاّ تصديقا بنبوته ويقينا بعظمة وقدرة الله الواحد الأحد ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿117﴾ [البقرة]، لم يلد ولم يولد ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿101﴾ [الأنعام].

نوع الطير الذي كان يخلقه عيسى

أما فيما يخص نوع الطير الذي كان يخلقه عيسى، لا أرجح أن يكون ولود كما ذهب إليه كثير من المفسرين، حيث قالوا أنّه خفاش دون إعطاء أيّة حجة مقنعة. وكان سببهم الوهمي في ذلك هو كون الخفاش لديه أعقد تركيبة خلقية مقارنة بالطيور الأخرى. إنّ هذا السبب يجب أن يكون مردودا، لأنّ من جهة، الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} لا تشيران ولا تلمحان لأي نوع من أنواع التحدي لا من قريب ولا من بعيد، ومن جهة أخرى، الخفاش عادة لا يطير في النهار، فحسب تأويلهم، هل كان عيسى يبيّن معجزته للناس في الليل (بعد الغروب) فقط؟، أم لم ينتبهوا لهذه الحقيقة؟ إنهم يريدون بهذا السبب تعظيم المعجزة فقط، لأنهم عجزوا عن استنباط من الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} البيّنات الكبرى الدالة على عظمة المعجزة. إنّ البيّنات التي استنبطتها بحمد الله وفصلتها سالفا كالجهاز السمعي والجهاز البصري والفؤاد والجهاز التناسلي والجلد المريّش الجميل والمذكورة في الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} أكثر من كافية لبهت أي كافر بالله.

بما أنّ الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} ذكرتا الطير بصفة مطلقة لا مخصصة، وأنّ غالبية الطيور التي خلقها الله بيوضة، وأنّ الخفاش بشع كبشاعة الأبرص، وبالاستناد إلى التفسير الذي تقدمت به أعلاه، يستلزم أنّ الطيور التي كان يخلقها عيسى للحاضرين بيوضة وجميلة ومفيدة للأكل.

الخلاصة

وتلخيصا لما ذهبت إليه أقول –والله أعلم– إنّ المعنى الدقيق والحقيقي لكلمة الأكمه هو الشيء الذي ليس له السمع والبصر والفؤاد في آن واحد، وأنّ عيسى لم يكن يشفي الإنسان الأكمه ولا الإنسان الأبرص، ولم يكن يُحيي الإنسان الميت، ولم يكن يُنبئ الناس بما يأكلون في

بيوتهم وما يدخرون من غير الطير الذي كان يخلقه لهم. وإنّما الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} تُفصّلان معجزته العظيمة التي تحققت بإذن الله، وهي خلق طير بيوض من الطين للأكل له السمع والبصر والفؤاد وجلد مريش يعطي الطير جمالا. وهذا الخلق يتم بنفختين من عيسى. ورغم هذا، فإنّ عيسى يبقى عبد الله ورسوله، ولا يتصف بصفة الألوهية، ولا يجب أن يُقارن بالله الذي خلق كل شيء نعلمه أو نجهله بما في ذلك عيسى نفسه. ولا سبيل للمقارنة بين جزئية الطير والمخلوقات (الكون وما حوى) التي خلقها الله والتي لا تعد ولا تحصى. وفي هذه الجزئية، ما خلق عيسى إلاّ عددا ضئيلا من الطيور لا يساوي شيء أمام عدد وأنواع الطيور التي يخلقها الله. وإذا أردنا التعمق أكثر في هذه الجزئية، نجد أنّ الله لم يعط عيسى إمكانية التصوير ليخلق مخلوقا جديدا ليس له مثيلا في الوجود، بل منحه القدرة على خلق شبيه للطير الذي خلقه وصوره الله من قبل. لذلك جاءت في الآيتين {49 آل عمران} و{110 المائدة} عبارة 'كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ'. فالله وهب عيسى في هذه الجزئية اللامتناهية في الصغر صفة خالق وبارئ بالنفخ فقط، وجعل هذه الصفة ملازمة لإذن الله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿38﴾﴾ [الرعد]، وتبقى صفات الخالق والبارئ والمصور المطلقة لله وحده لا شريك له ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿24﴾﴾ [الحشر].

فسبحان الله الذي خلق عيسى بنفختين وجعل عيسى يخلق الطير بنفختين، كما بيّنت ذلك في الفصل السابع. وسبحان الله الذي وصف خلقه لعيسى وخلق عيسى للطير بصيغة واحدة، وهي تخصيص آيتين متشابهتين لكل منهما، إحداهما تحوي جملة مؤنثة والأخرى تحوي جملة مذكرة.

في خلق الله لعيسى:

الآية القرآنية الأولى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا **فَنَفَخْنَا فِيهَا** مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿91﴾﴾ [الأنبياء].

الآية القرآنية الثانية: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا **فَنَفَخْنَا فِيهِ** مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿12﴾﴾ [التحريم].

في خلق عيسى للطير:

الآية القرآنية الأولى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ **فَأَنفُخُ فِيهِ** فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿49﴾﴾ [آل عمران].

الآية القرآنية الثانية: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي **فَتَنفُخُ فِيهَا** فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿110﴾﴾ [المائدة].

إنّ هذا التناسق في الوصف القرآني معجزة بعينه لمن أراد أن يتدبّر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿82﴾﴾ [النساء]، ولمن أراد أن يدَّبَّر ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿29﴾﴾ [ص]، فهو يحمل في طياته دلالات عظيمة كثيرة ومنها:

أولا: أنّ القرآن ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿42﴾﴾ [فصلت].

ثانيا: أنّ عيسى وطيره ما هما إلاّ آيتين من عند الله.

ثالثا: أنّ الله هو الخالق الواحد الأحد ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿91﴾﴾ [المؤمنون].

رابعا: أنّ القرآن من عند الله يقينا، فلو كان من تأليف بشر ما انتبه أن يضع في وصف

خلق عيسى للطير العبارتين 'فَأَنْفُخُ فِيهِ' و 'فَتَنْفُخُ فِيهَا'، وفي خلق الله لعيسى العبارتين 'فَنَفَخْنَا فِيهَا' و 'فَنَفَخْنَا فِيهِ'. فليكن المشككين على يقين أنّ هذا الوصف الذي حيّر جميع العلماء والمفسرين لا يمكن أن يُصيغه بهذا الشكل إلاّ الخالق الذي يعلم كيف خلق. وقد اكتشفتُ في هذا الكتاب بتوفيق من الله الإشارات الدقيقة عن كيفية الخلق التي يحملها هذا الوصف، وبهذا الاكتشاف استطعتُ أن أزيل اللبس والغموض عنه، والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه.

المراجع

1- الآيات القرآنية الكريمة من الموقع الإلكتروني:
https://www.almaany.com/quran-b

2- الأحاديث النبوية الشريفة من صحيحي البخاري ومسلم ومن الموقع الإلكتروني:
https://dorar.net/hadith

3- الآراء التي فندتُها هي من أقوال علمائنا وأئمتنا المفسرين الأجلاء، مثل ابن كثير، والطبري، والسعدي، والقرطبي، والبغوي، والطاهر بن عاشور، ومحمد بن صالح العثيمين، وغيرهم من أهل التفسير والتأويل. وهي تتشابه وتتقارب فيما بينها في المسائل التي تطرقتُ إليها، ولكنني بالمجمل لم أعتمد عليها في تأويلاتي، والأهم من ذلك والمؤكد، أنها تختلف تماما عن بصائري. يمكن التحقق من هذه الأقوال ومراجعتها والاستفادة من الأفكار الأخرى من خلال كتبهم أو نصوص تفسيراتهم المتاحة على عدد من المواقع الإلكترونية الموثوقة، مثل:
https://www.altafsir.com
https://surahquran.com/aya-tafsir-سورة-آية.html
قم بتعويض 'آية' برقم الآية، و'سورة' برقم السورة في الرابط.

4- الشبهات التي دحضتُها هي من أقوال مفتعلي الشبهات ومنكري السُّنّة، وكذلك من يعتنقون ما يُسمى بنظرية التطور. وهي معروفة ومتاحة في كتبهم أو مقاطع الفيديو المنتشرة عبر الإنترنت. ومع ذلك، لا أنصح بمراجعتها إلاّ بعد التحصّن بإيمان قوي راسخ، أصوله ثابتة وفروعه في السماء، لا تزعزعه الرياح العاتية في أغصانه المتينة، ولا ينخره السوس الكثيف في جذوره العميقة، فيبقى يُؤتي ثماره كلّ حين بإذن الله.